

الحوار المتوهم

مجلة محكمة تعني بالدراسات الإنسانية والاجتماعية والفكرية، يصدرها
مخبر البحوث والدراسات الإستشراقية في حضارة المغرب الإسلامي
جامعة جيلالي اليابس سيدي بلعباس - الجزائر

العدد 05
مارس 2013

رصد: 1112-945X

Mars
2013

الحوار المتوهم

N° 05

DIALOGUE MEDITERRANEEN

مارس
2013

الحوار المتوسطي

مجلة علمية محكمة تعنى بالدراسات الإنسانية و الاجتماعية والفكرية
يصدرها غير البحوث و الدراسات الإستشراقية في حضارة المغرب الإسلامي

جامعة جيلالي اليابس سيدي بلعباس - الجزائر



العدد 5
مارس 2013

ردمك : 1112-945X
الإيداع القانوني : 4402 - 2009

الحوار المتوسطي

مدير المجلة :

أ.د- حنيني هلايلي

رئيس التحرير:

د. بن عتو بلبروات

الهيئة العلمية

د. محمد بوشناق

د. آحيدة بن براهيم

د. نوالي شوتي

د. عبد القادر صخرابي

أ.د. براهيم لونيبي

د. عباس ميسوري

الهيئة الاستشارية

أ.د- عبد الحميد حاجيات (جامعة تكلمسان) أ.د- رياض بوريش (جامعة قسنطينة)

أ.د- عبد العزيز لهرج (جامعة الجزائر) أ.د- محمد صاحبي (جامعة وهران)

أ.د- آحيدة عميرابي (جامعة الأمير عبد القادر - قسنطينة) أ.د- دحو ثغور (جامعة وهران)

أ.د- إبراهيم السعداوي - تونس) أ.د. جادور محمد (جامعة الحسن الثاني- المغرب)

مجلة الحوار المتوسطي

عنوان المجلة : الحوار المتوسطي

مدير المجلة : د. حنبلي فلايلي

الناشر : تحرير البحوث و الدراسات الاستشرافية في حضارة المغرب الإسلامي

الخطوط و التصنيف : حنبلي فلايلي

الطبع : مارس 2013

العدد : 5

الإيداع القانوني : 2009/4402

الترقيم الدولي : ISSN :1112/ 945X

المطبعة : دار الأصول للنشر - سيدي بلعباس

قواعد النشر بالمجلة

ترحب المجلة بمشاركة الكتاب و الأساتذة و الباحثين .

و تقبل للنشر الدراسات و المقالات المتعمقة وفقا للقواعد التالية :

1. أن يكون محتوى العمل المقترح للنشر أصيلا لم يسبق نشره، و أن لا يتعدى حجمه 15 صفحة و ألا يقل عن 8 صفحات.
2. تكتب الهوامش بأرقام متسلسلة و توضع في نهاية الدراسة، ويراعى عند كتابة الهامش ما يلي:
-الكتاب: المؤلف، عنوان الكتاب(مكان النشر، دار النشر، سنة النشر، الصفحة).
-الدوريات: المؤلف، عنوان البحث (اسم الدورية، العدد، السنة، الصفحة).
3. ترسل الأعمال المقترحة للنشر في نسختين ورقيتين و نسخة إلكترونية على قرص مدمج، و لا ترد أصولها لأصحابه سواء نشرت أو لم تنشر.
4. تخضع الأعمال المقترحة للنشر في المجلة للجنة علمية متخصصة لتحكم في مصداقيتها و جودتها بتقارير سرية.
5. في بعض الحالات، تعاد البحوث لأصحابها لإجراء تعديلات عليها بطلب من اللجنة العلمية التي تسهر على العدد المقترح.
6. تنشر المقالات باللغات الفرنسية و الإسبانية و الإنجليزية و العربية.

**المقالات المنشورة في هذه المجلة لا تعبر إلا عن آراء أصحابها
و لا تعكس رأي المجلة.**

ترسل المقالات باسم مدير المجلة :

كلية العلوم الإنسانية والإجتماعية- جامعة سيدي بلعباس-الجزائر
مخبر البحوث و الدراسات الإستشرافية في حضارة المغرب الإسلامي
البريد الإلكتروني: hanifi_andalous@yahoo.fr

صفحة الواب: www-LEO.univ-sba.dz

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِنَّ اللَّهَ يُدْفِعُ عَنِ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ

سورة الحج: آية رقم 38

صدق الله العظيم

مقدمة

يصدر العدد الخامس تؤكد مجلة الحوار المتوسطي لجمهورها - قراء و باحثين و كتاباً - أنها تحرص على الانتظام في الصدور مرة كل سنة، و أنها تفتح صفحاتها للدارسين و الباحثين من داخل الوطن و خارجه في مجالات العلوم الإنسانية و الإجتماعية و الفكرية باللغات العربية و الفرنسية و الإسبانية و الألمانية و الإنجليزية. مع مراعاة شروط و معايير النشر المحددة في المجلة، و في هذا السياق ترحب المجلة بالموضوعات العلمية التي تتناول قضايا الساعة في مجتمعاتنا العربية و الإسلامية من جوانبها المختلفة تعريفاً و توصيفاً و تأصيلاً و تحليلاً و نقداً و اقتراحاً للحلول. فالمجلة وسيلة لنشر الإنتاج العلمي الهادف و التعريف به.

إن تقديم المضمون ينبغي أن يتجاوز أسلوب جمع المعلومات، و أحشو ذاكرة المتلقي بتفاصيلها، إلى حسن اختيار مفاتيح المعرفة للمادة العلمية، و تقديمها بالطرق التي تستثير العقل، و تحفزه على التحليل و الرغبة في الترميم و الإضافة، و توجيه الأبحاث يتحقق بإعداد مشاريع البحث، و هو ما يشده مخبر البحوث و الدراسات الإمبريقية في حضارة المغرب الإسلامي. و هو الأمر الذي نغتنم إليه الإمام الغزالي بقوله: " اعلم أن معنى التفكير هو إحضار معرفتين في القلب ليستمر منها معرفة ثالثة... فالمعرفة نتاج المعرفة فإذا حصلت معرفة أخرى و ازدوجت مع معرفة أخرى حصل من ذلك نتاج آخر، و هكذا يتهاذى النتاج و يتهاذى العلوم و يتهاذى الفكر إلى ما لا نهاية".

يحتوي هذا الإصدار، عدداً من البحوث و الدراسات التي تعالج قضايا مختصة في التاريخ و التراث و الجيولوجيا، و السياسة العامة و المجتمع المدني. و تكشف الدراسات باللغات الأجنبية عن أهمية اللغة في مجالات التنمية و التربية و التعليم الجامعي في نظام ل م د، و كذا الأدب المغربي المكتوب بالفرنسية. كما تسعى مجلة الحوار المتوسطي، في انطلاقتها الأكاديمية هاته، إلى تكون إطاراً للحوار و النقاش و التفاعل بين الباحثين في قضايا العلوم الإنسانية و الإجتماعية و السياسية و اللغات الأجنبية. و بهذه المناسبة نرحب بأعمال الباحثين العلمية.

فهرس العدد

كلمة مدير المجلة..... ص 4

الدراسات التاريخية والاجتماعية

- أ. حميد أيت حبوش: الكراغلة و دورهم السياسي في الجزائر خلال العهد العثماني ص 9
- د. شخوم سعدي: موقف فقهاء المالكية من القبائل الهلالية بالمغرب الأوسط..... ص 16
- د. بوشناق محمد: شيخ البلد ودوره في الإدارة المدنية من خلال مخطوط قانون على الأسواق ص 22
- زاهي محمد: دور نظام الوقف الإسلامي في تلبية حاجيات المجتمع الأمنية في الأندلس على ضوء كتاب المعيار للونشريسي..... ص 30
- د. بوسليم صالح- د. زين محمد: حركة التصوف ونشاط الطرق الصوفية بإقليم توات وإفريقيا الغربية خلال القرنين 12-13هـ/ 18-19م ص 36
- أ. د. هلايلي حنفي: محاولة الجزائر العثمانية توحيد المغرب العربي: بين العطلوحات الإستراتيجية والإخفاق السياسي..... ص 55
- د. بلبروات بن عتو: التراث المخطوط لأبي راس الناصري..... ص 78
- د. قنون حياة: التواجد الإسباني في الغرب الجزائري خلال الفترتين العثمانية والفرنسية..... ص 86
- سعيد العربي: إنتفاضات القبائل ضد مظالم البايات العثمانيين في منطقة غليزان..... ص 100
- أ. د. صاحبي محمد: المجلة الأفريقية دراسة إحصائية- بيبليوغرافية للمخطوطات العربية..... ص 105
- هرباش زاجية: نتائج ثورة بني غانية (580-633هـ/ 1184-1237م) ص 123

الدراسات الفكرية

- أ.د. بوريش رياض: السياسات العامة من منظور حكومي ص 130
- أ.د. هلايلي حنفي: واقع الحياة الثقافية في منطقة سيدي بلعباس خلال الفترة الاستعمارية ص 143
- أ. بركة محمد: رؤية إسلامية في القانون الدولي العام الوضعي ص 154
- د. قدومي محمد: الدولة والروابط الاجتماعية من أجل مقاربة سوسيولوجية ص 160
- رموش سفيان: المجتمع المدني ودوره في ترشيد أنظمة الحكم حالة الدول النامية (الجزائر) ص 165
- أ.ة. مناجر صورية: الترتيب الهجائي و كينيات استخدامه في الأندلس ما بين القرنين الثاني ص 181

و الرابع الهجريين

الکراغلة ودورهم السياسي في الجزائر خلال العهد العثماني

أيت حبوش حميد
جامعة تلمسان

تكونت فئة الكراغلة¹ نتيجة زواج أفراد الجيش التركي بنساء الجزائر وأظهرت لأول مرة في مدن تلمسان، معسكر، مستغانم، قلعة بني راشد، مازونة، مليانة المدية، القليعة، بسكرة، قسنطينة، وعنابة². ويعود تاريخ هذا العنصر البشري كفئة مستقلة ومتميزة ومستقلة تنافس الأتراك العثمانيين في الامتيازات إلى سنة 1596³. ولقد تضاربت الإحصائيات حول عدد الكراغلة في الجزائر عشية الاحتلال الفرنسي، فتم إحصاء خمسة عشرة ألف في حين قدرهم شالر في سنة 1825 بعشرين ألف نسمة. أما فانتور دي بارادي فقدّر عددهم في سنة 1754 بحوالي عشرة ألف نسمة⁴.

وفي إحدى الدراسات التي أعدها "مارسيل اميريت" واعتمد فيها على تقارير الضباط الفرنسيين، خلال السنوات الأولى من الاحتلال الفرنسي، أن الكراغلة في بايلك الغرب، كانوا منتشرين في المدن الآتية: خمسمائة جندي في تلمسان، وخمسمائة وأربعة في مستغانم وخمسمائة في مازونة وثمانون عائلة بقلعة بني راشد⁵ وتضم المدينة، عاصمة بايلك التيطري عدد كبير منهم، أما في مدينة الجزائر فإن عددهم كان ضئيلا، إلا أنهم كانوا يشكلون القسم الأكبر من سكان مدينتي القليعة والبليدة، وكانت قبيلة الزيتون لوحدها باستطاعتها تسليح ثمانية آلاف محارب في فترة الحرب، وفي بايلك قسنطينة، كان الكراغلة يقيمون في الحاميات العسكرية، مثل تبسة، زمورة وعنابة، وتعد حامية ميله من أكبر الحاميات في البايك⁶. وعن طباعهم وأخلاقهم لم يتحدث المؤرخون عن ذلك، إلا أننا يمكن أن نستنتج أنه بحكم أن آبائهم الأتراك، طمحووا في نيل الامتيازات التي يحظاها الأتراك العثمانيون، وحافظوا على حالة نفسية متعالية أمام أخوالهم العرب والبربر، وما بلوغهم منصب الباي إلا دليلا على طموحهم المستمر، وفي هذا الصدد، كتب مولود قايد بشأنهم أنهم يشعرون بمركب العظمة⁷.

أما لباسهم أشار "شالر" إلى ذلك وقال: "ألبسة الكراغلة مزينة بالقصب وبحواشي الذهب أو الفضة أو الحرير، طبقا لغرور الشخص ونزواته، وشكل العمامة وثنائها ونوع المادة التي صنعت منه هي المقياس الذي يحكم عليه الناس بقيمة الرجل الذي يلبسها. وفوق جميع ملابسه يلبس الكرغلي برنوسا يحمله على كتفه ويغطي به كل جسمه"⁸. وورد عن "روزيت"، أن لباس الكراغلة لا يختلف عن لباس الأندلسيين، إلا أن هندامهم أكثر أناقة

وملابسهم أكثر نظافة من هندام ولباس الأندلسيين، متأثرون بالنمط الآسيوي⁹. رغم أن هذا العنصر من صلب العثمانيين فإنه نسبة ارتبط عبر مختلف مراحل الحكم العثماني، بنسب أخواله¹⁰.

ولقد عاش الكراغلة في بداية العهد العثماني، أو طوال مدة حكم البايات 1519-1578 م كبقية العناصر العثمانية، فكانوا يتمتعون بنفس الحقوق والامتيازات التي كان يتمتع بها آباؤهم، وأبرز مثال على ذلك هو حسن بن خير الدين الذي تولى الحكم ثلاث مرات¹¹ رغم انتمائه للكراغلة¹².

ويعود سبب اندماج الكراغلة بالانكشاريين إلى قوة الحكام الأوائل الذين عرفوا كيف يوحّدون العناصر المختلفة تحت حكمهم، كما ساعدت سياستهم العادلة على خلق نوع من الانسجام والترابط بين هذه العناصر¹³. ولقد كان شغلهم الشاغل آنذاك هو الدفاع عن البلاد ضد الاعتداءات الخارجية والسعي إلى توحيد البلاد تحت راية واحدة. إلا أن الوضع قد تغير في أواخر القرن 16 م نتيجة لعدة عوامل طرأت على المستوى الداخلي فأصبح نفوذ الانكشاريين يزداد شيئاً فشيئاً حتى استولوا في نهاية الأمر على الحكم وكان أول ما فكروا فيه هو إبعاد كل من لا ينتمي إليهم بما في ذلك الكراغلة الذين أصبحوا يشكلون قوة لا يستهان بها¹⁴. ويعتبرون وجود عناصر الكراغلة في صفوف الجيش ومناصب الدولة يشكل خطراً على مصالحهم، وأن انتمائهم العائلي إلى أهالي الجزائر عاملاً مساعداً لتشكيل القوة التي ستقلب في يوم من الأيام ضدّهم، كما أن الانكشاريون يرون في الكراغلة أداة خطيرة في يد الحكام يمكن أن يستغلوها في أي وقت ضدّهم¹⁵ وهذا ما حدث في عهد خيضر باشا حاكم الجزائر سنة 1596 م عندما استعان بهم لإخماد عصيان الانكشاريين.

ولقد ذكر شاو أسباب فصل الكراغلة من المناصب الحساسة وحرمانهم من التمتع بنفس الامتيازات التي كانت يستفيد منها الأتراك العثمانيون، إلى إمكانية ارتباط الجنود الكراغلة عن طريق المصاهرة بالعائلات الجزائرية الأهلية، مما يزيد من عددهم ويشكلون خطراً على الدولة¹⁶. ولنفس الأسباب أيضاً لم يكن يسمح للأهالي بالانضمام إلى صفوف الانكشارية¹⁷. وسبب حرمانهم من الامتيازات أيضاً يعود إلى مساندة الكراغلة لطائفة الرياس، التي دخلت هي الأخرى في تنافس ضد الانكشارية، وكان الكراغلة يعتقدون أن الرياس يمنحونهم بعض المناصب، في حالة انتصارهم على الانكشارية¹⁸.

وقد كانت توقعات الأتراك العثمانيين صائبة، إذ ما لبث أن حدث ما كانوا يخشونه هو اتحاد الكراغلة فيما

بينهم، وتنظيم عدة مؤامرات. وكانت أول مؤامرة تمت سنة 1929م ضد الانكشاريين لطردهم من البلاد¹⁹ لكن رد فعل الانكشاريين كان سريعا وتمكنوا من السيطرة على الأوضاع وقمع المؤامرة²⁰. وعلى إثر هذه المحاولة الانقلابية الفاشلة، تم طرد الكراغلة من مدينة الجزائر وتفرق شملهم وتوزعوا عبر مختلف أنحاء البلاد، فمنهم من استقر بوادي الزيتون وأسسوا القبيلة التي عرفت بقبيلة الزواتنة، ومنهم من استقر بضواحي زمورة، ومنهم من التحق بمنطقة القبائل الجبلية التي كان أهلها آنذاك في حرب ضد الحكومة²¹.

كما تم طرد الكراغلة من جميع مناصب الدولة ولم يسمح لهم بالاستمرار في سلك الجندية إذ كانوا يعزلون بمجرد وصولهم إلى رتبة الضابط²²، ولكن رغم إبعادهم ظلوا يتقاضون رواتبهم من الحكومة خوفا من إثارة سخطهم²³. ولم يكتف الانكشاريون بهذه الإجراءات الصارمة التي اتخذوها ضد الكراغلة بل ضربوا عليهم حراسة مشددة إذ كانوا يتتبعون نشاطهم عن كثب وهذا ما أكدته "حمدان بن عثمان خوجة" في قوله: "وعندما يكتشف الأتراك أنهم يضمرون لهم نوايا سيئة بل عندما يخامرهم أدنى شك، فإنهم كانوا ينفون قادتهم ويفرقون اجتماعهم²⁴".

وبقي الكراغلة، منعزلين تماما ومجردين من حقوقهم وامتيازاتهم لمدة معينة وتركوا المجال للطبقة الحاكمة لتسيير البلاد حسب أهوائها.

وعن وضع الكراغلة، علق "شالر" عنهم قائلا: "الكراغلة لا يتمتعون بحقوق أكثر مما يتمتع به الجزائريون، فيما يتعلق بالمناصب في الدولة لكن يمكنهم الرقي في البحرية كما يمكنهم الوصول إلى مناصب القائد والداي. كما يتمتعون بامتيازات لا قيمة لها. ولكنه لا تربطهم أية علاقة بالأتراك وقد رفضهم العنصر التركي رفضا قاطعا واعتبرهم من جنس السكان الجزائريين²⁵". ومهما كان وضع الكراغلة، فإنهم لا يتعرضون للمضايقات التي كانت تتعرض لها بعض الفئات الاجتماعية الأخرى²⁶

وتمكن الكراغلة من الظهور من جديد على مسرح الأحداث، في عهد الداوي شعبان (1689-1695) حينما اصدر هذا الأخير قرارا نص على معاملة الكراغلة كبقية العناصر العثمانية الأخرى، والهدف من وراء هذا القرار رفع عدد الجنود لأنه كان آنذاك في حاجة ملحة إلى جيش قوي لمواجهة التطورات الخطيرة التي طرأت على الساحة

الخارجية، إذ تعرضت البلاد في فترة حكم الداوي شعبان لحمليتين عسكريتين شنها التونسيون والمغاربة على الحدود الشرقية والغربية.²⁷

وقد استطاع الجيش الجزائري بمساعدة العناصر الكراغلة، أن يتصدى لهاتين الحملتين أبل دخل إلى تونس لمساعدة احمد بن يونس ضد منافسيه محمد باي على توليه عرش تونس²⁸. وهذه الكيفية، حصل الكراغلة على امتيازات هامة وأبالتالي عوضوا ما فقدوه في مدينة الجزائر²⁹.

والهدف من هذه السياسة أو الخطة الإستراتيجية التي وضعها الحكام لتسيير البلاد، هو كسب ود وتأيد الأسر الأهلية القوية، التي كان ينتمي إليها البايات الجدد. وإذا كان تعيين البايات في بداية العهد العثماني يكون من ضمن الجنود الذي سبق لهم أن أبدوا قدرات وكفاءات عالية في الميادين الإدارية والعسكرية³²، فإن مع مرور الوقت تغيرت طريقة تعيين البايات، إذ لم يعد الحكام يلتزمون بالشروط والمقاييس المذكورة، بل أصبحت هناك عدة اعتبارات تتحكم في طريقة التعيين، من بينها: أن يكون الباي الجديد مرتبطا بعلاقات المصاهرة مع القبائل القوية، حتى يتلقى دعمها ومساعدتها، كلما تطلب الأمر ذلك، للقضاء على الاضطرابات والفتن، التي كانت تقع بين بعض القبائل والسلطة من حين لآخر³³.

وقد علق "حمدان بن عثمان خوجة" عن تعيين البايات، بما يلي: "لم يكن على الذي يريد أن يصبح بايا، إلا أن يتجه لأقارب أحمد باشا"³⁴، ويمدهم بالمال، لقد كانت تلك المناصب تباع وتشتري³⁵ وباسترجاع الكراغلة نفوذهم ومكانتهم في البلاد، بدءوا يفكرون في تنظيم مؤامرة جديدة لقلب النظام، وكانت أول محاولة لهم تلك التي قام كراغلة تلمسان ضد الحامية العثمانية في سنة 1748³⁶ وعلى إثر هذه المحاولة الفاشلة تدخلت الحكومة وقررت أن توقف تعيين الكراغلة في منصب الباي، وقد تم تطبيق هذا القرار بين سنتي (1748-1780)³⁷، إلا أن إبعاد الكراغلة من منصب الباي، كان مؤقتا، إذ عادت الحكومة إلى تعيينهم مرة أخرى في نفس المنصب، وكان ذلك ابتداء من عام 1780، وبذلك احتفظ الكراغلة بمناصبهم حتى الاحتلال الفرنسي عام 1830³⁸ وكان آخرهم الحاج أحمد باي قسنطينة الذي قاد المقاومة الرسمية ضد الاحتلال الفرنسي في الشرق الجزائري.

و يعود سبب تغيير السلطة العثمانية لموقفها اتجاه الكراغلة ، إلى مواجهة حكام الجزائر في أواخر القرن 18 م و بداية القرن 19 م لعدة صعوبات منها : الثورات الريفية التي قادها الطرقيون ، و تمردات الانكشاريين و الضغوطات الأوروبية المتزايدة ، إضافة إلى ضعف حركة التجنيد من الولايات العثمانية الشرقية ³⁹ و أيضا انخفاض عدد الجنود نتيجة انتشار وباء الطاعون .

و لقد ساعدت الظروف السائدة آنذاك على خلق نوع التقارب و التعاون بين الكراغلة و الدايات قصد مواجهة الموقف الصعب الذي كانت تمر به البلاد ، و لهذا نجد الداوي علي يستعين بالكراغلة في عام 1808 ، لإخاد عصيان الإنكشارية ⁴⁰ . إلا أن أكبر مساهمة لهم كانت في عهد علي خوجة في سنة 1817 ، الذي استعان بهم بمساعدة فرقة الزواوة ، و قد تمكن من القضاء على عدد كبير من الإنكشاريين ، و نفى مجموعة كبيرة منهم ⁴¹ و الملاحظ أن الكراغلة قد انحرفوا في أواخر القرن 18 عن تلك الأهداف التي رسموها في المرحلة الأولى و المتمثلة في طرد الإنكشاريين من الجزائر ، و انتزاع السلطة منهم ، فأصبحوا يفكرون في كيفية الحفاظ على امتيازاتهم ⁴² و سبب فشلهم في تحقيق أهدافهم يمكن إرجاعه إلى عدم محاولتهم الاستعانة بالأهالي أثناء تنفيذ مشاريعهم ، بينما استطاع كراغلة تونس ، تحقيق أهدافهم ، حيث تمكنت الأسرة الحسينية بقيادة حسين بن علي الكرغلي من الوصول إلى الحكم في تونس في عام 1705 م ⁴³ و يرد " حمدان بن عثمان خوجة " سبب الصراع الذي احتدم بين الكراغلة و العثمانيين إلى الحاجز الذي وضعه بعض الحكام بين الفتيين تحت ضغط الإنكشاريين و قد أدى ذلك الوضع إلى عدم الاستفادة من علوم و أموال الكراغلة . ⁴⁴

لذا نعتبر هذا الصراع ساهم كثيرا في إضعاف الحكم في الجزائر و قد تمكن عنصر من عناصر سكان المدن من استغلال هذا الصراع الذي نشب بين الإنكشاريين و الكراغلة لصالحه ، و لم يكن هذا العنصر سوى اليهود الذين وضع الأتراك العثمانيون ثقتهم فيهم لأنهم لا يخشون منهم الاستيلاء على الحكم ⁴⁵ و كان الحكام يعتقدون أن الاستعانة باليهود أقل خطورة من الاستعانة بالكراغلة ، لأن نفوذهم بين أهالي الجزائر كان ضعيفا ، و لكن اتضح فيما بعد أن دور اليهود في البلاد كان أخطر من كل الأدوار التي قام بها الكراغلة و بقية العناصر الأخرى .

و قد وجد الكراغلة أنفسهم ، عند سقوط الجزائر في أيدي الفرنسيين ، معزولين عن الأهالي و العثمانيين فتعرضوا إلى هجمات و مضايقات من طرف بعض القبائل ، و هذا ما جعلهم مضطرين إلى الانضمام إلى الجيش

الفرنسي⁴⁶ . وبالرغم من فشل الكراغلة في تحقيق أهدافهم ، فإن دورهم في المجتمع ، كان يتميز بالديناميكية ، و يمكن اعتباره ايجابيا ، إذ كان يعبر عن وجود معارضة داخلية .

الإحالات :

- 1- جمع كرغلي : و هو مصطلح تركي مركب من كلمتين كورو : بمعنى عبد ، أوغلي : معناه ابن ، و بالتالي المعنى من الكلمتين هو ابن عبد
- 2- ناصر الدين ، سعيدوني الجزائر في التاريخ الجزء الرابع: العهد العثماني المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر 1984 ص 94
- 3- BOYER (P) ; « Le problème kouloughli dans la régence d'Alger » in R.O.M.M.N SPECIAL AIX 1970 ,P 80
- 4- حنفي هلايلي: النظام الحربي للجزائر في العهد العثماني أطروحة دكتوراه، غير منشورة، جامعة سيدي بلعباس 2004 ص 100 .
- 5-Emerit, (M) : « les tribus privilégiées en Algérie dans la première moitié du 19sicle » in annales économiques sociétés civilisation , 21, année janvier, février 1966.p 46.
- Ibid. p 47.6
- 7- mimouni, Alger,1991 p ; 23 - mouloud, Gaid : l'Algérie sous les turques, éd7
- 8- وليام شالر أمذكرات فصل أمريكا في الجزائر 1816-1824 تعريب و تقديم إسماعيل العربي ،ش.و.ن.ت. الجزائر 1980 ص 83 .
- :
- Rozet, M et Carette , (E) :Algérie états tripolitains, éd bous lama, tunis1980; P :293.9-
IBID ,P 13 10-
- 11- تولى الحكم في (1544-1551)و(1557-1561)و(1562-1567).
- 12 - أرزقي، شويتام ،نهاية الحكم العثماني في الجزائر وعوامل انهياره(1800/1830) أطروحة ماجستيرأجامعة الإسكندرية 1988 ص 94 .
- 13 Boyer(p) : le problème kouloughli.... » op. cit ; p :80.
- 14- IBID : p : 81.
- 15- IBID : p : 82.
- 16-SHAW ;(T) Voyage dans la régence d'alger ,trad, de l'anglais par j,mac carthy, 2éd , bous lama , Tunis 1980; p : 185.
- 17- A.E. ; Ben Mansour : « le regard du captif ou le bestiaire algerien,de J.B,gramaye » in R.H. N20 Année 1985 ; p : 118.
- 18- GARROT.H : Histoire générale de l'Algérie imp., cresenzo voutes, Alger 1910,P :478
- 19- حمدان بن عثمان خوجة المرأة تعريب محمد العربي الزبيري الشركة الوطنية للنشر و التوزيع. الجزائر 1980 ص 154
- 20- Boyer, (p) : Op.cit :p : 82.
- 21- IBID P : 83.
- 22- Venture, De Paradis :Tunis et Alger ,au 18é siecle,bib, arabe sandbad ,paris 1983, P : 180.
- 23- حمدان بن عثمان خوجة المصدر السابق ص 155 .
- 24- نفسه ص 157

- 25- وليام شالر المصدر السابق ص 98..
- 26- ROZET, (M) et Carette : Op .Cit,P :13
- 27- Boyer , (P) : Op.Cit,P :84
- 28- ارزقي ، شويتام : المرجع السابق ، ص 98
- 29- Boyer (P) : Op.Cit,P :87
- 30- تولى الكراغلة في عهد الدايات ، منصب الباي في وهران ، من (1736-1748) و (1780-1799) و (1805-1812) أما في قسنطينة من (1700-1713) ، فقد عين خمسة بايات منهم أربعة كراغلة ، كما عينوا أيضا في نفس المنصب من (1792-1795) و (1803-1807) و (1815-1817) و كان آخرهم هو الحاج احمد باي الذي حكم حتى 1837
- 31- venture, DE Paradis : op ,P : 180 Cit.31-
- 32- حمدان بن عثمان خوجة ، المصدر السابق ، ص 130
- 33- L.FERAUD : « Notes historiques sur la province de Constantine , les Beni Djelleb sultans de Touggourt » in R.AN° 24 , Alger 1880 , P : 103
- 34- أحمد باشا : (1808-1805) م
- 35- حمدان ، بن عثمان خوجة المصدر السابق ، ص 150-151
- 36- A.Devaulx : « AHAD Aman ou règlement politique et militaire » , texte traduit en arabe par Mohamed Ben Mustapha , in RAN°04 , Alger 1859-60, P :211
- 37-Boyer , (P) : Op .cit , P : 89
- 38- Boyer (P) : Op .cit P :90
- 39- محمد خير ، فارس : تاريخ الجزائر الحديث من الفتح العثماني إلى الاحتلال الفرنسي ، دمشق ، 1969 ، ص 89 .
- 40- احمد الشريف ، الزهار : مذكرات الحاج أحمد الشريف الأزهار نقيب أشرف الجزائر ، تقديم و تعليق أحمد توفيق المدني ش.و.ن.ت الجزائر 1974 ، ص 103 .
- 41- نفسه ص 176 .
- 42- - Boyer (P) : Op.cit.P :90
- 43- احمد بن أبي الضياف ، إتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس في عهد الأمان ، ط 2 ، الدار التونسية للنشر ، ش.و.ن.ت الجزائر 1997 ص 107 .
- 44- حمدان بن عثمان خوجة المصدر السابق ، ص 157 .
- 45- نفسه ، ص 158 .
- 46- M.ROZET et Carette :Op.Cit, P : 78

موقف فقهاء المالكية من القبائل الهلالية بالمغرب الأوسط

د. شخوم سعدي

جامعة سيدي بلعباس

مرّ المغرب الإسلامية بعدة أحداث في تاريخه الوسيط غير من ملامحه العامة السياسية والاقتصادية وحتى الاجتماعية، ولعلّ أهمّ هذه الأحداث، كان الغزوة الهلالية له في القرن الخامس الهجري (الحادي عشر ميلادي) التي انتهت بخراب القيروان بعد هزيمة المعز بن باديس (406هـ-453هـ/1015-1061م) على أيدي بني هلال في 12 ذي الحجة (443هـ-20 أفريل 1052م)، ولقد اعتبر بعض المؤرخين أنّ هذه الغزوة - رغم ما يظهر منها ترتب عليها من سلبيات - أنّها ساهمت في تعريب منطقة المغرب¹ ويذهب فريق من المؤرخين القدماء² والمحدثين³ إلى أنّها كان ذات آثار سلبية على المغرب إذ أنّها عجلت انهيار حضارته كليا.

لكن الدارس لهذه الكتابات التي تناولت الأمر يلاحظ أنّها أغفلت جانبا مهما في المسألة وهي دراسة علاقة الفقهاء بالحدث وتعاملهم معه خاصة إذا علمنا أنّ الفقهاء كانوا يمثلون الطبقة المثقفة المؤثرة في المنطقة في تلك الفترة، وكانت القيروان في هذه الفترة تمثل حاضرة المغرب الإسلامي العلمية، وعرفت نشاطا علميا، منقطع النظير وظهر أعلام كثير في مجالات متعددة خاصة الجانب الديني تمثل في الفقه المالكي وأعلامه، والجانب الأدبي ببرز شعراء اعتبروا من أهمّ أدباء تلك الفترة مثل الحسن بن رشيق القيرواني (390هـ-463هـ/1000-1070م) وابن شرف (عبد الله بن أبي سعيد) وغيرهما. وهكذا كانت فترة المعز بن باديس رغم أنّها انتهت نهاية مأساوية فترة حركة علمية هامة في بدايتها، ويأتي هذا العرض، لإبراز تفاعل الجانب الثقافي العلمي مع غزوة بني هلال وبني سليم للمغرب، إذ أنّ أغلب الدراسات ركزت على الجوانب الاجتماعية والاقتصادية وكذا السياسية وذلك بالإشارة إلى خصائص هذه القبائل، وأشهر الفقهاء المغاربة في السنوات التي دخلت فيها هذه القبائل المغرب وفتاواهم، ومدى تغير مواقفهم مع مرور الوقت، وأثر هذه الفتاوى في تعامل التركيبات الاجتماعية المغربية بين بعضها البعض. ويبقى هذا العرض إشارة تحاول تحفيز الباحثين والدارسين، إلقاء المزيد من الأضواء على هذا الحدث الهام الذي ترك

آثاره العميقة في منطقة المغرب الإسلامي للفتترات متتالية.

خصائص قبائل بني هلال وبني سليم الاجتماعية:

التعريف بهذه القبائل ليس موضوع العرض إذ أنّ أغلب الدراسات سواء القديمة أو الحديثة سعت التعريف بها وبأصولها ولعلّ أهمّها ما كتبه ابن خلدون في كتابه العبر وديون المبتدأ والخبر⁴، بل المراد هو ذكر مميزاتها بعد فترة صدور الإسلام ومدى خضوعها للحكم المركزي الذي عرفه العالم الإسلامي في تلك الفترة، ولعلّ أهمّ الخصائص التي امتاز بها الهلاليون دون غيرهم من القبائل، هو اعتمادنا في مصادر معيشتها على الإغارة على القوافل، وذلك منذ أن كانوا حول المدينة المنورة سنة (229هـ/844م)، فكانوا يغيرون على أسواق الحجاز في هذه الفترة ويأخذون البضاعة بأي سعر أرادوا⁵، وبذلك

دخلوا في حرب مع ولاية العباسيين ولم يتغير وضعهم هذا مع مرور الوقت قد كانوا يغيرون على الحجاج لأجل ضمان كسبهم، وقد أدت هذه الوضعية إلى انقطاع سبل الحج في أغلب الطرق المؤدية إلى مكة⁶، ولم تكن قبيلتي بني سليم وبن هلال مستقرتين على طبيعة البدو فكانوا أحياء ناجعة بمجالاتهم من قفر الحجاز بنجد، فبنو سليم مما يلي المدينة و بنو هلال في جبل غزوان عند الطائف و كانوا يطوفون رحلة الصيف والشتاء أطراف العراق والشام و بقيت فيهم صفة الإغارة طول عهد العباسيين⁷.

ولعل أهم تحول حدث لهاتين القبلتين هو تحولهم لأحلاف للدولة بداية من القرامطة بالبحرين⁸، وعمان⁹، وعندما تغلب الفاطميون على مصر والشام، صاروا أحلافا لهم بذلك ونقلوهم إلى صعيد مصر ونظرا لأنها قبائل غير مستقرة دخلت في مواجهة مع أهل الصعيد، وألحقوا الأضرار بالمنطقة¹⁰، إلى درجة أن الفاطميين ضاقوا ذرعا بأعمالهم هذه، وبعد انتقامهم إلى المغرب، ورغم دخولهم في حرب مع الدولة الصنهاجية إلا أنهم تحالفوا بعد ذلك مع الحماديين في حربهم مع الموحدون ثم أصبحوا أحلافا للموحدون وبعد قيام الدول المغرب الثلاث: الحفصيين و الزيانيين و المرينيين دخلت بطونهم في تحالفات ظرفية في صراعات هذه الدول فيما بينها، وهكذا يمكننا ملاحظة أن هذه القبائل غير المستقرة والتي غلب عليها الطابع الحربي استغلتهما الدول المتعاقبة بعد أن أدركت قدرتها الحربية في حروبها وتصفية حساباتها، نظرا لكون هذه القبائل غير مستقرة وبالتالي يغيب مفهوم الدولة والحضارة عندها¹¹.

أشهر الفقهاء المغاربة الذين افتوا ضد القبائل الهلالية:

إذا كانت الدول و سلاطينها تتعامل مع هذه القبائل وفق مصالحها واستعمالها كرأس حربة في مواجهة بعضها البعض، كما فعل الفاطميون مع المعز بن باديس عندما تنصل من بيعتهم وأعلن بيعته العباسيين في المنابر، فإن الفقهاء المغاربة تعاملوا مع هذه القبائل بنوع من الشدة وذلك لأسباب عدة منها:

- أن هذه القبائل كانت السبب المباشر في خراب القيروان¹²، التي كانت تعد قلعة فقهاء المالكية في القرن الخامس الهجري وقبله.
- دخول هذه القبائل في ولاء دولة الفاطميين الذين فتكوا بالمالكية قبل ذلك عندما كانوا بالمغرب¹³.
- وقوع القبائل الهلالية في بعض المخالفات الدينية وضعف الوازع الديني لها مما جعل هؤلاء الفقهاء ينتقدون تصرفاتها بل ويفتونها حولها. فقد ذكر الونشريسي في المعيار المغرب بأن غالبيتهم لا يحجبون نساءهم، ويميزون الغيبة ولا يميزون بين الحلال والحرام¹⁴.

ومن مظاهر التصرفات التي كانت لدى بني هلال وأدت إلى مواجهة مع الفقهاء، مثل دخول بعضهم إلى المساجد بالأحذية وهو ما حدث مع كبير الأعراب وهو هداك بن عبيد وهو أمر لم يألفه أهل المغرب¹⁵. ومن المظاهر كذلك هو أن بعض هذه القبائل كانت لا تورث النساء وهو ما واجهه الفقهاء كذلك كما يذكر الونشريسي¹⁶.

ومن أهم أعمال القبائل الهلالية التي وقف ضدها الفقهاء هو تخريبهم كذلك لبعض الحقول والبساتين التي كانت تمثل أهم نشاط زراعي للمغاربة في تلك الفترة¹⁷. وما تجدر الإشارة إليه هنا أن هذه الأعمال التي كان يقوم بها الهلاليون كانت

منذ دخولهم المغرب في القرن الخامس الهجري (الحادي عشر الميلادي) حتى عهد الحفصيين، وهذا ما يتضح لنا خلال فتاوى الفقهاء والمالكية عبر هذه الفترات المتتالية، ومن أشهر هؤلاء الفقهاء الذين تصدوا بالفتوى من هذه القبائل كان محمد بن سعدون القروي (413-485 هـ/1022-1093م)¹⁸ ومحمد بن علي إسحاق المازري الفقيه والمحدث (453 - 536 هـ/1061-1141م)¹⁹ والسيوري (المتوفي سنة 460 و قبل 462 هـ/1062 م أو 1069 م) وهؤلاء الفقهاء عاصروا خراب القيروان وفروا منها أثناء حصارها²⁰. وبعد هؤلاء جاءت طبقة من الفقهاء المالكية بقيت تسير على طريقهم، مثل أبو إسحاق إبراهيم بن حسن بن علي بن عبد الرفيع الرقعي قاضي الجماعة المتوفي سنة 733 هـ²¹، وأبو الحسن علي بن عثمان المتقلاتي فقيه بجاية في القرن الثامن²²، وكذلك أبو زيد عبد الرحمن بن أحمد الوغليسي صاحب الجامعة في الأحكام المسماة بالوغليسية المتوفي سنة 786 هـ ببجاية²³.

ونجد كذلك في الفترات المتأخرة في العهد الحفصي أبو عبد الله محمد بن عرفة الورغمي (716-805 هـ/1316-1400م) صاحب المختصر في الفقه²⁴ وأبو القاسم بن عيسى المعروف بابن ناجي القروي المتوفي سنة (838 هـ-1433م) شارح رسالة ابن أبي زيد القيرواني ومدونة الإمام مالك²⁵ زمن هؤلاء الفقهاء كذلك نجد أبا القاسم بن أحمد بن اسماعيل البرزلي (730 هـ-843 هـ/1329-1439م) صاحب النوازل²⁶.

فهؤلاء الفقهاء تصدوا بالفتوى لأعمال القبائل الهلالية وما تفرع عنها من بطون بعد ذلك واتخاذ أهم الفتاوى التي أفتاها المالكية المغاربة حول القبائل الهلالية.

أهم الفتاوى التي أصدرها الفقهاء بخصوص القبائل المالكية:

تعدد مجالات الفتاوى التي أصدرها الفقهاء المالكية فيما يخص القبائل الهلالية إلا أنه يجب أن نشير إلى أن فقهاء القرن الخامس الهجري الذين كانوا بالقيروان، كان لهم دور آخر غير الإفتاء، حيث أنهم توسطوا للحيلولة دون اصطدام بجيش المعز بن باديس، ونشير إلى أن هؤلاء الفقهاء كان المعز قد أرسلهم المعز أولاً، وقد انتهى هذا الأمر يأخذ الموائيق والعهود بين الطرفين إلا أن الأمر انتهى بالفشل ودخول الهلالية القيروان²⁷ وهكذا للأسباب السالفة الذكر ساءت العلاقة بين الفقهاء المالكية والهلالية فألف محمد بن سعدون الفروي كتاباً فيما يخص هذه الحادثة سماه: تعزية أهل القيروان بما جرى على البلدان من هيجان الفتن وتقلب الأزمان وقد نقله ابن عذارى مختصراً في كتابه البيان المغرب²⁸، وقد حمل الفاطميين مسؤولية ما حدث للقيروان، وأفتى المازري بعده بعدم التعلل بالخوف من الأعراب للتخلص من الالتزام بأحكام الإسلام²⁹، وهذا يدل على مدى المواجهة بين الفقهاء والهلالية في الوقت الذي كانت العامة تخشى ذلك، وأفتى السيوري بتحريم التعامل معهم³⁰، ومن جهة أخرى أفتى أبو إسحق بن عبد الرفيع بأخذ أراضيهم (مصادرة) بستان (حقل) كان لأحد بطون رباح (لبنوسبطي) رغم أن أبا يحيى الحفصي كان قد أقطعها لهم لكنه أفتى بأخذها منهم نظراً لأنها كانت لغيرهم قبل ذلك³¹، وذهب عبد الرحمن الوغليسي إلى تحريم الشراء من الأعراب الذين يعرفون بالغصب³²، وكان على بن عثمان المتقلاتي أبعد من ذلك عندما منع أحد مستخدمييه أن

يبيعهم الشعير ولو كان مستدينا³³، وهذا يدل على مدى الشدة التي كان يتعامل بهذا الفقهاء المالكية مع بطون الهلالية مع الوقت.

ولكن أشد الفتاوى صرامة مع قبائل رياح من بني هلال كانت فتوى البرزلي الذي أفتى بقتل عرب إفريقية من المحارين³⁴ وأفتى ابن ناجي بتحريم بيعهم آلات الحرب³⁵، بل ابن عرفة الورغي أفتى بخصوص قبائل سويد والديلم ورياح وبني عامر بقتلهم وأن قتلهم أفضل من قتال الروم والملاحظة أن مفتيه كان أحد فقهاء تلمسان الذي أفتى بنفس الفتوى³⁶ وهكذا كانت هذه الفتاوى المضادة للقبائل الهلالية ويطونها منذ دخولها المغرب حتى عهد الدول الثلاث الحفصية تنحو منحى بعضها البعض في العلاقة السنية بين الفقهاء والقبائل العربية، لكن يجب أن نشير هنا أنه لم تكن كل الفتاوى كذلك، فقد أفتى الفقيه أبو عبد الله بن الحباب المالكي المتوفي سنة (748 هـ / 1347 م) لصالح بني السبطي في ملكيتهم لإحدى بساتين تونس وهو ما نفاه بعد ذلك أبو أسحق بن عبد الرافع³⁷، وأفتى أبو محمد عبد الله بن بختي الزواوي بجواز الشراء من العرب المعروفين بالنهب ولاقى معارضة شديدة من فقهاء عصره أيام الدولة الحفصية³⁸.

وهكذا يمكن ملاحظة المنحى العام المتشدد من الفقهاء القبائل الهلالية ويطونها بعد ذلك رغم وجود بعض الاستثناءات التي كانت لصالحها، والتي كان سببها قوة هذه القبائل وسيطرتها حيث أن الونشريسي يشير إلى أن بني سبطي كانوا يتحكمون في أحوال المدينة أيام أبو يحيى الحفصي وهو ما أدى بهم إلى حصولهم على هذه الفتوى التي سمحت لهم بالحصول على هذه الإقطاعات، وفتوى ابن عرفة كانت رداً كذلك على بعض فقهاء تلمسان الذين رفضوا بالإفتاء بقتال عرب سويد ورياح وبني عامر، وهو ما يدفع الباحث إلى التساؤل عن مدى التداخل بين فتوى الفقيه وصراع الدول فيما بينها خاصة في الفترة المتأخرة التي تلت الدولة الموحدية ودور بطون الهلالية من رياح ورغبة في ذلك، وهكذا يبقى هذا العرض في حاجة إلى تغطية هذا الجانب المتمثل في علاقة الفقيه بالحاكم في هذه الفترة وأثر ذلك على فتاويه ثم الربط بالموضوع المشار إليه عبر دراسة سيرتهم الذاتية وتراجهم التي زالت جوانب عديدة منها خفية خاصة وأن أغلب المصادر لا تعطينا حتى سنوات وفاة بعضهم.

الإحالات:

¹ حسني مؤنس معالم تاريخ المغرب الإسلامي، دار مطابع المستقبل، القاهرة، 1980، ص-ص: 155-156.

² -ابن خلدون، (عبد الرحمن)، العبر ودويان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، دار الكتاب اللبنانية، ط 1968، مج 4، ص: 130.

³ -علاوة عمارة، الهجرة الهلالية، إشكالية انحطاط حضارة المغرب الإسلامي الوسيط، قراءة في نقاش تاريخي، مجلة الآداب والعلوم الإنسانية، دورية علمية تصدرها كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، قسنطينة، العدد الرابع، رمضان 1425، أكتوبر 2004، ص-ص: 31-75.

⁴ -ابن خلدون، (عبد الرحمن)، العبر، مج 6، ص: 27.

- ⁵ - ابن الأثير، الكامل في التاريخ، دار الكتاب العربي، بيروت، 1983، ج 5، ص: 270.
- ⁶ - ابن الأثير، المصدر السابق، ج 7، ص: 58.
- ⁷ - ابن خلدون، العبر، ج 6، ص: 27.
- ⁸ - البحرين: هي كل أرض بين البصرة وعمان في العصر الوسيط: عبد الله بن عبد العزيز البكري، معجم استعجم من أسماء البلاد والمواضع، تحقيق مصطفى السقا عالم الكتب، بيروت، ط 3، 1403 هـ - 1983 م، ج 1، ص: 288.
- ⁹ - عمان: هي من أرض العروض بجزيرة العرب، المصدر السابق، ج 2، ص: 970.
- ¹⁰ - ابن خلدون، العبر، ج 6، ص: 28.
- ¹¹ - ابن خلدون، المقدمة، دار القلم، بيروت، ص: 125 وما بعدها.
- ¹² - ابن عذاري، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، تحقيق: ج. س. كولان، وليفي بروفسال، دار الثقافة، 1930، ج 1، ص: 298.
- ¹³ - عبد الرحمن الدباغ، معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان، تحقيق إبراهيم شيوخ، ط 1968، القاهرة، ج 2، ص: 158 وما بعدها.
- ¹⁴ - كمال أبو مصطفى، جوانب من حضارة المغرب الإسلامي من خلال نوازل الوئشريسي، مؤسسة سباب الجامعة، الاسكندرية، 1997، ص: 102.
- ¹⁵ - أحمد بن يحيى الوئشريسي، المعيار المغرب والجامع المغرب عن فتاوى أهل إفريقية والأندلس والمغرب، دار الغرب، ط 1981، ج 1، ص: 22.
- ¹⁶ - المصدر السابق، ج 11، ص: 293 و ص: 297.
- ¹⁷ - المصدر السابق، ج 8، ص: 44.
- ¹⁸ - أبو بكر المالكي (عبد الله بن محمد)، رياض النفوس في طبقات المالكية، تحقيق: بشير البكوش ومحمد العروسي المطوي، دار الغرب الإسلامي لبيروت، 1980، ج 2، ص 314.
- ¹⁹ - ابن خلكان، وفيات الأعيان وأنباء الزمان، طبع ونشر محمد محي الدين عبد الحميد، القاهرة، 1950، ج 1، ص: 615.
- ²⁰ - الهادي روجر ادريس، الدولة الصنهاجية، ترجمة حمادي الساحلي، دار الغرب الإسلامي، ط 1، 1992، ج 2، ص 345.
- ²¹ - ابن فرحون، الديباج المذهب في معرفة أعيان المذهب، مطبعة السعادة، القاهرة، 1911، ص: 89.
- ²² - أبو القاسم الحفناوي، تعريف الخلف برجال السلف، مؤسسة الرسالة، بيروت، المكية العتيقة، تونس، ط 1: 1982، ج 1، ص: 77.
- ²³ - المصدر السابق، ص: 72.
- ²⁴ - أحمد بابا التنبكتي، الابتهاج بتطريز الديباج، مطبعة السعادة، مصر 1918، ص: 274.
- ²⁵ - السخاوي (محمد بن عبد الرحمن)، الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، مكتبة القدسي، القاهرة، 1937، ج 11، ص: 113.
- ²⁶ - الحفناوي، تعريف الخلف، ج 2، ص - ص: 92 - 93.
- ²⁷ - ابن عذاري المراكشي، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب تحقيق: ج. س. كولان، وليفي بروفسال، دار الثقافة، بيروت، ط 2: 1400 هـ، ج 1، ص: 288.

- ²⁸ -المصدر السابق، ص-ص: 281-287.
- ²⁹ -الونشريسي، المعيار المعرب، ج 9، ص: 602.
- ³⁰ -المصدر السابق، ج 9، ص: 543.
- ³¹ -نفسه، ج 10، ص: 104.
- ³² -نفسه، ج 5، ص: 88.
- ³³ -نفسه، ج 5، ص: 93.
- ³⁴ -محمد بن أبي القاسم (ابن أبي دينار)، المؤسس في أخبار إفريقية وتونس، دار المسيرة، بيروت، مؤسسة سعيدان، تونس، ط 3، 1983، ص: 198.
- ³⁵ -نفسه.
- ³⁶ -الونشريسي، المعيار، ج 6، ص-ص: 153-155، الفقيه هنا هو أبو العباس أحمد المريض، وقد وافقه الرأي نفسه الفقيه أبو مهدي عيسى بن أحمد بن محمد الغبريني (ت 813 هـ / 1410 م): نفسه، ص-ص: 155-156.
- ³⁷ -الونشريسي، المعيار، ج 10، ص: 103.
- ³⁸ -نفسه، ج 5، ص: 68.

شيخ البلد ودوره في الإدارة المدنية من خلال مخطوط قانون على الأسواق

د. بوشناني محمد

جامعة سيدي بلعباس

اعتبرت وظيفة شيخ البلد من الوظائف الإستراتيجية الهامة داخل المدينة، خاصة وأنها ارتبطت بالحياة الاقتصادية، كما كانت على اتصال مباشر بالسلطة العليا للإيالة، وما يجب الإشارة إليه أن هذا المنصب لم يستحدث مع مجيء العثمانيين، بل يظهر أنه وجد في المنطقة قبل ذلك بزمان طويل، وذلك بسبب البنية الاجتماعية للمجتمع المغربي التي تقوم على فكرة القبيلة والتي تخضع بدورها للشيخ، ولما دخل العثمانيون إلى الجزائر خلال القرن السادس عشر أبقوا على هذا المنصب، وجعلوا منه وظيفة رسمية في الإدارة المدنية العثمانية.

لقد ذكر منصب شيخ البلد في معظم المصادر المحلية والأجنبية، والتي تعطينا تفاصيل مهمة عن صاحبه ووظيفته ومكانته في هرم الإدارة المدنية، ومن هذه المصادر كتاب التشريعات، كما نجد له ذكرا في مصادر القرن الثامن عشر ومطلع القرن التاسع عشر مثل "شو Shaw" و"تاسي Tassy" و"بايسونال Peyssonnel" وغيرهم، ويبقى هايدو من بين أولئك الذين لم يتحدثوا في هذه الوظيفة، رغم أنه أطنب الحديث في كثير من الوظائف والقضايا من خلال "طبوغرافيته"⁽¹⁾.

ويظهر أن وظيفة شيخ البلد اكتست أهمية خاصة لدى مسؤولي الإيالة، لدرجة أن الباشا كان يشرف بنفسه على تعيين صاحبها، وذلك لأن متوليها سيصبح بمثابة الواسطة بينه وبين السكان المحليين من العرب والبربر، ولذلك كان يشترط فيمن يتولى هذا المنصب أن يكون من العنصر المحلي ومن العائلات العريقة ذات المكانة المرموقة والحظوة والاحترام داخل المجتمع، ففي مدينة قسنطينة، على سبيل المثال، توارثت عائلة بن قانة وبوعكاز والمقراني هذا المنصب لفترة طويلة من الزمن، وكانت هذه العائلات معروفة بمكانتها الاجتماعية داخل المدينة وبعلاقاتها المتميزة بالسلطة الحاكمة⁽²⁾.

ونتيجة لعلاقته المباشرة بالباشا، إذ كان يسمح له بمقابلته كلما استدعت الضرورة ذلك، فإن مقر شيخ البلد كان موجودا قرب مقر الباشا بقصر الجنينة، حيث يذكر "دوفو Devoulx" بأنه كان موجودا في القصبة السفلى، أو في الشارع الذي أصبح يسمى "كورون la Couronne" بعد الاحتلال الفرنسي للجزائر⁽³⁾، كما كان يراعي في مقره قرب من السوق، وذلك لأن وظيفته كانت تتطلب منه، مراقبة أصحاب الحرف والصنائع، ولهذا كان

مقره داخل السوق عبارة عن حانوت يجلس فيه وينظر في قضايا ومشاكل مرتادي السوق، وعلى سبيل المثال فإن شيخ البلد المدعو إبراهيم كان له مقر بسوق الشبارلي⁽⁴⁾.

لقد تعددت المهام والوظائف التي أوكلت إلى شيخ البلد، فهي تشمل المجالات القضائية والأمنية والاجتماعية، فنجدته يتدخل في مراقبة أهل الحرف من خلال سهره على السير الحسن لمختلف النقابات الحرفية، وذلك من خلال قيامه بالتنسيق مع أمناء هذه الطوائف، فيحصر مشاكلهم وحاجاتهم، ثم يتصل بالسلطة بهدف إيجاد حلول مناسبة لها⁽⁵⁾، ومقابل هذه الوظائف يتقاضى شيخ البلد من الحرفيين ضرائب ورسومًا كل شهرين قمريين، يدفعها إلى خزينة البايليك بعدما يستخلص أجره منها، ولهذا الغرض خصص له سجل يشرف عليه أحد الخوجات تسجل فيه قيمة الضرائب التي تم جمعها وأجره منها⁽⁶⁾.

نخبرنا "مخطوط قانون على الأسواق" على نماذج كثيرة من الضرائب التي كان يفرضها شيوخ البلد على أصحاب الحرف، ومن أمثلة ذلك أن الداوي بابا أحمد (1695-1699) راسل كل من عبد الله محمد بن الحاج يوسف الشويهد وسليمان شيخ البلد والسيد أحمد بن الفاسية والأمين، وأمرهم باستخلاص ما قيمته مائة وثلاثة وأربعين ريالاً (143 ريالاً) كضرائب مفروضة على مختلف أهل الضائع، فاجتمع الجميع في جامع السيدة وحددوا القيمة التي يدفعها كل حرفي، وذلك ما يبينه الجدول (رقم 1):⁽⁷⁾

الحرفة	قيمة الضريبة	الحرفة	قيمة الضريبة
الغمد	15 ريالاً وثلاثة أرباع	العطار	3 ريالاً
المقاييسي	نفسه	الخياط	3 ريالاً
الدباغ	18 ريالاً	سوق القبائل	3 ريالاً
المكاحلي	9 ريالاً وسبعة أثمان	الصباغ	3 ريالاً
التقماقجي	نفسه	الخراز	3 ريالاً
الحداد	7 ريالاً	بابوجي	3 ريالاً
أتماق	4 ريالاً	افراصدي	ريال واحد
سفاطي	9 ريالاً ونصف	دلال سوق الخياطين	3 ريالاً
الرتايي	ريالين وثلاثة أثمان	شواشي	5 ريالاً
حمال مخزن	ثلاثة ريالاً وثلاثة أثمان	الفكاي	3 ريالاً
الزراع			

ريال واحد	حمال الزيت	أربعة ريالات ونصف	الحوك
3 ريالات	الحامي	10 ريالات وستة أثمان	الحفاف
ريالان	الفخارجي	4 ريالات	القنداقجي
		14 ريالا ونصف	رحبة الزرع

وحسب المخطوط فإنه في بداية الأمر تم فرض الضرائب على أربعة عشرة حرفة فقط (من الغهاد إلى رحبة الزرع كما هو موضح في الجدول)، غير أن المكلفين بالتحصيل وجدوا عجزا قدر بأربعين ريالا عن المبلغ المفترض جمعه، مما جعلهم يلجأون إلى الداوي بابا أحمد، الذي أمرهم بفرض ضرائب أخرى على أصحاب الحرف المتبقية، فأدرجت ثلاثة عشرة حرفة جديدة لتدارك هذا العجز. وإلى جانب ذلك نجد شيخ البلد يتدخل، إلى جانب موظفين آخرين، في تحديد الكيفيات والمقادير المستعملة في بعض الصناعات، فحسب المخطوط دائما، كلف الداوي بابا حسن كلا من محمد الشويهد (كاتب المخطوط) وشيخ البلد وسليمان المحتسب، فتوجه جميعهم إلى دار القاضي (الحنفي)، فاشترى السلع والمواد التالية:⁽⁸⁾

— ثلثا رماد (كمية من الرماد المستعمل في صناعة الصابون) بسعر أربع قطع ذهبية.

— كمية من الخطب بدينارين وتسعة وعشرين درهما.

— ماء بعشرة دراهم.

— نصف تمتاجير (مادة تدخل في صناعة الصابون) بتسعة وعشرين درهما.

— أجرة النقل بأربعة دراهم.

— حمولة الزيت ستة دراهم.

— قلة الزيت بأربعة ريالات إلا ربع.

وحددت جميع المصاريف بخمسة وعشرين دينارا واثنى عشر درهما، وذلك بشهادة القاضي نفسه، بعد ذلك تم تحضير الصابون بدار القاضي، وحضر العملية كل من باش باباشي وكاهية البايليك وشاوش الانكشارية، وهم من الضباط الذين يمثلون الداوي، إضافة إلى المحتسب سليمان وشيخ البلد وبعد تحضيره تم وزن الصابون، فكان وزنه الصافي اثنين وأربعين رطلا، أما كلفته فكانت ثلاثون درهما⁽⁹⁾.

وإضافة إلى ذلك، شارك شيخ البلد إلى جانب عدد آخر من الموظفين والأعيان في وضع مجموعة من الضوابط والإجراءات، التي تهدف إلى المحافظة على أصالة حرفة صناعة "الشواشي"، حيث يطلعنا المخطوط أن

الداي بابا حسن دعا إلى اجتماع يدرس قضية حرفة صناعة الشواشي وذلك بهدف الحفاظ على أصالتها ومنع كل أشكال الغش والفساد التي التصقت بها، وقد كلف كل من محمد الشويهد وسليمان شيخ البلد والسيد أحمد بن ألقاسيا وأمين حرفة الشواشي، بكتابة عقد حول هذا الموضوع في دار القاضي، وذلك بحضور عدد من العلماء والشهود، وتضمن العقد الذي حرر بتاريخ منتصف جمادى الأولى عام 1110 هـ/ 1698 م، ما يلي:⁽¹⁰⁾

الشاشية الطويلة قياس خمسة أجزائها خمسون درهما.

الشاشية القصيرة قياس ثمانية أجزائها خمسون درهما.

بعد تلوين الشاشية يصبح سعرها (الطويلة والقصيرة) 12 (غير واضح ؟) في الدزينة.

يمنع على الحرفيين استعمال الصوف المحلية في صناعة الشواشي، ومن فعل ذلك يعاقب ويمنع من ممارسة المهنة.

كل متعلم التحق بمحل لتعلم المهنة لا يسمح له بمغادرته إلا بعد إتقان الحرفة.

تعيين أربعة مساعدين يعاونون الأمين في مهامه.

ونجد في المخطوط أيضا القيمة المالية التي كان شيخ البلد يستخلصها من أهل الحرف والسكان والتي يطلق عليها "الضيقة" بداية كل عام، وقد تكون كذلك عينية، فيدفع نصيبا منها إلى خزانة البايليك، ويحتفظ بجزء منها لنفسه، فيدفع منها بشماقا لشراء منصبه، ويخصص جزءا آخر لدفع الهدايا وإقامة الولائم، وقد حددت القيم كالتالي:⁽¹¹⁾

الجهة	التمن	المكان	
بحار باب عزون	15 ريالا	الصفار	؟
بحار باب الواد	15 ريالا	سوق القبائل	4
المركاد باب عزون	5 ريالات	دلال سوق الخياطين	أربع وستون ونصف (4-64)
الفحام	13 ريالا	الحوكي	12 ريالا
التبان	2-5	الفكاي	33 ريالا
اللبان	2-5 ريالات	الجلاب	17 ريالا

الخراز	5-4	الحمامات	إثني عشر ونصف (12-4)
	ريالات (خمسة ونصف)		
الجواحي	6 ريالات	همال الرمانة	أربع ونصف (4-4)
رحبة الزرع	64-4	الجواب	خمس غير ربع (6-4)
	ريالا (أربع وستون ونصف)		(4)

وكان شيوخ البلد يتدخلون في شراء بعض الدواب لفائدة البايليك، فلقد كلف الداى بابا حسن في مطلع صفر من عام 1112هـ/ 1700م، شيوخ البلد ومحمد الشويهد المجتمعين في دار الإمارة، أن يوفر الأمناء أربعمئة حصان، ثم أضاف الداى ستين حصانا فأصبح العدد كله أربعمئة وستين حصانا، أما المبلغ الإجمالي الذي خصص لشراء هذا العدد من الدواب فبلغ 9567 ريالاً، ولكن الداى أصدر أمراً إلى الموظفين السابقين ذكرهم، بزيادة عدد الخيول، فاشترى ثلاثاً وسبعين حصانا كلفت الخزينة ألف وستمئة وثلاثة وعشرين ريالاً (1623 ريالاً)⁽¹²⁾.

كما يذكر المخطوط أن شيخ البلد كان يتدخل لحل النزاعات والخلافات التي كانت تنشب من حين لآخر بين أصحاب الحرفة الواحدة أو بين النقابات الحرفية المختلفة، وبذلك فإنه كان ينوب عن القاضي في حل خلافات الحرفيين، ويظهر -حسب المخطوط دائماً- أنه كان ينجح في مهمة فض النزاعات من خلال الصلح، ومن أمثلة ذلك ما يلي:

- تدخل شيخ البلد السيد محمد الفقير عام 1107هـ/ 1697م في الخلاف الذي نشب بين جماعة التباتين (بائعو التين) وجماعة الصباغين بسبب عدم التفاهم حول السعر المحدد لبيع الحطب⁽¹³⁾.
- تدخل السيد أحمد شيخ البلد عام 1167/ 1753-1754م لفض النزاع الذي تشب بين جماعة الصفارين وجماعة القزادرية حول تصليح وترقيع الأواني النحاسية والحديدية، ونجح في المصالحة بين الجماعتين من خلال صلح مضمونه أن الأواني والأشياء التي تحتاج إلى تصليح بسيط تكون من نصيب جماعة القزادرية، أما تلك التي تحتاج إلى

تصليح كبير فتوجه إلى جماعة الصفارين، حيث ورد في نص الصلح: "أن التوقيع إذا كان ثلاثة وأربعة مصامر (كذا) يرقعهم القزادرية وأما الرقعة الكبيرة هي للصفارين ما يرقعوش القزادرية"⁽¹⁴⁾.

- تدخله في الخلاف الذي وقع بين جماعة بني ميزاب وأصحاب الحرف الأخرى حول الخسارة التي كان يتكبدها جماعة الفرانين من بني ميزاب، حيث حضر شيخ البلد السيد مهدي إلى جانب أحمد باشا لحل هذه المشكلة⁽¹⁵⁾.
- وكان شيخ البلد يتدخل كذلك لحل المشاكل الفردية للحرفيين، كتدخله لتسديد ضرائب من يتوفى منهم قبل أن يؤدي ما عليه من رسوم إلى الحكومة، ومثال ذلك تدخله لتمديد ضرائب أحد المتوفين يدعى مهدي السكاكري، حيث قام إلى جانب أمين جماعة السكاكيرية ببيع حانوت المتوفى لتصفية ما عليه من ديون⁽¹⁶⁾.

وأضيفت إلى شيخ البلد مهام أمنية إلى جانب مهامه السابقة الذكر، فنجده يراقب النظام العام داخل المدينة ويسهر على السير الحسن، كما كان يراقب الأخلاق العامة فيقبض على كل مخل بالنظام أو مرتكب لإحدى المخالفات من الكراغلة والعرب حيث يضعه في سجن وضع تحت تصرفه لهذا الغرض⁽¹⁷⁾.

ونستخلص من الوثائق الأرشفية أن شيخ البلد كان يتدخل في القضايا المتعلقة بالمجال العمراني للمدينة، فيشرف على إدارة المرافق والمباني العمومية ويعمل على صيانتها وترميم ما تضرر منها، وكان السيد أحمد شيخ البلد قد أشرف بنفسه على ترميم خمسين حانوتا توجد بسوق الدخان قرب دارة الإمارة، وذلك بأمر الداوي علي باشا الذي كلفه كذلك بتحديد مبلغ كرائها⁽¹⁸⁾، وقد تدخل نفس الشيخ بأمر من الداوي محمد باشا في قضية استرجاع قطعة أرض وضمها إلى أوقاف عيون الماء، بعدما ادعى خوجة العيون أن هذه القطعة لا مالك لها⁽¹⁹⁾، كما نجده يشرف على مراقبة الحارات والأحياء والمنازل وغيرها من مرافق المدينة.

كما كلف شيخ البلد بمراقبة النساء ذوات الأخلاق الفاسدة، واللائي ينتمين إلى عائلات عريقة ومرموقة، فيضعهن في سجن خاص حيث تتعرض للعقاب بعيدا عن أعين الناس، ويظهر أن الغرض من ذلك كان الحفاظ على مكانة عائلاتهم، وكان الباشا يرسل إليه النساء الأجنبية اللائي تم أسرهن من طرف رياس البحر في أعالي البحار، فتوضعن تحت مراقبته في انتظار افتدائهن من طرف دولهن أو عائلتهن وإما يبعهن في سوق العبيد⁽²⁰⁾. وكان لشيخ البلد أيضا بعض المهام ذات العلاقة بالمجال العسكري، كتدخله في مساعدة قادة الجيش على جمع المتطوعين وتدعيم فرق الجيش التي كانت ترسل لقمع الانتفاضات أو لجمع الضرائب في إطار ما يسمى بالمحلات⁽²¹⁾.

بسبب تعدد مهامه وكثرتها، وجد عدد من الموظفين الذين كانوا يساعدونه في مهامه، ومنهم جماعة من القياد الذين كلف كل واحد منهم بمهمة محددة داخل المدينة كجمع القمامات أو مراقبة عيون الماء، وهناك الشاوش الذي كان ينوب عنه في حالة غيابه، وكان يختار من بين حرفي السوق أو من خارجها، وهناك المزوار الذي كان يساعده في مجال مراقبة الأخلاق العامة، ونجد كذلك "نقيب الأشراف" الذي كان بمثابة الناطق الرسمي للعائلات الشريفة في المدينة.

أما فيما يخص أجره الذي كان يتقاضاه مقابل هذه المهام الكثيرة، فكان يقطعه من مجموع قيمة الضرائب التي كان يحصلها من الحرفيين والسكان، وقد يخصص له كذلك نصيب من أموال الأوقاف، ومقابل ذلك فإن شيخ البلد كان مضطرا إلى تقديم بشاق قدره خمسمائة صائمة إلى دار الإمارة بموجب مرسوم وقعه الداوي الحاج شعبان باشا بتاريخ جمادى الأولى عام 1105 هـ / 1694 م⁽²²⁾، كما أنه كان مجبرا على شراء الحطب المخصص لحصن القصبة بمبلغ قدره ثلاث عشر ريالا، إلى جانب الحطب المخصص للطبخ في دار الإمارة بثمن قدره أربعة ريالات ونصف⁽²³⁾.

وخلاصة القول، فإن دور شيخ البلد يبدو بارزا وأساسيا بالنسبة للإدارة المدنية بالجزائر خلال العهد العثماني، فهو المشرف العام والرئيسي على كل ما يتعلق بتسييرها خاصة وأن السلطة السياسية منحتة صلاحيات واسعة من خلال إشرافه على جمع الضرائب وحفظ الأمن والنظام وحل الخلافات ومراقبة العمران والأخلاق العامة، وتبرز أهمية دوره بشكل أساسي في أنه كان حلقة وصل من عامة السكان وخاصة الحرفيين منهم وبين الباشا، وقد أكسبه ذلك احتراماً وتقديراً وحظوة لدى الجميع.

الهوامش:

¹. Haedo (fray Diégo de), « Topographie et histoire d'Alger », Traduit de l'espagnol par Monnereau et Brebrugger, **R.A.F** n 15, p 468.

². القشاعي، فلة المولودة موساوي، الريف القسنطيني اقتصاديا واجتماعيا أواخر العهد العثماني (1792-1830)، بحث لنيل دبلوم الدراسات المعمقة في التاريخ الحديث، جامعة الجزائر، 1983، ص 32.

³. Devoulx (A), « les édifices religieux de l'ancien régence d'Alger ». **R.A.F**, n 12, 1868, p 280.

⁴. ابن حموش، مصطفى أحمد، المدينة والسلطة في الإسلام "نموذج الجزائر في العهد العثماني"، مطبوعات مركز جمعة الماجد للثقافة والتراث بدبي، دار البشائر للطباعة والنشر والتوزيع بدمشق، 1999.

⁵. سعيدوني، ناصر الدين، "موظفو الإيالة الجزائرية في أوائل القرن التاسع عشر، صلاحياتهم الإدارية، مهامهم الاقتصادية والاجتماعية"، مجلة المؤرخ العربي، عدد 31، بغداد، 1987، ص 198.

⁶. **Tachrifat**, Recueil de notice historique sur l'administration de l'ancienne Régence d'Alger, (Publié par Devoulx Albert), Imprimerie du gouvernement, Alger, 1852, p 23.

⁷. الشويهد، عبد الله بن محمد، قانون أسواق مدينة الجزائر 1107-1117 هـ / 1695-1705 م، (تحقيق وتقديم سعيدوني ناصر الدين)، الطبعة الأولى، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 2006، ص ص 92-97.

⁸. المصدر نفسه، ص ص 76-78.

⁹. المصدر نفسه، ص 78.

¹⁰. نفسه، ص ص 102-104.

¹¹. نفسه، ص ص 115-116.

¹². نفسه، ص ص 124-125.

¹³. ابن الشويهد، المصدر السابق، ص 59.

¹⁴. المصدر نفسه، ص 84.

¹⁵. نفسه، ص ص 97-98.

¹⁶. غطاس، عائشة، الحرف والحرفيون بمدينة الجزائر 1700-1830 (مقاربة اجتماعية اقتصادية)، رسالة دكتوراه، جامعة الجزائر، 2000-2001.

¹⁷. Shaw. **Voyage dans la régence d'Alger** (Traduit de l'Anglais par J-Mac Carthy), 2ème édition, édition Bouslama, Tunis, 1980, p 167.

¹⁸. م ش، ع 14 / 2، وثيقة 22.

¹⁹. م ش، ع 22 / 1، و 16.

²⁰. Show, **op. cit.**, p 167.

²¹. بوشنافي، محمد، الجيش الانكشاري في الجزائر خلال العهد العثماني (1700-1830)، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة وهران، جوان 2002، ص ص 161-167.

²². Tachrifat. **Op. cit.**, p 43.

²³. **Ibid**, p 52.

دور نظام الوقف الإسلامي في تلبية حاجيات المجتمع الأمنية في الأندلس على ضوء كتاب المعيار للونشريسي

محمد زاهي

جامعة تيارت

لما جاء الإسلام شرع الوقف ووسع دائرته، فلم يجعله مقصوراً على المعابد والمناسك بل وسعه ليشمل كثيراً من أنواع الصدقات والتبرعات التي ترصد لأغراض دينية واجتماعية وعلمية واقتصادية. فكانت الأوقاف على المساجد وما يتعلق بصيانتها ووظائفها، وعلى المدارس ودور التعليم والمكتبات والزوايا والعلماء وطلاب العلم، وعلى الفقراء والمحتاجين. واتسعت أكثر فأكثر فشملت المستشفيات والصيديات، ودور الرعاية الاجتماعية، وتزويج المحتاجين من الفتيات والفتيان، وإجراء الأنهار وحفر الآبار، وإقامة الأربطة والحصون، وإيجاد السلاح والعناد لحماية دار الإسلام والدفاع عن مواطنيها، وتقديم المال لافتداء الأسرى وتحرير العبيد. وبهذا التوسع كان للوقف فضل كبير وتأثير حميد في بناء الحضارة الإسلامية وإرساء أسسها على التكامل والتعاون والتآخي.¹

1- الوقف والدفاع عن النفس ضد الأعداء :

كانت الأوقاف تعد مورد من الموارد الهامة للنفقات الضرورية في مجال الدفاع عن العالم الإسلامي، ولا شك في أن الروابط² التي كانت تربط بين الأوقاف والحكومة كانت قوية. وكان الرباط مؤسسة تجمع بين وظائف التربية الدينية، وتأهيل المجاهدين، وإعداد العدة اللازمة من سلاح وطعام، وكانت تلحق بها أجنحة لصناعة الأسلحة.⁴

انتشرت مثل هذا الأوقاف في الأندلس خاصة فترة حروب الاسترداد الإسباني في مناطق الثغور الشمالية. فكان لازماً الوقف على الثغور والحصون وحفر الآبار فيها وعلى الخيل والسلاح للمجاهدين المسلمين.

وشيدت الأربطة في كل مكان مناطق الأندلس والمغرب، وكانت هذه الأوقاف خير معين على الجهاد وحماية الثغور ببناء الربط والمراكز في مناطق التماس مع العدو فقد جاء في المعيار للونشريسي⁵ عدة مجالات للوقف، وقف أصحابها أحباساً لصالح الثغور والأربطة الموجودة في شمال الأندلس، وقد جاءت الكثير من النوازل التي تشير إلى ذلك، فقد أوصى أحد المحسنين من جنوب الأندلس وبالتحديد من جزيرة طريف: "...في مرضه الذي توفي منه

بوصية جمعت أشياء منها، أن يحبس على ثغر من ثغور المسلمين سباه الفندقان اللذان له، تنفق غلتها هنالك ما دامت الدنيا...⁶

كما حبس رجل آخر غابة زيتون على مسجد قشتال⁷، حيث كان يباع زيت الزيتون ويصرف لمنافع المسجد إلى أن أفنى الفقيه ابن القطان بجواز صرف منافعه أيضا على السور الذي يحيط بالقرية، وذلك بتحصيله.⁸ وحبس آخر على مصالح حصن قشتال بقرية بسطة كما عين "ربع فائض الوقف لفائدة ضعفاء المجاهدين الفرسان بها"⁹ كما وقف آخر حانوت بحصن أرجونة وقف على بعض المساجد بها¹⁰ كما حبس آخر أرضا على حصن من حصون طليطلة.¹¹

وشجع الفقهاء والعلماء في الأندلس على الإكثار من الأوقاف على الثغور وتقديم الدعم للمجاهدين لأن القصد إعانة الثغر في الجملة وحمايته. وصرف فائض الوقف على فقرائه، ثم إلى فقراء أقرب الثغور، وطلبوا من الناس أن لا يسكن الحصون إلا من فيه القوة على الحراسة والقتال والخروج عند وقوع النفير في الحصن.¹²

فقد جاء في المعيار أخبار كثيرة عن أوقاف مدينة بلش¹³ المتواجدة في الثغور ومنطقة التماس مع العدو الإسباني. فقد حبس رجل طاحونة لعصر الزيتون على المرابطين الذين يحرسون بالليل ويبيتون في أسوار بلش من هجوم النصارى الأسبان.¹⁴ كما حبس آخر "موضعا ببلش على أن يبنوا أهل حصن صالحة برجا بموضع يقال له عين كحمة خارج الحصن للحراسة..."¹⁵

ولقد أجاز فقهاء الأندلس في بناء برج على صومعة مسجد بقرية قريبة من بلش لاستطلاع أخبار العدو، فبعد أن تعرضت هذه القرية لهجوم النصارى الأسبان وخربوها وخلت القرية من سكانها، وبقي جامعها قائم البناء وصومعة المسجد كذلك، وكان للمسجد حبس كثير أجاز الفقهاء بناء برج على الصومعة من أحباس المسجد لإغاثة أهل بلش وقرى أخرى عند هجوم النصارى الأسبان.¹⁶

كما أجاز فقهاء الأندلس أيضا جواز استخدام فائض الأحباس لصالح أحباس أخرى مخصصة "...لرابطة لصقة بسور بلش لا يصلح فيها إلا في شهر رمضان لصالح سور بلش أو يصرف في بناء ثغر من ثغور المسلمين أو غير ذلك مما هو مصلحة للمسلمين"¹⁷

وكان دور الفقهاء حازما ومشجعا على جواز استخدام فوائد أوقاف معينة لصالح أوقاف أخرى، خاصة بعد استيلاء النصارى الأسبان على بعض الثغور الإسلامية في شمال الأندلس، ومن الأمثلة على ذلك ما جاء في إحدى

النوازل في المعيار سئل فيها فقيه "...عمن حبس حبشا وشرط أن تنفذ غلته في مصالح حصن من حصون المسلمين في وجوه ذكرها فتغلب العدو على ذلك الحصن. فأجاب بأن قال: تنفذ في مثل تلك الوجوه في حصن غيره" ¹⁸

وفي نازلة أخرى "سئل ابن سراج عن أحباس مكترة من قبل استيلاء العدو على الحصن فتعطلت عماراتها ولم تتم مدة الكراء فهل يلزمهم الكراء لبقاء مدته أم يحط عنهم ذلك؟ إذ لا يمكن تعميرها. فأجاب بأن الأحباس التي حبست على المساجد التي استولت الكفار على مواضعها فأنها تصرف على مساجد المسلمين" ¹⁹

كما أفتى الفقيه أبي عبد الله المواق في مسألة حبس كان بمدينة بسطة قبل استيلاء النصارى عليها، على ما نقله عن ابن عرفة أنه "إذا تعطل المصرف فشبهه مثله فيصرف على وقف آخر كما صرفت أحباس ولة في أرينة" ²⁰

لقد كانت الأمة الإسلامية في الأندلس تسخر الأحباس لإعداد القوة والوسائل الضرورية لجعلها قادرة على حماية نفسها والدفاع عن دينها وعقيدتها، فكثير حبس "الفرس في سبيل الله لحمل المجاهدين للغزو" ²¹، وكثرت النوازل الخاصة بحبس الخيل، حيث سئل ابن رشد في مسألة "فرس حبس لله أخذه العدو ثم غنمه المسلمون" ²².

كما سئل فقيه آخر في مسألة عثور أحد المسلمين من أهل الثغور في شمال الأندلس "فرسا موسوم في فخذه حبس لله" ²³

واستخدمت أموال الأحباس في الدفاع عن مناطق المسلمين في الأندلس من الاستيلاء عليها من طرف النصارى الأسبان، فكان المسلمون يخصصون أحباس يصرفون فيها أموال طائلة لمن يصنع الأسلحة على المجاهدين الذين يقومون بالعمليات الخطيرة ضد العدو، فقد سئل المواق بما نصه: "الحمد لله ساداتي أبقى الله بركاتكم ووصل بمنه سعادتكم جوابكم المبارك في مسألة وهي أن بعض أهل الدين والفضل من أهل الحضرة المحروسة اقتضى نصرهم عمل نفط برسم هدم سور الحمة فتحها الله. هل يعطى في ثمنه والإجازة في عمله من الزكاة وسبل الخيرات وأنواع القربات لعموم هذه المصلحة المباركة التي يجب أن تستنفذ فيها العزائم إلى أقصى غاياتها وأبعد نهاياتها - أم لا؟ وعلى أن النفط المذكور يبقى بعد ذلك حبسا مؤبدا ووفقا مخلدا بالمسجد الأعظم من غرناطة..."

فأجاب: هذا الذي انتدب إليه هؤلاء الفضلاء ليس بمبتدع، لما نزل البرشلون ألمرية ونصب عليها برج عودين أيد ارتفاعه سور المدينة ست قامات، وقربه من سور المدينة، ودخل فيه خمسمائة من المدرعين فدهش منه المسلمون، فانتدب أهل الشورى وعدوا ستة (06) نفر من المسلمين كل واحد منهم بألف ذهب من العين إن أحرقوه، فخرج النفر المذكورون وأطلقوا النار فيه فأحرق بجميع من كان فيه فسر المسلمون بذلك... ولا شك أن هؤلاء الفضلاء

الذين يتدبون لعمل هذا النفط برسم هدم سور الحمة أعظم منفعة... لمصلحة الأندلس والتوزيع على المسلمين كلهم في هذا أولى وأوجب من صرف الزكاة وأحباس سبل الخيرات وأنواع القربات" ²⁴

وقد ذكر ابن خلدون هذه الحادثة في الجزء السابع من كتاب العبر، حيث ذكر أن الملك الطاغية هراندة بن دافونش حاكم قشتالة في حروبه ضد المسلمين والمرينيين بالأندلس في عهد السلطان المريني أبو سعيد وبالتحديد في سنة 719هـ/ 1309 م، طلب من حاكم برشلونة أن يهاجم المسلمين بمدينة ألمرية إذ يقول: "وراسل هراندة بن دافونش، صاحب برشلونة أن يشغل أهل الأندلس من ورائهم، ويأخذ بحوزتهم فنازل ألمرية وحاصرها الحصار المشهور سنة سبع، ونصب عليها الآلات وكان منها برج العود المشهور بطول الأسوار بمقدار ثلاث قامات، وتحيل المسلمون على إحراقه فأحرق" ²⁵.

2- أحبس الأسرى :

لقد ارتبطت مسائل الجهاد بفك الأسرى المسلمين من أيدي الأعداء، وقد سجل تاريخ الإسلام أوقافا كثيرة كانت مخصصة لهذا الغرض. فقد قام أحد المسلمين بالأندلس بتحسيس حبسا وشرط فيه أن لا يستفيد منه إلا طلبة العلم وأن لا يستخدم إلا في فك الأسرى وعتق الرقاب. ²⁶

كما جاء في المعيار، أنه كان بيد رجل من المسلمين: "مال محبس على فداء الأسرى جملة ستائة دينار من الذهب العين ويبيده تقييدات من القضاة تتضمن ثبوت أمانته، وشرطوا عليه فيها شروطا. منها أن لا يصرفها إلا في مصرفها من سلفها للأسرى بموضع كذا..." ²⁷

وهناك الكثير من النوازل التي تشير إلى مدى اهتمام المسلمين بإخوانهم الأسرى، سئل عدد كبير من الفقهاء في مسائل عديدة. متعلقة بالأسرى، فمثلا في نازلة "سئل بعض الشيوخ عن افتكه المسلم—ن من الـp2g وخـpج من غيـp ر ن ولـk حمـيـل، لـيـHL حق الـgخـo من احـFكس الـk2gرى أم لـk ويـفضل ما تدره الأوقاف من أموال سخية على الرباطات والمجاهدين، قاومت الأمة الإسلامية أعداءها على مر العصور، وصدت جيوش الاستعمار في العصر الحديث. ولقد كانت الأمة بفضل مؤسسات المدينة المستقلة كالمساجد والرباطات والزوايا، تقاوم المعتدي وترده على أعقابها، ولم تنهزم الأمة قط، ولم ينجح المستعمر في اختراق حدودها إلا بعد أن ضعفت مؤسسة الوقف وتقلص دورها في حياة المسلمين. ²⁹

الإحالات :

- ¹ أحمد محمد عبد العظيم، الجمل، دور نظام الوقف الإسلامي في التنمية الاقتصادية المعاصر، القاهرة: دار السلام، 2007، ص 30.
- ² الرباطات، جمع الرباط، فكانت في الأصل تطلق على الثكنات العسكرية التي تبنى على الحدود الإسلامية وقرب الثغور يربط فيها المجاهدون ويلازمونها مترصدون للعدو ومستعدين للغزو، أنظر: فتحي، عثمان، الحدود الإسلامية البيزنطية، القاهرة: دار الكتاب العربي، ص 314.
- ³ الثغور، هي مناطق حدودية بين المنطقة الإسلامية والمنطقة المسيحية، تتولى حراسة النصارى عن قرب، وهكذا كانت مهمة الثغور مهمة دفاعية وهجومية في نفس الوقت، تتألف من حواجز وسلاسل من القلاع والحصون، أنظر: فتحي، عثمان، المرجع السابق، ص 313.
- ⁴ أحمد محمد عبد العظيم، الجمل، مرجع سابق، ص 173.
- ⁵ هو أحمد بن يحيى بن محمد بن عبد الواحد بن علي الونشريسي التلمساني، (834 - 914 هـ) / (1430 - 1509 م)، فقيه كبير، حامل لواء المذهب المالكي على رأس المائة التاسعة، أنظر: عادل، نويض، معجم أعلام الجزائر، من صدر الإسلام حتى العصر الحاضر، بيروت: مؤسسة نويض الثقافية، 1983، ص 343.
- ⁶ الونشريسي، أحمد بن يحيى، المعيار المغرب والجامع المغرب عن فتاوى علماء إفريقيا والأندلس والمغرب، خرجه جماعة من الفقهاء بإشراف الدكتور محمد حججي، بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1981، ج 7، ص 466.
- ⁷ قشتال: هي القلاع والحصون
- ⁸ الونشريسي، المصدر السابق، ج 7، ص 132.
- ⁹ نفسه، ج 7، ص 123.
- ¹⁰ نفسه، ج 7، ص 151.
- ¹¹ نفسه، ج 7، ص 477.
- ¹² نفسه، ج 7، ص 236.
- ¹³ بلش، تسمى بالإسبانية Belchete تقع في منطقة الثغور الشمالية في منطقة أراغون، لا تبعد كثيرا عن مدينة سرقسطة عاصمة الأراغون، التي استولى عليها الأسبان سنة 1118. أنظر: ناصر الدين، سعيدوني، دراسات أندلسية، بيروت: دار الغرب الإسلامي، 2003، ص 356.
- ¹⁴ الونشريسي، المصدر السابق، ج 7، ص 145.
- ¹⁵ نفسه، ج 7، ص 140.
- ¹⁶ نفسه، ج 7، ص 480.

¹⁷ نفسه، ج 7، ص 145.

¹⁸ نفسه، ج 7، ص 424.

¹⁹ نفسه، ج 7، ص 137.

²⁰ نفسه، ج 7، ص 133.

²¹ نفسه، ج 7، ص 485.

²² نفسه، ج 7، ص 181.

²³ نفسه، ج 7، ص 423.

²⁴ نفسه، ج 7، ص 147.

²⁵ ابن خلدون، عبد الرحمان، كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر،

القاهرة: الهيئة العامة لقصور الثقافة، ج 7، ص 429.

²⁶ الونشريسي، المصدر السابق، ج 7، ص 438.

²⁷ نفسه، ج 7، ص 207.

²⁸ نفسه، ج 7، ص 333.

²⁹ أحمد محمد عبد العظيم، الجمل، المرجع السابق، ص 174.

حركة التصوف ونشاط الطرق الصوفية بإقليم توات وإفريقيا الغربية خلال القرنين 12-13هـ/18-19م

د. صالح بوسليم
المركز الجامعي بغرداية
د. محمد الزين
جامعة سيدي بلعباس

ارتبط الوضع الاجتماعي في الجزائر في أواخر القرن الثامن عشر وطيلة القرن التاسع عشر بنشاط الطرق الدينية التي كان لها تأثير مباشر في الحياة الثقافية وتحكم في توجهات السكان الروحية ومواقفهم السياسية. فقد عملت على تعميق روح الانتماء والأخوة الإسلامية بين قبائل الريف الجزائري بواسطة إرشاد أخلاقي وتوجيه روحي، وذلك عن طريق المواظبة على العبادة وتلاوة الأذكار وحضور حلقات الذكر؛ التي غالبا ما يرافقها عند بعض الطرق الدينية الرقص والإنشاد الجماعي والاستغراق في حالات من الوجد والانجذاب الصوفي¹. لقد استطاعت هذه الطرق الصوفية أن تملأ الفراغ الثقافي والروحي وحتى السياسي الذي كان يعيشه الفرد في الريف الجزائري نتيجة انعزال الحكام وارتباط الفقهاء بالمدن، فكانت وسيلة تأطير قادرة على جمع السكان وحفظ مصالحهم وتوجيههم لمقاومة الغزو الأجنبي؛ باعتبار ذلك جهادا مقدسا وواجبا دينيا. وقد كثرت الزوايا، وانتشرت الطرق الصوفية بالجزائر في العصر الحديث بصورة خاصة، وقوي نفوذها الديني، وتأثيرها الثقافي والاجتماعي والسياسي².

وتميّزت هذه الطرق بتعددتها، وكثرة شيوخها، واختلاف ميولها، وتباين أسبابها وأسست كثير من الطرق فروعها، أو بنت زوايا مستقلة في الصحراء، أو في أطرافها. ومن أهم الطرق الصوفية التي ثبتت نفسها في الصحراء الجزائرية وما وراءها، وكان لها في الوقت ذاته امتداد بارز في إقليم توات (أقصى جنوب غرب الجزائر)، نذكر من أبرزها: الطريقة القادرية، والتيجانية، والشيخية، والكرزازية، والسنوسية.

1- أشهر الطرق الصوفية بتوات ونشاطها: أ. الطريقة القادرية:

تنسب إلى سيدي عبد القادر الجيلاني، (أو الكيلاني) دفين بغداد (ت 561هـ/ 1166م)، وقد عاش في بغداد، وتصدى للتدريس والإفتاء على المذهب الحنفي، واشتهر بالزهد والتقوى³. وقد انتشرت القادرية خصوصا في منطقة التل

الوهراني وجنوب الجزائر، كما انتشرت في جنوب المغرب الأقصى على يد الشيخ سيد أحمد البكاي بودمعة⁴، الذي امتد نفوذه في اتجاه الجنوب؛ ليشمل واحة توات، والحقار، وأطراف السودان. ولا يخلو قصر من إقليم توات؛ إلا وتجد فيه مريدون، أو تبعاء للطريقة القادرية. ويعد الشيخ محمد بن عبد الكريم المغيلي⁵؛ مؤسس الزاوية القادرية بمنطقة توات. وبوحدات هذه الأخيرة تطورت الطريقة القادرية في النصف الثاني من القرن الخامس عشر للميلاد، وقد أصبح الشيخ الكنتي سيد علي بن أحمد الرقادي (ت 1120 هـ) قطبا للطريقة، وكان شيوخ كنته يزورون برنو ويطبّقون الطريقة القادرية⁶. وقد تأثر الشيخ سيد المختار الكبير بأفكار وآراء الشيخ الزروق، وقام بالدعوة لهذه الطريقة بمنطقة الأزواد.

وربما لانكون مغالين إذا قلنا أن الطريقة القادرية في هذه المنطقة ارتبطت ارتباطا عضويا، ووجوديا بالكنتيين، فهم الذين حملوا العبء الأكبر في نشر تعاليمها، وأورادها، ومنهجها في التربية الروحية، والتعليم، حملوه في كافة أرجاء هذه الصحراء وبلاد السودان الغربي، كان ذلك بالطبع تكملة للدور العظيم الذي قام به الداعية الإسلامي الكبير الشيخ محمد بن عبد الكريم المغيلي. وفي أوائل القرن الثاني عشر الهجري أسس شيوخ كنته مدينة مبروك (Mabrouk) التي صارت مركزاً لنشر الطريقة القادرية، وظهر بين جماعة كنته عدد كبير من الفقهاء الذي صارت لهم القيادة الدينية في القرن الثامن عشر الميلادي وتوسعوا خارج الحدود القبلية، وأدخلها إلى السنغال الشيخ سيد أحمد البكاي⁷، ويعتبر بحق علما لامعا في عطائه المعرفي، وسلوكه الإسلامي. وبرز الشيخ سيدي المختار الكنتي (ت 1266 هـ / 1811 م) الذي نجح بسبب تمتعه بصفات حميدة وثقافة عالية في أن يصبح قطبا للطريقة القادرية، وصارت له مكانة روحية كبيرة بين قبائل الصحراء، وقد ألّف أكثر من ثلاثمائة رسالة عن الإسلام ودوره في العالم، وصارت تعاليمه التي حملها تلاميذه من أبرز العلامات التي ساعدت على انتشار الإسلام بين الشعوب الزنجية في السودان الغربي والأوسط.

وينحدر هذا الأخير من قبيلة كنته التواتية في الجنوب الجزائري، وقد سكن تمبكتو واتخذها مركزا للتعليم، وأسس زاويته إلى الشمال من تمبكتو مع نهاية القرن الثامن عشر، ثم تأسست فروع أخرى لهذه الزاوية من تمبكتو وماسينا، وارتادها الطلبة من مختلف الأقاليم في غرب أفريقيا. وساعد على نشر الطريقة القادرية أيضا العلامة الشيخ محمد بن عبد الكريم المغيلي الذي زار كل من كانو وكاتسينا⁸ في أواخر القرن الخامس عشر الميلادي وشارك في نقل تعاليم الطريقة القادرية في مراكز

المهوسية. والحقيقة أن الطريقة القادرية عرفت المجال الأكبر لانتشارها في غرب إفريقيا بعد أن تزعم عثمان بن فودي⁹ عملية هذا الإحياء القادري وفي الشمال الإفريقي يوجد على رأس الطريقة أو الزاوية شيخ الطريقة أو شيخ الورد، يليه الخليفة أو النائب ويلي النائب مساعده ويطلق عليهم المقدمين، وأخيراً الإخوان وهم سائر أتباع الطريقة ويطلق عليهم اسم الأصحاب.¹⁰

والخلاصة أنه بفضل هذا التصوف في الشمال الإفريقي قويت فكرة أن الأولياء الله والصوفية بوجه عام قوة إلهية، وصارت فكرة عامة ابتداء من القرن الخامس عشر الميلادي واستمرت حتى الوقت الحاضر¹¹، ويتمثل الذكر الأساسي في القادرية في "لا إله إلا الله" ويتم أداء الذكر على النحو التالي: "بكل قوة على القلب معتقداً أنه لا إله إلا الله هو المحبوب وأن الله وحده هو الكائن الحقيقي والهدف الأسمى والنهائي لكل الحياة.

يجلس الذاكرون على الركبة مثل وضع الصلاة ويوجهون أنفسهم إلى القبلة ويجب أن يغلقوا أعينهم ويجيب أن يقولوا كلمة "لا" صاحب الصوت من مخه، وبعد ذلك يجب أن يضغظ على الكلمات "لا إله إلا الله" وقد ألف الشيخ سيدي المختار الكبير كتاباً سماه "الكوكب الوقاد" ويحتل هذا الكتاب أهمية كبرى في الطريقة لأنه تناول فيه أسس الطريقة القادرية ومؤسسيها، وتناول كراماته ومزايا ورده، بالإضافة إلى فضل الأذكار وأهميتها في الحياة الدنيا والآخرة. فالورد القادري متصل بالسلسلة النبوية وذلك لما أظهره الشيخ عبد القادر الجيلاني من كرامات وصل إليها عن طريق تربية النفس المركزة عن إذلال النفس، والتضرع بالجوارح والإبتعاد عن الناس والتقرب إلى المولى عز وجل بالأذكار والأوراد المعلومة في الورد القادري¹² ومن مميزات الطريقة القادرية في وسط الكنتيين أنها كانت تتحاشى ما كان شائعاً لدى أهل توات وغيرهم، فتمنع رفع الأصوات عند الذكر الجماعي¹³، وتتم عملية قراءة الأذكار عند التقاء المريدين بطريقة هادئة سواء أكانت فردية أم جماعية ويتم ذلك كله تحت إشراف مقدم الطريقة. التيجانية أسسها سيدي أحمد بن محمد التجاني في عين ماضي مقر أسلافه المتأخرين باعتبار أن جده الرابع سيدي محمد بن سالم انتقل من قبيلة عبدة، أحواز مدينة أسفي مع أسرته بالمغرب الأقصى- إلى بني "توجين"¹⁴ أو "تجانة"¹⁵، وتزوج منهم، وصار أولاده وأحفاده يعرفون بالتجانيين ولد سنة 1150 هـ / 1737 م بقرية عين ماضي (50 كلم غرب الأغواط) ونشأ بها وحفظ القرآن وهو ابن سبعة أعوام¹⁶. إن البيئة التي ترعرع فيها سيدي أحمد التجاني، بعين ماضي، وتأثر بقيمتها، ونهل من معين علمائها ورجالها، تُعد بيئة مُفعمة بالعلم والورع؛ باعتبارها مركزاً للمعرفة والولاية والصالح؛ منذ

تأسيسها في حقبة تاريخية غير معروفة بشكل مضبوط¹⁷. وهكذا فحيثما كان يتحرك سيدي أحمد التجاني الطفل، ثم الشاب داخل هذه البلدة، كان يجد نفسه بين أهل العلم والمعرفة، وفي رعاية الفقهاء والصلحاء. إن كان في بيئته وأحضان أسرته وجد نفسه جنبا إلى جنب مع متبعي السنة النبوية من المتيمنين بالعشق الإلهي والنور المحمدي، وإن خرج إلى المسجد، والزواية صار في رحاب أساتذة، وعلماء مجتدين لتلقين تلامذتهم ما يُفيد ويُقرب إلى الله من العلوم الإسلامية.

- الطريقة وإذا كانت بلدة عين ماضي على هذه الأهمية من العلم، فإن جل أفراد أسرة شيخنا الذين يشكلون إحدى مكونات هذه البلدة العلمية، كانوا على مستوى رفيع من علمي الظاهرة والباطن. فأبوه محمد ابن المختار كان شيخ زاوية¹⁸، ويذكر عنه علي حزام برادة أنه: "الشيخ الإمام كهف الإسلام وملاذ الأنام العالم الشهير الورع الكبير الدال على الله والجامع عليه... محجة العلماء ومحجة السالكين المسترشدين... وكانت تأتيه الروحانية، يطلبون منه قضاء حوائجهم كان يمتنع ويقول اتركوني بيني وبين الله، لا حاجة لي بالتعلق سوى الله... وكان له بيت في داره لا يدخله أحد إلا لذكر الله"¹⁹.

كما أن أمه عائشة بنت الولي الجليل سيدي محمد السنوسي التجاني الماضوي كانت سيدة فاضلة ذات أخلاق كريمة لها من الصلاح مكانة عليّة ومرتبة سنية²⁰، وفي هذه البيئة نشأ أخوه محمد المكنى بابن عمر حافظا للقرآن الكريم مشاركاً في علوم الشريعة متقناً لعلوم الفرائض والحساب²¹. العلم والمعرفة، فأجداده كانوا في معظمهم من خيرة العلماء على غرار ما نقرأه عن جدية الثالث والرابع. عندما يتعمق الباحث في دراسة عمود نسب سيدي أحمد التجاني وتراجم أسلافه، يتأكد من علو كعب أسرته في ظل هذه الرعاية النموذجية، وفي أحضان هذه الأسرة المحبة للعلم والصلاح نشأ أحمد التجاني كريم الأخلاق مقبلاً على الجد والاجتهاد متمسكاً بالدين وسنة المهتدين معظماً عند الخاصة والعامة، وبعد أن تم حفظ القرآن وقراءته على شيخه العارف بالله سيدي عيسى بوعكاز الماضوي التجاني²². اشتغل بطلب العلوم الأصولية والفروعية والأدبية حتى تعمق فيها وأدرك أسرار معانيها، يستوي عنده في اهتمامه المنقول والمعقول. وعلى شيخه المذكور قرأ مختصر - الشيخ خليل والرسالة ومقدمة ابن رشد والأخضري كما تتلمذ في نفس العلوم على شيخه سيدي المبروك التجاني²³. واستمر في طلب العلم ببلاده حتى بلغ مرتبة أهله للتدريس والإفتاء قبل أن يرحل رحلته الأولى إلى فاس.

ثم ما لبث وهو في عين ماضي أن مال إلى الزهد والانعزال والتأمل وحبب إليه التعبد وقيام الليل حتى إذا بلغ سن الرشد صار يدل على الله وينصح عباده وينصر سنة رسوله ويحيي أمور الدين وقلوب المؤمنين، فصار يضرب به المثل في إحياء السنة وإتباع المحجة البيضاء، وحق له أن يسمى محي الدين ومجدد ما اندرس واضمحل من إيمان المسلمين²⁴.

ومن أجل استكمال المعرفة وطرق أبواب الولاية ارتحل لفاس سنة 1171 هـ/ 1758 م والتقى بالعديد من الصالحين²⁵، ولعل وقوع اختياره على هاته المدينة، لتكون أول بقعة يضع على أرضها رجله، لم يكن صدفة، بل كان صادراً عن اقتناع وبعد نظر، فالمدينة الإدريسية حركت مشاعره لعدة اعتبارات يأتي في مقدمتها أهميتها العلمية وقداستها ورمزيتها التاريخية، وقوة شحنتها الروحية وعداة أهلها للأتراك الذين يكرههم بدوره، علاوة على أنها جزء من المغرب الأقصى- بلد أجداده الذين نزحوا إلى المغرب الأوسط (الجزائر) من ناحية مراكش، وهذا ما يفسر تعدد زيارته لمدينة فاس إلى أن استقر فيها بصفة نهائية، ورغم أن كل هذه الأسباب تبقى واردة إلا أن الدوافع العلمية والروحية تتصدرها كلها.

غادر سيدي أحمد التجاني إذن عين ماضي في اتجاه مدينة فاس وهو في بداية عقده الثالث، حسب تقدير البعض. وخلال المدة التي قضها بها كان يحضر مجالس أهل العلم ليستمع لبعض ما يدور فيها من شروح وتفسيرات في علوم القرآن والحديث، ومن زاوية الشيخ بالصحراء انتقل سيدي أحمد التجاني إلى تلمسان، ثم غادرها عام 1186 هـ، قاصداً زيارة بيت الله الحرام وزيارة قبر نبيه عليه السلام، وبعد أن حقق هذه الرغبة، بذل عدة مساعٍ لملاقاة قطب المدينة المنورة سيدي محمد بن عبد الكريم السنان إلى أن التقى به. وخلال هذا اللقاء طلب من سيدي أحمد التجاني أن يدخل الخلوة عنده لمدة ثلاثة أيام، فاعتذر عن عدم تلبية هذا الطلب، لسبب لا يعلمه إلا هو، ورغم ذلك أذن الشيخ السنان لضييفه في جميع الأسماء وأخبره بأنه هو القطب الجامع، وبشره بنيل المرام والحصول على الإذن المطلق العام²⁶.

وبعد عودته من المشرق إلى المغرب وارتحاله ثانية إلى فاس عاد منها ليستقر به المقام بقصر أبي سمغون حيث ضريح الولي الصالح الذي سمي القصر باسمه²⁷. ومما يسترعي الانتباه في هذه الإقامة طول مدتها التي ناهزت أربع عشر- سنة قبل رحيله النهائي إلى فاس. ويلاحظ أنه قبل حصول هذا الفتح تغيب عن قرية أبي سمغون مرتين لفترتين قصيرتين على ما يبدو، قصد إنجاز ما تبقى من المساعي الضرورية لنيل المراد فتوجه في المرة الأولى إلى توات لزيارة العارف بالله سيدي محمد بن

الفضيل، وهو من أهل قورارة فأخذ كل واحد منهما عن الآخر بعض أسرار الطريق²⁸، كما لقي في توات بعض الرجال الكامل، و"اشترى منه شيئا من الأسرار بثلاثة عشر محبوب من الذهب الخالص"²⁹.

أما في المرة الثانية فقد توجه إلى مدينة تازة، وبها التقى بصاحبه وتلميذه العارف بالله سيدي محمد بن العربي الدمراوي النازي. في غمرة هذه الأجواء العطرة والتردد على الأعتاب الشريفة، حصل لسيدي أحمد التجاني الفتح بأبي سمغون منذ السنة الأولى التي أقام بها بعد رحيله من تلمسان عام 1196 هـ أما عن الورد التجاني فيتمثل في الاستغفار مائة (100) مرة والصلاة على سيدنا محمد مائة (100) مرة، ثم أضيف في الورد اللازم مائة من الكلمة المشرفة لا إله إلا الله³⁰. وبعد أن ركز سيد أحمد التجاني أسس الزاوية الأم بعين ماضي بقي على هذه الحالة ينشر الطريقة ويأذن في الأوراد متنقلا بينها وبين أبي سمغون وتوات، وعن طريق هذه الأخيرة انتشرت في واحات الصحراء، لكنها لم تستطع التوسع شيئا حيث التجمعات الكثيفة من السكان، لأنها كانت تقلق الحكومة التركية، بل أدى بها خوفها إلى شن حملات عسكرية على عين ماضي وفرض إتاوة على الشيخ التجاني وأتباعه³¹.

وإذا ما صدقنا ما ورد في بعض الكتابات الفرنسية حول الموضوع³² فإنه في هذه المرحلة زار الشيخ التجاني تونس و الصحراء و السودان الغربي، يؤسس الزوايا أحيانا ويعين المقدمين أخرى في الأقاليم التي يمر بها من أجل ضمان انتشار واسع لطريقته، بتلك الأصقاع، دون الإفصاح عن مصادرهم في هذه الإفادات في حين لا تذكر الأدبيات التجانية شيئا عن مثل هذه الرحلات. هذا وقد كان لدعاة الطريقة التجانية نشاط في الوسط الصحراوي، حيث ساهمت في نشر الإسلام في إفريقيا وجنوب الصحراء، وقامت بدور هام تمثل في (أسلمة) القبائل الإفريقية المسيحية والوثنية³³.

وانتشرت هذه الطريقة بشكل واسع في إفريقيا جنوب الصحراء على حساب القادرية، وقد هادنت الاستعمار في الجزائر منذ 1840³⁴، لكن دورها في إفريقيا الغربية ظلّ معتبرا، وقد لاقت التجانية نجاحا عظيما في السنغال وفي وادي النيجر (مالي) بفضل شخصية الحاج عمر طال³⁵ (1797م-1864م)، وأولاده فيما بعد. وقد وصلت مبادئ التجانية إلى واد

السنگال في مطلع القرن التاسع عشر³⁶، وسرعان ما هرع الإفريقيون إلى الانتظام في صفوفها، وكانت قبائل التكرور في مقدمة المنضمين إلى صفوف التيجانية، وإلى هذه القبائل ينتسب الحاج عمر، الذي قاد التجانية الإفريقية وعرفت باسمه

ج- الطريقة السنوسية:

التي تنسب إلى السيد محمد بن علي السنوسي بن العربي الأطرش بن محمد بن عبد القادر بن أحمد بن شهيدة، ويرجع في نسبه إلى الفرع الإدريسي من خلال إدريس الأصغر باني فاس ابن الإمام إدريس الأكبر أول ملوك الأدارسة³⁷. ولد سنة 1205 هـ/ 1791 م بمدينة مستغانم بالجزائر وأتمّ تحصيله بمدينة فاس وهناك أخذ الطريقة الشاذلية عن مولاي العربي الدرقاوي، وفي سنة 1235 هـ غادر الجزائر براً حيث قام بزيارة تونس وطرابلس حتى وصل إلى الحجاز³⁸، والجدير بالذكر أن السيد محمد بن علي السنوسي بعدما ترك كل شيء في بلده الأصلي في الواسطة

بمستغانم (الجزائر) أسس أول زاوية له في تاريخ الطريقة في جبل أبي قبيس بمكة المكرمة سنة 1255 هـ/ 1837 م³⁹. ثم جاء ليستقر بالجبل الأخضر بليبيا لذا أنشأ زاوية بمنطقة الجغابيب سنة 1271 هـ في الجنوب الشرقي من بنغازي، وسميت زاوية الجغبوب⁴⁰، وكانت هذه المنطقة مكان نزاع وصراع بين القبائل، وبمجرد إنشاء الزاوية هناك تم تآلف تلك القبائل، ولم يعد هناك بينهم أي نوع من العداوة، وأصبحت مكان إصلاح وسلام⁴¹، وتوفي سنة 1276 هـ/ 1860 م.

ومنذ إنشاء هذه الزاوية أسس أيضاً مسجد وبيوت لإقامة الطلبة، ولكنّها أخذت فيما بعد تكبر وتوسع حتى أصبحت كالمدينة. وكان يقيم بالزاوية خلال تلك الفترة مشايخ وعلماء وطلاب العلم مع أسرهم وأولادهم، ويضاف لتعداد القاطنين بها أيضاً الضّعف والضعفين من الطلبة والزوار، ويزور الجغبوب العديد من الزوار القادمين من أماكن بعيدة، كما يوجد المئات من أبناء القبائل بصورة دائمة يدرسون الصرف والنحو والفقه، وغيره من العلوم العربية، وليكتسبون معرفة وعلماً حسب قابليتهم وذكائهم، وبعد ذلك يعود بعضهم إلى مسقط رأسه كعالم⁴². والطلبة الفقراء تؤمن لهم الزاوية عيشاً وسكناً مجانياً، كما يتولى بعض الفلاحين زراعة بساتين حول المدينة وتستفيد الزاوية من ريع تلك الأجاس وهكذا أصبحت واحة الجغبوب بفضل هذه الزاوية عاصمة للسنوسية في بادئ الأمر، ومن ثم معهداً إسلامياً على غرار الأزهر بمصر والقرويين بفاس والزيوتنة بتونس، وكادت الجغبوب أن تضاهي الصروح العلمية فيما بعد إذا ما كتب لها ذلك. وامتازت السنوسية بوضوح

مناهجها في الدعوة والإصلاح، حيث دعت إلى إحياء الدين الإسلامي ومحاربة الجمود ونبد البدع، وسرعان ما انتشرت عبر الصحراء الكبرى حيث نافست القادرية والتيجانية نظراً لإخلاص دُعائِها وبساطة تعاليمها⁴³.

وكان لكل زاوية رمزا وعلامة خاصة تضعها على ممتلكاتها، من غنم ومواشي وغيرها، فإذا فقدت، أوضاع أي منها، فإن أول رجل يعثر عليها سيرجعها إلى الزاوية بكل سرور ومُنونية، ويضاف إلى ذلك أنهم لا يُؤيدون البطالة والإنكسار، كما لا يشجعون التصوف دون عمل واكتساب رزق، وشغلهم الأول تعلم العلم من جهة ومن جهة أخرى القيام بالعمل مثل الزراعة أو التجارة أو غيرهما⁴⁴. أما عن ورد الزاوية السنوسية فيقرأ بعد صلاة الصبح، حيث يردد اسم الجلالة "بالطيف" عدة آلاف المرات، ويختتم بتلاوة الفاتحة تيمناً وتوسلاً.

وتعد السنوسية الطريقة الوحيدة التي تدعو إلى العودة إلى المبادئ السمحة للقرآن والحديث، وتعرف بتشدها في مقاومة المنكرات والانحراف عن الدين، فكانت - مثلاً - تمنع الرقص والموسيقى والغناء وتحرم المخدرات وغير ذلك من أسباب اللهو والفساد، وهذا الاعتبار كانت قريبة من الحركة الإصلاحية الوهابية المعاصرة لها⁴⁵. وليس هناك من يجد في الطريقة السنوسية فرقا عن الطرق الصوفية الأخرى، وهي عبارة عن مجموعة من الأذكار والأوراد، ولكن هنا شيخ الطريقة بعد أن يسلم النيابة للمريد الجديد ويلقنه الأذكار والأوراد يأخذ عنه فيه عهداً وميثاقاً باتباع الشريعة الغراء والسنة المحمدية ويتمسك بأحكام الدين في كل حركاته وسكناته وجميع أعماله وفي الحقيقة إن أي مسلم لا يحتاج أن يقسم أو يعهد لأي شخص بأن تكون كل تصرفاته وسلوكه ضمن حدود الشريعة الإسلامية حيث أن ذلك فرض ومن واجبات الإسلام. وأن ما شوق الناس هناك بالانتساب إلى هذه الطريقة إنما هو التلقين الذين يقوم به الشيخ، ثم أخذ العهد ومنح النيابة لكل مريد أو منتسب ولكن هدف الشيخ من نشر الطريقة هو إنقاذ قبائل الصحراء هناك من الضلالة والجهل، وتوجيههم إلى ما ينفع دنياهم وآخرتهم من طرق الإستقامة والتمددن وتبيان السبل التي تتبعها الدول الأوروبية سواء في الجزيرة العربية أو في إفريقيا لاصطياد الغافل والبسيط من عامة الناس حتى تغويهم وتحرف عقيدتهم بما تعرضه عليهم من مظاهر المدينة الزائفة⁴⁶.

وقد لعبت الزاوية السنوسية دوراً هاماً إبان الكفاح الجزائري ضد توغل الاستعمار الفرنسي- بجنوب الجزائر، وخاصة عندما فكرت فرنسا في الإستيلاء على الأقاليم الصحراوية الجزائرية، لذا فقد عملت الزاوية السنوسية على توحيد صفوف الأهالي بمنطقة تيديكلت تحت لواء الزاوية، وهنا بدأت فرنسا تشعر بمدى الخطر الذي يهدد مصالحها التوسعية والتبشيرية بالصحراء، وقد أشار إلى ذلك الضابط ديورتر في تقريره حيث يقول: "إن السنوسية قد أحرزت في هذه المناطق يقصد (توات) خلال السنوات الأخيرة على تقدم سريع، حتى أن رئيس مقاطعة عين صالح قد أصبح واحداً منهم وهو أكثرهم

تشددًا..."، ويختم قوله عن نشاط السنوسية بقوله: "إذا فالسنوسيون هم أعداؤنا ولا يمكن أن نستخف بهم ولكن الأحسن أن نراقبهم عن كثب في كل نشاطاتهم وتحركاتهم في الجزائر"⁴⁷.

وامتدت المقاومة الشعبية إلى إقليم توات، وتمثلت في النشاط الديني، والسياسي للزوايا الدينية هناك، بفضل تأييد ومساندة أتباع زاوية أولاد سيدي الشيخ، فقد إلتجأ كل من بوشوشة، وسي قدور بن حمزة⁴⁸، وبوعامة إلى إقليم توات أثناء كفاحهم ضد فرنسا، حيث وصل الأول في صيف عام 1869 م ومن هناك تمكن من متابعة مقاومته المسلحة بفضل تأييد ومساندة أتباع زاوية أولاد سيدي الشيخ المقيمة بمقاطعة زواد لدول، وعندما وقع أسيرا في قبضة فرنسا عام 1873 م تزعم المقاومة سي قدور بن حمزة الذي كان قد وصل الإقليم قبل هذا التاريخ، وفي عام 1882 م إلتجأ لإقليم محمد بن العربي بن حرمة المشهور (بوعامة)⁴⁹ واجتمعت حوله كافة المقاطعات التواتية تسانده، وتؤيده مما أزعج فرنسا التي بدأت تفكر جديا في احتلال الإقليم عام 1899 م⁵⁰. ولما كان الإقليم لم يخضع لفرنسا طيلة القرن التاسع عشر-الميلادي، فإن الزوايا السنوسية هناك قد استطاعت تعبئة شعور الأهالي وتكتيلهم أمام تقدم فرنسا نحو الجنوب عام 1899 م. ونستطيع أن نقول بأن كل هذه المحاولات الإصلاحية كانت تستهدف القضاء على البدع منادية بالعودة إلى الإسلام الصحيح، ومحاربة التخاذل والاستسلام، الذي دب في نفوس المعاصرين، وذلك بالدعوة إلى العمل الجاد المخلص، كما نادى برفع مستوى المعرفة لدى الشعوب الإسلامية حتى تسير التطور الحضاري في الغرب. في مدينة وزان بالمغرب الأقصى، والمتوفى بها عام 1089 هـ/ 1679 م، وهي إحدى فروع الطريقة الشاذلية⁵¹. إلا أن نسبة الطريقة التصقت بأحد أبنائه المعروف بالطيب. درس السيد إبراهيم الوزاني في جامع القرويين على يد شيوخه وأعلامه، وكان معروفا بزهده وتقشفه، عرف الفقر إلى درجة عجز فيها عن دفع مهر زوجته⁵². أسس زاويته الأولى والتي ازدهرت على عهده وعرفت بإطعامها الطعام وإيواء الأيتام وتعليم العلم، وانتشرت أكثر بعد وفاته على يد ابنه محمد فتجاوزت حدود المغرب الأقصى لتصل إلى الجزائر وتنتشر عبر مختلف مناطقها، وبعده عمل أخوه الطيب -المعروفة الطريقة باسمه- على زيادة نشرها والعناية بالزاوية الأم الموجودة مقرها بمدينة وزان ويسمى بـ "دار الضمان" وهذا من سنة 1127 هـ إلى 1181 هـ. وكان سلاطين المغرب يتبركون بها قبل إعتلائهم العرش، حيث يقيمون إحتفالا وبعده يمسك أحد شيوخ الطريقة بلجام الفرس حتى يمتطيه السلطان. وجعلوا من هذه الطريقة سلاحا سياسيا يستعملونه ضد خصومهم ومنافسيهم من أبناء عموماتهم والمتطاولين عليهم.

د- الطريقة الطيبية : تأسست هذه الطريقة على يد الصوفي مولاي عبد الله بن إبراهيم الوزاني المعروف بالشريف الوزاني،

لقد أثرت هذه الطريقة في الجزائر، فأججت روح الجهاد لدى الكثير من القادة والمجاهدين، ومنهم الشريف محمد بن عبد الله بومعزة صاحب ثورة 1845 م⁵³ التي شملت منطقة الظهرة، والشلف، والونشريس، وامتدت إلى نواحي التيطري، سور الغزلان، وأولاد جلال، وعموما فإن للطريقة انتشارا واسعا في المغرب، الجزائر، تونس، ليبيا، موريتانيا ومصر. يعتبر الجنوب الجزائري من أكثر المناطق احتضانا لهذه الطريقة، وللطريقة أتباع ومريدون في العديد من قصور توات يواظبون على أذكائها وأورادها. تنسب للعلامة الشيخ سيدي أحمد بن موسى الكرزازي (ت 1013 هـ)، وهي فرع من الشاذلية، و كان مركزها في كرزاز⁵⁴. وهذه الطريقة لا يوجد ما يميزها عن الطرق الدينية الأخرى من حيث الأوراد، ولكنها امتازت بالدور السياسي المسالم الذي لعبته في وقت كانت فيه مناطق الحدود الجزائرية المغربية تتأجج بالاضطرابات والثورات ضد الفرنسيين، وهذا الحياء هو الذي لفت أنظار سلاطين المغرب إليها في أكثر من مناسبة؛ واستخدموها لإخضاع بعض القبائل الصحراوية العاصية، ولا عادته إلى الطاعة⁵⁵.

هـ- الطريقة الكرزازية

تذكر بعض الروايات الشفهية، أن الشيخ سيدي عبد الله السبع الذي قدم من مدينة فاس باتجاه توات في القرن التاسع للهجرة. وقد مر بالشيخ سيدي أحمد بن موسى الكرزازي، و دارت بينهما محادثة مطولة، فظهر الشيخ السباعي فحلاً من فحول الصوفية الكبار، ومنه تابع الشيخ رحلته إلى أن استقر به المقام بأرض توات حيث قام بتأسيس قصر- سبع، وبعد تأسيسه لدار العلم والزاوية قدم إليه الطلبة والمريدون من كل حذب و صوب يطلبون سر وطريقة سيدي أحمد الكرزازي التي بدأ في تلقينها للعامة مع إجازتهم فيها. وما هي إلا سنوات، حتى انتقل خبر كل ذلك إلى شيخه سيدي أحمد بن موسى، مما اضطر الشيخ السباعي، إلى مخاطبة شيخه الكرزازي بهذه الرسالة التي تعرف عند أهل كرزاز بالرمز، وهي عبارة عن أشعار بالعامية، وهذا ما جاء فيها:⁵⁶

أما لُشَبَّ مائي فيه	اللي يطبع يطبع صافي
إلا طال الحال عليه	تخاف منو لا يكشف
وفهم سيدي عبد الله السباعي ما يريد ورد عليه:	
أنا نُحُوشُ مَا نُفَشِّشُ	شيخه برمز كذلك

اللي جَفَى مَا نَجَفِيهِ وَ اتَّبِعَ الطَّرِيقَ الِّي تَجَلِّيهِ

نسايسه حتى ينس وجيه شبتكم تديه

ورد عليه الشيخ سيدي أحمد بن موسى قائلا: فَلَحْتُ وَأَنْتَ وَالْيَّ أَدَى عَلَيْكَ كَوْرَاد، وَحَنَّا عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ومنذ ذلك العهد وإلى يومنا هذا ظلت العلاقة بين الزاويتين قائمة على أساس متين وقوي.

9- الطريقة الشيعية

مؤسسها الشيخ عبد القادر بن محمد (ت 1025 هـ / 1615 م)، الذي ينتسب إلى أبي بكر الصديق، وهي فرع من الطريقة الشاذلية، أخذها الشيخ سيدي عبد القادر بن محمد بسنده عن شيخه أبي عبد الله سيدي محمد بن عبد الرحمن السهلي، عن أبي العباس سيدي أحمد بن يوسف الملياني الراشدي، عن الشيخ سيدي أحمد زروق، عن الحضرمي عن القرافي عن ابن عطاء الله عن أبي العباس أحمد المرسي عن أبي الحسن الشاذلي عن أبي محمد بن عبد السلام بن مشيش، عن المدني عن أبي أحمد الخزاعي عن أبي مدين عن أبي يعزى عن ابن حرزهم عن أبي بكر بن العربي عن أبي حامد الغزالي عن أبي المعالي الجويني عن أبي طالب المكي عن أبي محمد الجريري عن أبي القاسم الجنيد⁵⁷ ..

وقد اشتهر صاحب الطريقة الشيعية بالعديد من الكرامات التي نسبت إليه، بحيث أطلق عليه لقب "سيدي الشيخ"، وأصبح أبنائه فيما بعد يحملون ذلك اللقب "أولاد سيدي الشيخ". وقد قام بزيارة توات وتافيلالت وفاس وعين ماضي، ثم توجه إلى مغرار وعاد إلى الأبيض أين أسس الزاوية التي تحمل إسمه، وعند وفاة سيدي الشيخ عُين ابنه الثالث سي الحاج بوحفص على رأس الطريقة الشيعية. كتبها في آخر حياته. وللعلم فإن أوراها هذه الطريقة لا تختلف عن أوراها الطريقة الشاذلية إلا في النوافل بعد الفجر والعصر، وأوراها الطريقة الشيعية هي :

- قراءة الفاتحة ثلاث مرات،

- التشهد 300 مرة؛

- الاستغفار 100 مرة؛

- الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم وذكر فضائله 100 مرة؛

- ذكر كلمة التوحيد 100 مرة؛

- حفظ وإنشاد لفظ الجلالة في الحضرة 3 مرات بعد كل بيتين، وهي تسمى بالسلسلة الذهبية. إن الشيعية تجسد الزهد والخلو و الابتعاد عن العالم الدنيء، بالذكر والدعاء... الخ، فهي إذا نابعة من الكتاب والسنة، تنتقل في أذكأرها من ذكر اللسان، إلى ذكر القلب إلى ذكر العقل إلى ذكر السر، وكانت منتشرة بمنطقتي قورارة⁵⁸ وتيديكلت، ولها أتباع ومريدين إلى يومنا هذا. 59

ز- الطريقة الرقانية

تنسب هذه الطريقة إلى مؤسسها مولاي عبد المالك (ت 1207 هـ) بن مولاي عبد الله الرقاني بن مولاي علي بن مولاي الزين بن سيدي حم بن الحاج الحسني الرقاني. كان - رحمه الله - زاهدا في الدنيا مشغلا بأوراده من صلاة الصبح إلى الضحى. ويقوم الليل إلا قليلاً منه، ولا ينام فيه إلا قليلاً قاعداً ونحو ذلك، كان حسن الصوت بالقرآن وكان سريع الاستدلال به، حاضر البديهة من كثرة حفظه، وكان يحفظ الحكم العطائية وأحزاب الأولياء، كان كثير البكاء، قريب الدمعة، رقيق القلب، جل حديثه مع الناس في الوعظ وقصص الصالحين، ولا يتكلم كلمة من أخبار الدنيا إلا أخرج منها إلى أخبار الآخرة بسرعة، لا يملّ جلسه منه ولو جلس معه دهره كله. أخذ أوراد الطريقة عن والده الشيخ مولاي عبد الله عن الشيخ سيدي محمد بن عبد الرحمان بن أبي زيان عن مبارك العنبري الغزواني عن محمد بن ناصر الدرعي عن سيدي عبد الله بن حسين الرقي إلى أن يتصل السند بأبي القاسم الجنيد. لقد كان لهذه الطريقة الفضل في بث روح الجهاد والمقاومة في نفوس سكان المنطقة، وخير دليل على ذلك أن تنظيم معركة الدغامشة⁵⁹ بعين صالح كان تحت قيادة الرقاني مولاي عبد الله بن مولاي العباس والذي استشهد فيها في مطلع القرن العشرين. بالإضافة إلى هذه الطرق الدينية السالفة الذكر، فقد وجدت بعض الطرق الفرعية الأخرى منها الزيانية⁶⁰، والبكاية⁶¹، والبكرية⁶² وهي فروع من القادرية. والطريقة الموكحلية التي كانت منتشرة بمدينة عين صالح وفي بعض الجهات من منطقة توات، أما طريقة الملياني الشاذلية فكان وجودها محتشماً⁶³. بأن الطرق الصوفية بجميع فروعها قد قامت بدور ثقافي كبير لا يمكن تجاهله أو إنكاره بالرغم من الكثير من البدع التي لحقت بالتصوف بشكل عام. وكان لمؤلفات أقطاب الصوفية الأثر الأكبر والفضل الأعظم في نشر الثقافة الإسلامية بين أقدام الوثنيين بإفريقيا جنوب الصحراء.

ونخلص إلى القول؛ ثانياً: الطرق الصوفية محور الدعوة الإسلامية في إفريقيا الغربية جنوب الصحراء لقد لعبت الطرق الصوفية الدور الأساسي في نشر الإسلام إفريقيا الغربية جنوب الصحراء، إلى جانب ارتباطها بالدعوة والجهاد، حتى أنه لا يمكن أن نؤرخ للجهاد والدعوة في إفريقيا الغربية دون الحديث عن الصوفية وطرقها والدور الذي أسدته للدعوة الإسلامية. وقد استطاع رجال الطرق الصوفية أن ينشروا كلمة التوحيد، وأن يرفعوا رايات الإسلام والدعوة المحمدية في قلب الغابة الاستوائية. وقد برز دور دعاة الطرق الصوفية عندما خرجت أوروبا منذ القرن السادس عشر - في حركتها الشعبية التي

استهلتها البرتغال من أجل نشر المسيحية وضرب المسلمين في أرزاقهم وثرواتهم، ومن هنا بدأ الصدام وظهر الجهاد في مطلع العصور الحديثة.

وقد تشعبت الطرق الصوفية وأصبحت تنسب إلى أقطاب هذه الطرق وصارت هناك أربع طرق رئيسية تتفرع منها عدة فروع وتنتمي الطرق الرئيسية إلى كل من الشيخ عبد القادر الجيلاني والشيخ أحمد الرفاعي والشيخ أحمد البدوي والشيخ إبراهيم الدسوقي، وعرفت باسم القادرية والرفاعية والأحمدية والبرهانية كما كان من أبرز الطرق التي تفرعت ولعبت دوراً مهماً في حركة الجهاد والدعوة الطريقة التيجانية في الجزء الجنوبي من القارة وهي من الطرق الثلاث المشهورة في السنغال ولها أتباع كثيرون⁶⁴ وإن كانت القادرية هي الأقدم من حيث النشأة في السنغال ولكنها الأقل أتباعاً.

إلى جانب ذلك برزت الطريقة المريدية في الغرب الإفريقي ومؤسسها هو الشيخ أحمدو بامبابكي، واسمه الحقيقي محمد بن حبيب الله الذي ولد سنة 1272 هـ / 1855 م، في قرية صغيرة أسسها جده تسمى "مباكي باول" بالسنغال⁶⁵، وقد كانت جهود هذه الطريقة بمثابة الخطوة الحالية وهي إحدى الطرق التي تفرعت عن التيجانية، وهي تحمل اسم الشيخ حمى الله، إلا أنها قامت بناء على تعاليم أحد المشايخ من واحة توات يدعى سيدي محمد بن أحمد بن عبد الله المعروف باسم الشريف الأخطر. إن طريقة المريدية رغم أنها في قالب صوفي من حيث الشكل لكنها أقرب إلى مؤسسة من مؤسسات المجتمع المدني المعاصر، بل إن الدارسين للاقتصاد السنغالي يعتبرون المريدية هي التنظيم الاجتماعي الأهم الذي أعاد قيمة العمل إلى نصابها الحقيقي، وقام بثمينتها بشكل غير مشهود من طرف بقية المؤسسات الاجتماعية⁶⁶.

- إن الطرق الصوفية قد وجدت نفسها أمام تحدٍ سافر في تلك المجتمعات، وكان لابد من إيجاد نوع من التعليم الديني للقضاء على الجهل، ونشر قواعد الدين الصحيح بعد تعلم اللغة العربية قراءةً وكتابةً.

- لعبت هذه الطرق دوراً دينياً، وسياسياً مهماً، كان له كبير الأثر في تاريخ وحضارة ونهضة إفريقيا الغربية جنوب الصحراء، حيث صار كل مسلم في هذه القارة يرى ضرورة ارتباطه بإحدى الطرق الصوفية التي أقامت الزوايا للعبادة، ولإيواء الوافدين والقيام على شؤونهم. وفي الوقت نفسه؛ فإن الدور الذي لعبته الطرق الصوفية في المجال الاقتصادي لا يقل بحال من الأحوال عن الدور السياسي في نشر الدعوة الإسلامية.

- تبين للباحث أن الطرق الصوفية لعبت الدور الأساسي في نشر الإسلام في إفريقيا الغربية جنوب الصحراء؛ إلى جانب ارتباطها بالدعوة والجهاد. وإذا ما استثنينا الطريقة الكرزائية التي لم يكن لها سوى دور محدود جداً، فإن جميع الطرق الصوفية

التي عملت على نشر الإسلام في الصحراء وفي إفريقيا جنوب الصحراء، هي إما جزائرية مثل السنوسية، والتيجانية، والشيخية، أو أنها قد انطلقت من الجزائر حيث استقرت قواعدها في صحرائها (توات مثلاً)، وانتظم أتباعها مثل الطريقة القادرية.

- أصبح الإقليم التواتي منذ القرن الخامس عشر مركزاً أمامياً لنشر الإسلام بالسودان الغربي، واستمر التواتيون يُغذون هذه المناطق بالأفكار والثقافة الإسلامية، بعد وفاة الشيخ محمد بن عبد الكريم المغيلي حتى نهاية القرن التاسع عشر. ويرجع الفضل في انتشار تعاليم الطرق الصوفية هناك إلى الفقهاء والتجار التواتيين الذين أسهموا في بناء الزوايا والمساجد في حوض النيجر وجنوب الصحراء.

الإحالات :

¹ . سعيدوني (ناصر الدين): "مؤسسة الزوايا في الجزائر العثمانية"، (نموذج بلاد القبائل)، بحث قدم في المؤتمر العالي للتعليم والتربية في العالم العثماني باستنبول في 12-15 أبريل 1999م (عمل غير منشور)، ص ص 10 و 17-18.

² . يحيى بو عزيز: ثورات الجزائر في القرنين التاسع عشر والعشرين الميلاديين، ط2، منشورات المتحف الوطني للمجاهد، الجزائر 1998م، ص 339.

³ . أحمد شلي: موسوعة التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية، ط4، ج6، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة 1983م، ص 211.

⁴ . ذكر عنه البرتلي، أنه: "كان من عباد الله الصالحين والأولياء المعروفين المشهورين، يزوره الناس من كل فج في كل ساعة، يزوره الشرفاء والأولياء والصالحون وغيرهم، وأكثر الناس زيارة له الغرباء وأهل التل والمسافرون الذين يأتون بالتجارة من جهة الشمال"، برتلي: فتح الشكوك في معرفة

أعيان علماء التكرور، تحقيق محمد إبراهيم الكثاني و محمد حجي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1981م، ص ص 30-31.

⁵ . هو عبد الله محمد بن عبد الكريم بن محمد المغيلي التلمساني، ولد بالقرب من تلمسان وعلى الأرجح بمواطن قبيلة مغيلة البربرية بالغرب الجزائري، نشأ بتلمسان، حيث تلقى تعليمه على يد شيوخها، ثم تحول إلى مدن أخرى بالمغرب الأوسط والأقصى لمتابعة دراسته، فأخذ عن الشيخ يحيى بن يدير وعن الشيخ عبد الرحمان النعالي عالم الجزائر ووليها (ت 875هـ/1470م) كما درس على الشيخ أبي العباس الوغليسي ببجاية، فاكسب ثقافة دينية وأدبية أهله لأن يعد من علماء عصره، فبال تقدير وحظي بالاحترام من طرف العديد من العلماء. وكان المغيلي من أكابر علماء القرن التاسع الهجري/15م، لما اشتهر به من ثورة على تخلف وانحراف المنطقة التي هاجر إليها عقب ظروف خاصة بالمغرب الأوسط (الجزائر)، وقد اتخذ المغيلي منطقة توات وتنظيم مستقراً ومجالاً للدعوة وتجديد روح الإسلام ثم اتصل بحكام الهوسنة الوثنيين بالسودان الغربي، وكانت له محاورات مع الحاج محمد الأسقيا حاكم سنغاي، كما كان للمغيلي مواقفته الحادة من سيطرة اليهود على تجارة السودان الغربي، فحارب نفوذهم ودعاهم إلى الالتزام بالعهود والنصوص الإسلامية والقوانين الضابطة لعلاقات المسلمين بأهل الذمة في الدولة الإسلامية.

أنظر: ناصر الدين سعيدوني: من التراث التاريخي والجغرافي للمغرب الإسلامي، دار الغرب الإسلامي، بيروت 1999م، ص 266.

أنظر: أحمد بن يحيى الونشريسي: كتاب الولايات ومناصب الحكومة الإسلامية والخطط الشرعية، نشر وتعليق الأستاذ: محمد الأمين بلغيث، مؤسسة لافوميك للنشر والتوزيع، الجزائر 1985م، (مقدمة المحقق) صفحات، ص 05-13.

Bargés (L'abbé), complément de l'histoire des Beni zeïyan, rois de Tlemcen, Paris, 1887, p389 وراجع أيضاً:

⁶ . ينظر: عبد الله عبد الرزاق إبراهيم: أضواء على الطرق الصوفية في القارة الإفريقية، مكتبة مدبولي، القاهرة (د.ت)، ص 37.

⁷ . صمبا عامر: الأدب السنغالي العربي، (ش.و.ن.ت)، الجزائر 1978م، ج 1، ص 33.

- ⁸. كاشنه، أو كاتسينا من إمارات الهوسا في شمال نيجيريا، وقد بدأ دخول الإسلام إلى أرض الهوسا قبل القرن الخامس عشر، وابتداء من هذا القرن حظيت باهتمام عدد من العلماء المسلمين من شمال إفريقيا كمحمد بن عبد الكريم المغيلي الجزائري الذي زارها وعمل على نشر أفكاره الإصلاحية بينها، وعبد الرحمان السيوطي (ت 911هـ/ 1505) ومن كبار علمائها الشيخ محمد بن محمد الفلاني الكشناوي-من رجال القرن الثاني عشر- الذي أخذ عن علماء بلده، ثم رحل لطلب المزيد، فحجّ وجاور وعاد إلى مصر ومات بها سنة 1154هـ/ 1741م، وقد ألّف رحلة وعددا من الكتب، وترجم له الجبرتي في عجائب الآثار. ينظر: الحسن بن محمد الوزان الفاسي: وصف إفريقيا، ترجمه عن الفرنسية: محمد حجي ومحمد الأخضر، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، الطبعة الثانية، 1983، ص 550.
- أنظر أيضا: د.أ.م. كاني، "مظاهر الاتصالات الفكرية والثقافية بين شمال إفريقيا ووسط السودان بين سنة 700 و1700م مع إشارة خاصة إلى كاتم-بورنو وأرض الهوسا"، مجلة البحوث التاريخية، طرابلس، السنة الثالثة، العدد الأول (يناير 1981م)، ص ص 9-26.
- ⁹. ولد الشيخ المصلح الداعية عثمان بن محمد بن صالح بن هارون بن محمد بن جب الملقب ابن فودي بولاية سوكونو، في نيجيريا الحالية، يوم 29 صفر 1168هـ الموافق لـ 17 نوفمبر 1754م وينحدر من عائلة مثقفة توارثت العلم والثقافة خلفا عن سلف منذ القرن الخامس عشر الميلادي، وكان من أكبر علماء السودان آنذاك، ومن أثاره: العلمية: -كتاب سباه: تنبيه الإخوان على جواز اتخاذ مجلس لأجل تعليم النساء- ومن كتبه الأخرى: نور الألباب، وأصول الولاية، وإحياء السنة وبيان البدع، وترغيب العباد، والجهاد، وعلم المعاملة، ونصائح الأمة، والهجرة... وقد تفرغ في آخر حياته للدعوة والتدريس واستقر في مدينة سوكونو وواصل عمله الإصلاحية التربوي والتثقيفي إلى أن وافته المنية عام 1817م. ودفن بها. ينظر: يحيى بوعزيز تاريخ إفريقيا الغربية الإسلامية من مطلع القرن السادس عشر إلى مطلع القرن العشرين: دار هومة، الجزائر، 2001م، ص ص 141-149.
- ¹⁰. عبد الله عبد الرزاق إبراهيم، المرجع السابق، ص 50.
- ¹¹. ألفرد بيل: الفرق الإسلامية في الشمال الإفريقي من الفتح العربي حتى اليوم، ترجمة عبد الرحمان بدوي، دار الغرب الإسلامي، ط2، بيروت 1981، ص ص 421-425.
- ¹². الشيخ سيدي المختار الكبير، الكوكب الوقاد في فضائل المشايخ وحقائق الأوراد، مخطوط، خزانة شيخ الركب النبوي، الزاوية-أقبلي، أولف، أدرار، الجزائر، ص 112.
- ¹³. الشيخ سيدي محمد بن سيد المختار الكبير، الطرائف والتلائد، مخطوط، خزانة شيخ الركب النبوي، الزاوية-أقبلي، أولف، أدرار، الجزائر، ص 184.
- ¹⁴. محمد بن عبد القادر الجزائري، تحفة الزائر في تاريخ الجزائر والأمير عبد القادر، شرح وتعليق الدكتور ممدوح حقي، دار الیقظة العربية للتأليف والترجمة والنشر، دمشق 1964، ص 125 و303.
- ¹⁵. إدريس العراقي، اليواقيت العرفانية في التعريف بالشيخ أحمد التجاني وبطريقته وزاويته الأم التجانية، مرقون ضمن أعمال ندوة الطريقة التجانية التي انعقدت بفاس من 23 إلى 29 دجنبر 1985، ص 25.
- ¹⁶. أبو القاسم محمد الحفناوي: تعريف الخلف برجال السلف، (جزآن)، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الجزائر، 1991م، ص 281.

¹⁷ يرى أبو نصر جميل أن عين ماضي التي ولد فيها أحمد التجاني بنيت في القرن الخامس الهجري / 11م، وإن الذي شرع في بنائها قرب

إحدى العيون يسمى ماضي بن يعقوب، وهي العين التي حملت إسمه ثم القرية، أيضا بعد ذلك التي حملت نفس الإسم. ينظر:

Abu-Nasr (J), The Tijaniyya, A sufi order in the modern world. Oxford University. Press. London New york, Toronto, 1965, p16.

¹⁹ Coppelani (x) et octave (D), les Confréries Religieuses Musulmanes, Alger 1897 , pp413.

²⁰ علي حزام برادة: جواهر المعاني وبلوغ الأماني في فيض سيدي أبي العباس التجاني، وبهامشه كتاب رماح حزب الرحيم على حزب الرحيم

لعمر بن سعيد الغوتي الكدوي، ج1، دار الجليل، بيروت 1988م، ص 24.

²¹ المصدر نفسه.

²² نفسه، ص 26.

²³ إدريس العراقي: اليواقيت العرفانية، مصدر سابق، ص 11.

²⁴ Awad(m.). Un Fondateur de Confrérie Religieuse Maghrebine- Sidi Ahmed Al tagani(1737- 1815), R.M .E, n 2, 1992, P258,n.7

²⁵ علي حزام برادة: ج1، مصدر سابق، ص 24.

²⁶ الحفناوي: المصدر سابق، ص 281. ومن بين الذين التقى بهم بمدينة فاس نذكر:

- مولاي الطيب بن سيدي محمد بن مولاي عبد الله بن ابراهيم اليملاحي، العلمي الوزاني (ت 1180هـ)؛

- سيدي محمد بن الحسن الونجلي (ت 1185م)؛

- سيدي عبد الله بن سيدي العربي المعني الأندلسي (ت 1188م)؛

- سيدي أحمد الطواش نزيل تازة (ت 1204هـ)؛

ينظر: علي حزام برادة: المصدر السابق، ص 37 وما يليها. إدريس العراقي، مصدر سابق، ص 14.

²⁷ علي حزام برادة: المصدر نفسه، ص 41.

²⁸ المصدر نفسه، ص 43.

²⁹ الحفناوي: مصدر سابق، ص 284. وكانت زيارته لتوات في حدود سنة 1196هـ.

³⁰ إدريس العراقي: مصدر سابق، ص 19.

³¹ علي حزام برادة: المصدر السابق، ص 43.

³² Rinn (L), Marabout et Khouan, étude sur l'islam en alger 1884,p420.

³³ coppolani(x),et octave(d);opcit;p416 ينظر:

- Rinn (L), Marabout et khouan, étude sur l'islam en Alger 1884, p420

³⁴ محمد مكحلي: ثورات رجال الزوايا والطرقية في الجزائر خلال العهد العثماني: 1707م-1827م، أطروحة دكتوراه، قسم التاريخ،

كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة سيدي بلعباس 2003م/ 2004م، ص 224. (غير منشورة).

- ³⁵ ينظر: تلمساني بن يوسف: الطريقة التيجانية وموقفها من الحكم المركزي بالجزائر (الحكم العثماني، الأمير عبد القادر، الإدارة الإستعمارية)، رسالة ماجستير، معهد التاريخ جامعة الجزائر، السنة الجامعية 1418 هـ / 1998 م، ص 42 وما بعدها. إسماعيل العربي: الصحراء الكبرى وشواطئها، مرجع سابق، ص ص 227-229. عبد الرحمن تشايحي: الصراع التركي الفرنسي في الصحراء الكبرى، ص 62. عمار هلال: الطرق الصوفية ونشر الإسلام والثقافة العربية في غرب إفريقيا السمراء، الجزائر 1988 م، ص 118-126.
- ³⁶ . ولد الحاج عمر بن سعيد الفوتي عام 1212 هـ / 1797 م، في قرية حلوار، قرب بودور على الحدود السنغالية الموريتانية، شرق مدينة سان لوي. وفي عام 1826 م ذهب إلى الحجاز لأداء فريضة الحج وقد طاف بالعديد من عواصم المغرب، ودرس علوم اللغة والأدب والشريعة على أجلة الشيوخ ولقي الترحاب منهم ما عدا علماء الأزهر الذين اختلف معهم حول مسائل فقهية واعتقادية. وفي مصر انضم إلى الطريقة التيجانية، وحصل على المشيخة من شيخها العالي التيجاني، ثم عاد إلى بلاده، وكانت الثروة العلمية التي حصل عليها قد أضفت عليه هالة من التقديس والإكبار وقد أتاحت له ذلك استقبالا رائعا في المناطق التي زارها وعند رجوعه إلى مسقط رأسه أسس رباطا للعبادة بفوتاجالون قضى به سبع سنوات يعظ، ويرشد ويعلم، وينشر مبادئ الطريقة التيجانية، وانضوى تحت لوائه أنصار وأتباع كثيرون آمنوا بدعوته وطريقته الدينية التيجانية وفي عام 1848 م أعلن الجهاد في سبيل الله ضد الإمارات الوثنية وركز أعماله وجهوده على نشر الإسلام، ومحاربة الوثنية والعادات السيئة الخلبية ومحاربة الاستعمار والمتعاونين معه وقد توج هذه الأهداف بعزمه على تحقيق وحدة البلاد الإفريقية في ظل الإسلام.
- ينظر: يحي بوعزيز: تاريخ إفريقيا الغربية الإسلامية، ص ص 165-168. نعيم قداح، حضارة الإسلام وحضارة أوروبا في إفريقيا الغربية، ط 2، (ش.و.ن.ت)، الجزائر، 1975 م، ص ص 119-122. عمار هلال: المرجع السابق، ص 118 وما يليها.
- ³⁷ . نعيم قداح، المرجع نفسه، ص 119.
- ³⁸ . الدجاني أحمد صدقي: الحركة السنوسية نشأتها ونموها في القرن التاسع عشر، بيروت 1988 م، ص 34 وما بعدها.
- ³⁹ . عبد الرحمان تشايحي: مرجع سابق، ص ص 60-61.
- ⁴⁰ . الدجاني أحمد صدقي: المرجع السابق، ص 282، وما يليها.
- ⁴¹ . صادق مؤيد العظم: رحلة في الصحراء الكبرى بأفريقيا، ترجمه عن العثمانية د. عبد الكريم أبوشويرب وراجعه د. صلاح الدين حسن السواري، مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية، طرابلس 1998 م، ص 111.
- ⁴² . المصدر نفسه.
- ⁴³ . المصدر نفسه، ص 113.
- ⁴⁴ . إسماعيل العربي: المرجع السابق، ص 224. عبد الرحمان تشايحي، مرجع سابق، ص 61.
- ⁴⁵ . صادق مؤيد العظم: المصدر السابق، ص 115.
- ⁴⁶ . إسماعيل العربي: المرجع السابق، ص 224.
- ⁴⁷ . صادق مؤيد العظم: المصدر السابق، ص 121.
- ⁴⁸ . Deporter, La question du Touat au Sahara Algérien, Alger : Fontana, 1891, p40.

⁴⁹ .كان السي قدور بن حمزة يقوم بزيارة سنوية إلى مقاطعات اوقروت وتينركوك وتيميمون وجريفات، لأن سكان هذه المقاطعات أغلبهم من عرب الخنافس وأولاد إيعيش، حيث يقدمون له خدمات في مجالات شتى ويدفعون له الغفارة وتُعرف محليا بأنه دين ثابت يدفع سنوياً إلى الشرفاء مكافأة لهم وإلى أولاد سيدي الشيخ (الزوي). أما الزيارة فهي ما يمنح بمحض الإرادة إكراما لولي من أولياء الله الصالحين لذا يبدو للباحث أنها عكس الغفارة التي تعتبر ديناً ثابتاً.

ينظر: Deporter, l'extrême sud de l'Algérie, Alger, Fontana, 1889-1891, p108.

⁵⁰ . يذكر أحد الباحثين أن الشيخ بوعامة قد اعتنق الطريقة الشيخية، والتي تعود في جذورها وتسلسل ولايتها إلى عهد الخليفة الراشدي أبي بكر الصديق رضي الله عنه وهذا الطرح نفسه بديلاً للمريدين والمقدمين من كل الطرق الصوفية بالمنطقة، بمعنى أوثق إنه أول تجديد في لغة الحوارين أتباعه. ينظر: محمد الأمين بلغيت: تاريخ الجزائر المعاصر (دراسات ووثائق، ووثائق جديدة وصور نادرة تنشر لأول مرة)، الجزائر، بيروت، دار البلاغ للنشر والتوزيع، دار ابن كثير، 1422هـ/ 2001م، ص 67.

⁵¹ Martin, Quatre siècles d'histoire Marocaine Au Sahara (1504-1902), Paris, 1993, pp200-204.

⁵² . أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، دار الغرب الإسلامي بيروت، لبنان، 1998م، ج 1، ص 155. محمد الأمين بلغيت، المرجع السابق، ص 66.

⁵³ . أبو القاسم سعد الله المرجع نفسه، ص 155.

⁵⁴ . يحي بوعزيز: مع تاريخ الجزائر في الملتقيات الوطنية والدولية، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر 1999م، ص 157.

⁵⁵ . مدينة كرزاز تقع جنوب قرى بني عباس، في طريق القوافل بين الشمال و توات وهي حالياً إحدى دوائر ولاية بشار الواقعة في الجنوب.

⁵⁶ . إسمايل العربي: مرجع سابق، ص 223.

⁵⁷ . ينظر: مجلة النخلة. سبع قطب ثقافي وديني، مرجع سابق، ص 42.

⁵⁸ copplani(x), op.cit, p463

وانظر أيضاً: محمد الأمين بلغيت: مرجع سابق، ص 67.

⁵⁹ . عبدالله طواهرية: جامع التصنيف في أحوال حاضرة بني ونيف، دار الهدى عين مليلة، قسنطينة، الجزائر 2005م، ص 183.

⁶⁰ . يعود الفضل في ذلك إلى الحاج أبو حفص والشيخ محمد بن عبدالله الجوزي (ت 1269هـ) دفن أولاد سعيد .

البرتلي: فتح الشكور...، مصدر سابق، ص 201-206، ومقر الطريقة يوجد بالزاوية الرقانية التي تبعد عن مدينة دار بحوالي 150 كلم.

⁶¹ . جرت هذه المعركة بتاريخ 05 جانفي 1900م وقد دفن الشهداء في الأماكن التي سقطوا فيها وسميت هذه المنطقة بمقبرة الشهداء يفد إليها الناس من كل جهة للترحم على الشهداء. ولقد مكثت جثثهم عشرات السنين في مدافنهم ولم تتغير. وفي المدة الأخيرة قامت بلدية عين صالح بإعادة تغطيتهم ووضع سياج على المقبرة.

⁶² . نسبة إلى مؤسسها الشيخ محمد بن بوزيان (ت 1145هـ) وتذهب مصادر الطريقة الزيانية إلى أن الشيخ المؤسس هو السابع والثلاثون في سلسلة الطريقة الشاذلية. ينظر: أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، مرجع سابق، ج 1، ص 504-505.

⁶³ .نسبة إلى الشيخ سيد أحمد البكاي، وهي فرع من القادرية ومركزها بقصر زاوية كنتة.

⁶⁴ .نسبة إلى مؤسسها الشيخ سيد البكري بن عبد الكريم (ت 1133هـ) وهي فرع من القادرية.

⁶⁵ .يذكر الدكتور أبو القاسم سعد الله أن أتباع الملياني (ت 931هـ) قد اضطهدوا في المغرب الأقصى والجزائر، واضطر الملياني نفسه إلى

الكتابة إلى أهل توات ينهاتهم عن اضطهاد أتباعه هناك، المرجع السابق، ص 496-497.

⁶⁶ .نعيم قداح: مرجع سابق، ص 119. يحي بوعزيز: تاريخ افريقيا...، مرجع سابق، ص 15-16.

⁶⁷ .المرجع نفسه، ص 123-124.

⁶⁸ .يذكر نعيم قداح أن المريدية أقامت المخازن والمحلات التجارية لخزن وبيع المحصول، وقد عمل في هذه المؤسسات أتباع الطريقة ينظر

نعيم قداح: مرجع سابق، ص 124.

محاولة الجزائر العثمانية توحيد المغرب العربي: بين الطموحات الإستراتيجية والإخفاق السياسي.

أ.د. حنيفي هادي
جامعة سيدي بلعباس

إن علاقات الجزائر الخارجية خلال العهد العثماني تندرج ضمن ثلاثة أصناف عريضة، تلك مع دول المغرب المجاورة: تونس والمغرب الأقصى، والعلاقات الجزائرية الأوروبية، ففي الحالتين الأولى والثانية، كان الهدف الجزائري الأساسي واحد، يتمثل في منع أي تجمع أو تحالف قوي بدرجة يؤدي إلى القضاء على الإيالة أو تهديد أمنها الخارجي. تشير معظم الدراسات إلى الدور السياسي الذي لعبته كل من تونس والمغرب في إضعاف القدرات الحربية للجزائر وهذا من خلال الحروب المتبادلة بين الجزائر والجار، أو في تغذيتها للثورات الشعبية أو آخر القرن الثامن عشر و أوائل القرن التاسع عشر، وهو الأمر الذي كان له دور مميز في الإخلال بالقوة الدفاعية للجزائر. ونرى من جهة أخرى أن هذا التدخل من الدولتين المجاورتين كان أمر متوقعا، لأن الجزائريين أنفسهم كانوا يتدخلون بدورهم في شؤون جيرانهم في الأوقات المناسبة وخاصة في شؤون الإيالة التونسية. فمن الناحية الشرقية تباعدت سياسة تونس عن الجزائر منذ انفصال إيالة تونس عن الجزائر، بتكوين باشويتين مستقلتين.

بالرغم من المحاولات العثمانية المتكررة في التوسط بين الطرفين وفض النزاع بينهما، وبضرورة توحيد القوى لمواجهة الأخطار الخارجية المحدقة بالدولتين، فقد لبي حكام البلدين في كثير من الأحيان هذه النداءات التي كان يبعث بها الباب العالي⁽¹⁾. ولكن لم تفضي إلى نتائج تذكر، وبقي الحال هكذا إلى غاية الاحتلال الفرنسي للجزائر سنة 1830.

أما من الناحية الغربية فقد فشل العثمانيون في بسط نفوذهم على أراضي المغرب الأقصى، وتدخلوا في كثير من الأحيان في مد المساعدة للمنافسين والثائرين على سلاطين المغرب، وانتهاج سياسة التفرقة واستغلال الظروف التي أعطت ثمارها وخاصة أواخر الأسرة السعدية وأوائل دولة

الأشراف العلويين⁽²⁾. ومما أثر في تدهور العلاقات الجزائرية المغربية، هي محاولة المغرب القيام بتحالف مع إسبانيا، كان الغرض منه تجهيز أسطول مغربي بأموال إسبانية لضرب مدينة الجزائر⁽³⁾.

عمل سلاطين المغرب منذ العهدين (السعدي والعلوي)، على مبدأ إضعاف إيالة الجزائر والبحث عن حلفاء من أجل مد سلطانهم على أراضي الغرب الجزائري، وهذا بتشجيع المناوئين والمناهضين للأتراك العثمانيين، وإعانتهم بالمال والسلاح أو الدخول في حرب مباشرة مع القوات الجزائرية. وكان لهذه السياسة دور هام في عدم استقرار الأوضاع الداخلية للجزائر وخاصة مع نهاية القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر⁽⁴⁾.

وكان للعوامل الخارجية أثر كبير في تدهور النظام الحربي للإيالة الجزائرية، وتتمثل أولاً في تعرض حدود الإيالة الشرقية والغربية للخطر، بعد أن بدأ تدخل المغاربة والتونسيين يأخذ شكل مساعدة مادية ومعنوية للزعماء المحليين الناقمين، باعتبارهم حلفاء تقليديين لبايات تونس وملوك المغرب، كالطريقة الدرقاوية ذات الميول المغربية وعشائر الحنانشة المتأثرة بالدعوة الشاذلية بالجنوب الغربي التونسي⁽⁵⁾.

ونظراً لأهمية هذا الدور وأبعاده في انعدام الأمن على المستوى الخارجي للإيالة الجزائرية، فإن دراسة تطور العلاقات بين الإيالة وجاراتها، يتيح لنا الفرصة للتعرف على ماهية الخطر الحدودي ودوره في انهيار النظام الدفاعي للجزائر⁽⁶⁾ خلال هذه الفترة الحرجة من تاريخ الجزائر العثمانية. وكذا محاولة الجزائر إدخال كل من تونس والمغرب إلى حظيرة الخلافة العثمانية تحت الوصاية الجزائرية.

1. دور تونس

إن التدخل العسكري الذي قامت به القوات الجزائرية ضد تونس الفتح العثماني لها، كان الغرض منه هو ضمان مسيطرة الحكام التونسيين للزعامة الجزائرية، وذلك ضمن الإطار العام للحكم العثماني غير المباشر في شمال إفريقيا.

لقد أرسلت بعثة ديبلوماسية تونسية إلى السلطان العثماني سليمان القانوني (1520-1566) سنة 1531م، كان الهدف الجوهري منها، السعي إلى كسب موافقة السلطة السياسية والدينية العليا للدولة العثمانية على مطلب أيلة الجزائر، والتي بينت الأحداث أن لها طموحات ترابية في مملكة الحفصيين المنهارة: إن إقدام خير الدين على عثمانة واحتواء تونس بعد ثلاث سنوات من تاريخ هذه البعثة التونسية، يؤكد صدق مخاوف السلطان أحمد الحفصي يومئذ من جاره العثماني بالجزائر⁽⁷⁾. كان الوضع الإداري في تونس متدهورا جدا. وكان أمر البلاد خاضعا للزعامات المحلية التي كانت تتأرجح بين الدفاع عن مصالحها الاقتصادية وبين الموالة من حين لآخر للسلطة المركزية إسميا. وهذا ما يؤكد أن الإشراف الحفصي على تونس كان مفقودا تماما.

تشير بعض الدراسات إلى أن التونسيين قد ناشدوا مساعدة العثمانيين بالجزائر باعتبارهم منقذين، وهذا من خلال إرسال القبائل التونسية للعديد من رؤسائها لطلب النجدة⁽⁸⁾. وقد حرص أحمد الحفصي للمحافظة على استقلالية الرقعة الترابية الخاضعة له من توسع العثمانيين من جهة، وتحذير الحامية الأسبانية المتواجدة بتونس وحلق الوادي من ذلك. وقد ارتبط بعلاقات تعاون ظاهري مع درغوث باشا أيام توليه على طرابلس الغرب. ومع هذا فإن درغوث باشا قد حافظ على مراسلاته السياسية مع السلطان الحفصي الذي كان ممتنا له لتمكنه من القضاء على أعدائه الشاييين الذين أجلاهم عن القيروان بتاريخ 27 ديسمبر 1551م⁽⁹⁾.

وفي هذا السياق تحرك قليج علي باشا للقيام بحملته على تونس في شهر أكتوبر 1569م⁽¹⁰⁾، وقد توفّق في ربط ما تبقى من القطاع الترابي الحفصي إلى الإدارة العثمانية بالجزائر، دون أن يغير الوضع القائم بقلعة حلق الوادي والتي كانت تشرف عليها حامية إسبانية، والتي التجأ إليها السلطان الحفصي، وعين علق علي باشا رمضان باي، وجهزه عسكريا، تاركا له ثلاثة آلاف من الإنكشاريين لحسن التسيير الإداري والعسكري. وفي منتصف 1573م، صدرت عن السلطة المركزية العثمانية عدة

فرمانات تؤكد على أن تونس تتمتع بنظام إداري مستقل في إطار إيالة عثمانية، وهو الأمر الذي سوف يتأكد على إثر الحملة العثمانية سنة 1574 م.

إن نجاح هذه الحملة العثمانية العسكرية الحاسمة والأخيرة في التاريخ البحري العثماني على قلعتي حلق الوادي وسان جون الإسبانيتين، جعل سنان باشا وعلج علي باشا يؤكدان على استقلالية إيالة تونس وتأکید مكانة حيدر باشا، باعتباره بيلربايا عليها، وهي الرتبة التي سوف تمكنه من الإشراف على الإيالة حتى أوائل سنة 1576 م، ل يتم تعويضه برجب باشا⁽¹¹⁾. إن الحدود الجغرافية لإيالة تونس قد ضبظت على إثر عثمانيتها ابتداء من صيف سنة 1574 م، فالباشا المعين من طرف الباب العالي، يساعده ديوان من الضباط الكبار للأوجاق بالإضافة إلى وجهاء تونس. وبعد ذلك ثار رجال الأوجاق في سنة 1591 م ونصبوا واحدا من ضباطهم يتولى القيادة كرجل ثان إلى جانب الباشا، ولكنه مسؤول عن القانون والنظام⁽¹²⁾. وبعد عديد من التغييرات في نظام الحكومة في إيالة تونس استقر خط البايات في شكل حكم عائلي، في الوقت الذي كان فيه دايات الجزائر يطلبون التدخل في عديد من الخلافات العائلية للحكام التونسيين⁽¹³⁾.

كلف الباب العالي حيدر باشا بإدارة تونس كبيلرباي، منذ 18 ماي 1573 م، وابتداء من هذا التاريخ، تحولت تونس إلى أيالة عثمانية مستقلة، أما السلطة العثمانية فقد صدرت عنها عدة فرمانات تؤكد على استقلالية تونس في إطار أيالة عثمانية منذ الحملة العثمانية سنة 1574 م⁽¹⁴⁾. تباعدت سياسة تونس عن الجزائر تباعدا كبيرا منذ انفصال تونس عن الجزائر، بتكوين باشويتين مستقلتين عن بعضهما البعض. وبالرغم من محاولات السلطة العثمانية المتكررة في فض النزاع بين البلدين، والحث بضرورة توحيد الجهود لمواجهة الإحتلال الإسباني مستقبلاً لكلا الدولتين. فقد لبى حكام البلدين في كثير من الأحيان هذه النداءات⁽¹⁵⁾.

تعود أصول مسألة الحدود بين البلدين إلى المشاحنات والصراعات القائمة بين مختلف القبائل المتاخمة لحدود التماس بين الدولتين، وبخاصة حول أراضي المراعي. لقد سويت المشكلة سنة 1614 م بتمديد مناطق القبائل التابعة

لبابليك قسنطينة في عمق التراب التونسي⁽¹⁶⁾. وقد لعبت مشكلة الحدود بين الدولتين دورا كبيرا في تأزم العلاقات السياسية بين الجارتين. ففي عهد حسن باي قسنطينة (1608-1622م) تم إبرام معاهدة ضبط الحدود مع إيالة تونس عام 1614م لكن في عهد يوسف داي (1610-1637م) قام التونسيون بخرق المعاهدة، فلجأ مراد باي (1622-1647م) إلى استعمال القوة من خلال شن حملة عسكرية ضد الجزائر، انتهت بهزيمة الجيش التونسي في معركة السطارة قرب مدينة الكاف في 17 ماي 1628م⁽¹⁷⁾، وذلك في عهد حسن باي قسنطينة حيث أجبرت الحكومة التونسية على إبرام اتفاق جديد لضبط الحدود نصت على ما يلي:

- يبقى مجرى وادي صراع هو الحد الفاصل بين البلدين في المناطق الجنوبية.
- يقوم التونسيون بتهديم المراكز العسكرية التي أسسوها في المناطق المتنازع عليها.
- يتواصل تحديد الحدود بين البلدين من وادي ملاق إلى الكرش فقلوب النيران. ورأس جبل الحافة، ثم إلى البحر.

• الذين يعبرون الحدود من أي البلدين، لا يتم الإعلان عنهم من طرف الدولة⁽¹⁸⁾.

عندما أصبح مراد باي على رأس الحكم في تونس رجع إلى السياسة التي كان محمد باي قد سلكها منذ عشر سنوات، وهي التدخل في الضريبة التي كانت تدفع إلى بابليك قسنطينة في عهد علي خوجة. وفي ربيع سنة 1700م حدثت معركة بين القوات التي كان يقودها باي قسنطينة والتونسيين، وقد خرج منها مراد باي منتصرا وارتكب مجزرة في الأسرى بلغ عدد ضحاياها حوالي خمسمائة من الإنكشارية، وأرسل آذانهم إلى تونس دليلا على انتصاره، ثم فتح المفاوضات مع سلطان المغرب مولاي اسماعيل (1672-1727م) للقيام بعمل مشترك ضد الجزائر⁽¹⁹⁾.

كانت أخبار المجزرة قد جاءت بمئات من فرق الإنكشارية إلى قصر اداي الجزائر طالبين الأخذ بالثأر، فما كان من الداوي حسن شاوش (1698-1700م) إلا أن استقال في الحال من منصبه، وخلفه فيه الداوي الحاج مصطفى، الذي كان جنديا قويا. وقد نظم الداوي الجديد حملة لفتح حصار مراد باي على قسنطينة وهاجم معسكر التونسيين خلال الليل، وحقق انتصارا حاسما، تمكن من تحرير قسنطينة، وسحق القوات التونسية بالقرب من سطيف (العلمة)

بتاريخ 7 أكتوبر 1700 م. كما قام الداوي مصطفى بارتكاب مجزرة ضد الموالين لمراد باي. أما الأتراك فقد سمح لهم بإنقاذ جنودهم، وذلك بالتجنيد في فرقة الإنكشارية الجزائرية، و سجن خلالها حوالي 2000 تونسي.

و في سنة 1702 م عقد صلح مع إبراهيم الشريف⁽²⁰⁾ الذي خلف مراد باي⁽²¹⁾. وقد جاء مؤسس عهد الحسينين، حسين بن علي (1705-1740 م)، إلى الحكم كنتيجة لتنظيمه المقاومة التونسية للتدخل الجزائري. وكان طموح حكام الجزائر يعمل على إرغام الحكام التونسيين على دفع كميات من الأقمشة والزيت سنويا بالإضافة إلى إرسال الهدايا الثمينة للدايات في جميع المناسبات.

وظل دايات الجزائر يشجعون المنافسات الأسرية في تونس للتدخل في شؤونها الداخلية والحصول على امتيازات من الأطراف المتصارعة، حيث تدخل إبراهيم داي الجزائر (1732-1745 م)، أولا لصالح علي ابن أخ الباي حسين وولي عهده، وعندما قرر الباي أن يسحب من ابن أخيه ولاية العهد، طلب هذا الأخير مساعدة الجيش الجزائري.

ففي سنة 1735 م تمكن الجزائريون من تنصيب حليفهم علي باشا (1740-1756 م)، بايا على تونس. وقد استقل حسن باي قسنطينة هذه الحادثة، فبادر بحمل خزائن علي باشا إلى قسنطينة وجمع الأموال الطائلة، مثل مصادرة حلي ومجوهرات النساء⁽²²⁾.

عندما غير الباي رأيه في علاقة التبعية للجزائر، عندها قرر الباي أن ينتقم منه بمساعدة أبناء الحسين بن علي الذين كانوا قد لجئوا إلى قسنطينة. فتمكن الباي من تقديم يد المعونة إليهم سنة 1756 م. مقابل فرض يتاوة مالية على الحكومة التونسية تلتزم بها سنويا⁽²³⁾. وعند تاريخ 1756 م انتهى عهد التدخل الجزائري في قضايا تونس نهائيا.

في أيام السلطان محمود الثاني، جاءت الأزمة بين الأيالتين نتيجة تطلعات باي تونس التوسعية، حيث بدأ بفرض سلطانه المباشر على جزيرة جربة ثم تدخل في شؤون طرابلس الغرب قبل أن يهاجم قسنطينة. عندما نضع هذه الأحداث في سياق، نرى أنها خاضعة لخطّة عامة تتولى أهداف كبار أمراء الدولة الحفصية، وهذا التخطيط لا يتصور إلا على أساس مصالحة فعلية بين العنصر العثماني الحاكم والعنصر المحلي المحافظ على التقاليد والأعراف السلطانية.

قرر حمودة باشا أن يضع حدا للتدخلات الجزائرية في الشؤون الداخلية لتونس، إذ يقول عنه ابن أبي الضياف: "...أنه حسن من قوته والقدرة على دفع الغنائم. صار يتعلل على أهل الجزائر، وأخذ في إزالة ما اعتادوه من التعدي، الذي منه أن صاحب الجزائر وقسنطينة يشتري الأنعام ويبعثها للبيع في تونس بثمان يلوح بالإشارة إليه، فتعطل أهل البلاد عن بيع أنعامهم... والذي يموت من تلك الأنعام في الطريق يدعي رعايته أنه سرق منهم في أرض تونس فيزداد ثمنه... وحمودة باشا في خلال ذلك يتجرع الفحص ويجرعها لرعيته" (24).

كانت مشكلة العلاقات مع الجزائر من أهم ما واجهه حمودة باي، فمنذ أن أعاد الجزائريون أولا حسين بن علي إلى حكم تونس، صار لهم أدلاء، وحصلت الجزائر على امتيازات اقتصادية واسعة. فقد كانت تونس تقدم سنويا كمية من الزيت إلى الجزائر، وبسبب تأزم العلاقات بين الطرفين رفضت تونس لمطالب الجزائر المادية، وفي هذا الصدد يذكر الشريف الزهار ما نصه: "...فإن حكام تونس كانوا يبعثون مركبا محملا بالزيت وبعض الهدايا الرفيعة كل سنة فقطعوها في قيامه، فكتب على ذلك: فامتنعوا عن الإدعان ووقع الكلام بينه وبين ملكها حمودة باشا إلى أن اشتعلت نار الفتنة" (25).

وتجدر الإشارة هنا إلى أن دايات الجزائر أبقوا كثر من تأييدهم للحسينيين على حق بيع الأنعام بتونس بسعر محدد يسبق الأنعام التونسية، وكذلك كانوا يتلقون من تونس التجهيزات من زيت الزيتون التي تكفي للمحافظة على إضاءة مساجد مدينة الجزائر (26).

ولم يكتف حمودة باشا بإجراءات الامتناع عن دفع الضريبة للجزائر بل انتقل إلى مرحلة الهجوم، حيث استغل الظروف التي كانت تمر بها حكومة الدايات في الجزائر وأعطى حق اللجوء السياسي لباي قسنطينة المخلوع مصطفى الإنجليزي (27) ووعده بإعادته إلى ولايته. حاول الجيش التونسي غزو مدينة قسنطينة في 24 يناير 1807 م، ولكن الجيش التونسي فشل في دخول المدينة، وتكبّد خسائر كبيرة، ولما طلبه ديوان الجزائر بالإتاوة المعتادة، رد عليهم حمودة باشا قائلا: "...لقد كان أجدادنا في السابق يوجهون إليكم الهدايا، إنهم مجانين ولا يفكرون، أما نحن فلسنا على شاكلتهم، وعليه فسوف لن نرسل لكم شيئا وإن كانت حبة قمح" (28).

ومن عوامل نجاح سياسة حمودة باشا تجاه إيالة الجزائر اعتماده على نشاط الجوسسة التي كانت تنقل له الأخبار من داخل الجزائر، أما في المجال الخارجي فبدأ حمودة باشا في محاولة لكسب حلفاء في وجه الأتباع والتحرشات الجزائرية. وقد ظهر خلال هذه الفترة التقارب التونسي-المغربي وهذا من خلال مبادرة حمودة الثاني، لكن هذا التقارب انحصر في الجانب الاقتصادي الذي تجسد في المبادلات التجارية⁽²⁹⁾. لعب صالح باي دور كبير بشأن مساعيه لتأمين حدود البايليك الشرقي، فتمثل في موقعه الحازم من باي تونس حمودة باشا ستي 1783 و1787م والذي جعل الشيخ المبارك يصف صالح باي: "بأنه اليد العليا على صاحب تونس"⁽³⁰⁾.

يتلخص هذا الموقف الذي وقفه صالح باي من باي تونس إلى حنكته السياسية وحسن تصرفه في مثل هذه القضايا. وتحت تهديد صالح باي باستعمال القوة ضد تونس، اضطر حمودة باي إلى الرضوخ لمطالب صالح باي وتقديم تعويضات، لا سيما وأن وضع تونس كان حرجا لتورطها في خلاف مع جمهورية البندقية، وبذلك حصل صالح باي سنة 1784م على تعويض يقدر بخمسة وعشرين ألف سكة لفائدة القبيلة التونسية المقيمة داخل البايليك⁽³¹⁾.

حاول حمودة باشا وضع حد لتطلعات حكام الجزائر وإبعاد أنظارهم عن فكرة التوسع في الأراضي التونسية، فتابع نزاعه مع الجزائر من خلال ملاحقة عشائر جزائرية خاضعة لحكمه التجأت إلى الأراضي التونسية هربا من المطالب المالية التي فرضها عمال صالح باي، فتجدد النزاع العسكري بين الطرفين فجهز صالح باي قوة عسكرية تناهز 6 آلاف محارب⁽³²⁾.

وقد تجدد النزاع التونسي-الجزائري من جديد في مستهل القرن التاسع عشر، حين قام الرئيس حميدو بدور رئيسي في هذا النزاع الحربي، إذ هاجم البحرية التونسية سنة 1808م⁽³³⁾، بعد أن تعرضت الجهات الشرقية من الجزائر في عهد باي قسنطينة حسين بن صالح لهجوم جيش تونسي مؤلف من عشرين مقاتل، ومجهز بالأسلحة والمدافع تحت قيادة حمودة باشا⁽³⁴⁾.

ولم ينته هذا الصراع والعداء بين الأيالتين، إلا بعد أن أنهكت قوى البلدين معاً، مما أثر في أوضاع البلدين الاقتصادية والعسكرية. وقد حدثت سلسلة المعارك الجزائرية- التونسية الثانية خلال الفترة النابوليونية (1798 - 1815)، ولم تتوصلاً إلى وضع حد لهذه المشاكل والصراعات العسكرية إلا بعد توسط الباب العالي سنة 1817م بينهما، وإبرام الصلح بين الطرفين، تخلى على إثرها الطرف الجزائري عن المطالبة بالإتاوات المعتادة⁽³⁵⁾. لم ينسئ بايات تونس العداء التقليدي لدايات الجزائر، لهذا كان موقفهم المؤيد من الاحتلال الفرنسي للجزائر، ورفضهم لأيّة مساعدة تقدم إلى حكومة الدايات. وكانت النتيجة العملية هي ابتلاع فرنسا لكل من الأيالتين فيما بعد. إن احتلال الجزائر سنة 1830م، كان تمهيداً لاحتلال تونس والمغرب، وكان موقف حسين باي (1824-1874م) من النزاع الفرنسي الجزائري يتأثر بعدة نواح:

- العداء التقليدي بين الإيالتين، فبالرغم من أن الدولة العثمانية نجحت سنة 1821م في إجبار الطرفين على عقد الصلح، فإن النفوس لم تصف، فقد مر في تونس سنة 1825م أبو عبد الله محمد التجاني ابن شيخ الطريقة التيجانية الثائرة ضد أتراك الجزائر. ولما علم داي الجزائر بذلك طلب من حسين باي اعتقاله بتونس أو إرساله إلى الجزائر. ولكن حسين باي رفض وسهل وصول الشيخ التجاني إلى مركزه في عين ماضي.
 - طمع الباي حسين أن يحل أحد أفراد أسرته في الجزائر محل الداي، أو التوسع على حساب الجزائر فيضم إليه إقليم قسنطينة فيما بعد.
 - خوف حسين باي من الفرنسيين وأطماعهم التوسعية.
- فبالرغم من تعاطف الرأي العام التونسي مع الجزائر فإن حسين باي امتنع عن تقديم المساعدة للجزائريين، فممنع مرور طاهر باشا عبر تونس إلى الجزائر مما أدى إلى فشل مهمته، وأرسل وفداً لتهنئة قائد الحملة الفرنسية دي بورمون على نجاحه في احتلال الجزائر. ومنح الفرنسيين كل التسهيلات لشراء ما يلزم الحملة من الحيوانات. كما منع تهريب البارود من تونس إلى قسنطينة⁽³⁶⁾.

وخلال فترة الحصار الفرنسي للجزائر سنة 1827م، شجع باي تونس القوات الفرنسية على تكثيف قواتها البحرية المتمركز في الساحل الشرقي، كما جهز أربعة زوارق مدفعية لحماية الأسطول الفرنسي من ضربات السفن الجزائرية⁽³⁷⁾.

2. دور المغرب الأقصى:

لقد كانت العلاقات بين الجزائر والمغرب تمتاز بالتنافس الشديد خلال المرحلة الأولى من تأسيس الأيالة، وقد كانت الخلافات في القرن السادس عشر تدور حول مراقبة تلمسان والمناطق المحيطة بها⁽³⁸⁾. ومن المعروف أن سلاطين المغرب وقفوا حجرة عثرة أمام التوسعات العثمانية في غرب الأيالة الجزائرية. وكان الهدف العثماني من المشاريع التوسعية هو تحقيق السيطرة على طريق الذهب الذي يربط المغرب ببلاد السودان، والوصول إلى المحيط الأطلسي لفك الحصار الذي فرضه البرتغال على الدولة العثمانية جنوب القارة الأفريقية. حاول سلاطين المغرب السعدي تحقيق مغرب الموحدين وهذا ما أشار إليه المؤرخ المغربي التمكنوتي⁽³⁹⁾ بقوله: "والعثمانيون إنما عملوا وقادوا الأمر في الحقيقة، نيابة، وأمانة يؤدونها إلى من هو أحق بها وأهلها وهم موالينا وساداتنا الشرفاء ملوك بلاد المغرب"⁽⁴⁰⁾.

كانت هناك وشائج تاريخية قديمة تربط مدينة تلمسان والأسر التي تعاقبت الحكم في المغرب، فوجد هؤلاء قاعدة شعبية يستندون عليها لتهديد التواجد العثماني بالجزائر. وازداد التنافس حول هذه المدينة الحضارية والاستراتيجية، فالذي يسيطر عليها يملك التدخل في عمق المغرب والجزائر، زيادة على كونها محطة تجارية هامة، لهذه الأسباب كانت منذ البداية مطمحا لحكام المغرب وهدفا لغزواتهم التوسعية منذ العهد المريني، وقد لخص الحسن الوزان هذه الوضعية قائلا: "وقد استقر الملك في بني زيان ثلاثمائة سنة، غير أنهم اضطهدوا من قبل ملوك فاس - أي بني مرين - الذين احتلوا تلمسان نحو عشر مرات، حسبما جاء في التاريخ. وكان مصير ملوك بني زيان حينئذ أما القتل أو الأسر أو الفرار إلى المغارات عند جيرانهم الأعراب، وتعرضوا أحيانا أخرى إلى الطرد من قبل ملوك تونس"⁽⁴¹⁾.

لقد صادف نزول العثمانيين في المغرب العربي، بداية حكم الأسرة السعدية للمغرب الأقصى (1524م). وكانت ولادة هذين النظامين المتنافسين، كرد فعل ديني لما لحق بمسلمي الأندلس من ناحية و العدوان الإسباني والبرتغالي على سواحل المغرب من ناحية ثانية، ووضع حد للصراع المسيحي الإسلامي على أراضي أوروبا. لقد ساهم العثمانيون في الجزائر منذ مطلع القرن السابع عشر على تجزئة المغرب الأقصى إلى إمارات تابعة للأشراف والزوايا والطرق الصوفية. وحالت المنافسة القبلية وعداوة الأمراء السعديين واتباعهم لرجال الدين، دون الوصول إلى توحيد المغرب الأقصى من طرف زعماء الزوايا والطرق الصوفية⁽⁴²⁾.

لقد وجد الملوك المغاربة في توظيف تيار النسب الشريف في الفرصة الملائمة لخدمة مصالحهم التوسعية من الناحية الشرقية، مستغلين في ذلك المساندة الشعبية التي كانوا يتمتعون بها داخل الجزائر⁽⁴³⁾. ولتحقيق هذا المشروع السياسي الطموح، اعتمد المغرب على نفوذ الطرق الصوفية، والتي كانت مراكزها تشكل حلقة تمتد من فاس إلى تلمسان وتونس مروراً بالواحات. وكانت الطرق الصوفية تشجع سلاطين المغرب في استمالة العائلات الكبرى التي تتمتع بنفوذ روحي في أقاليم الجزائر.

وبفضل القاعدة الشاذلية (أكثر الطرق الصوفية انتشاراً في المغرب الأقصى)، كانت مدينة تلمسان تفتح أبوابها مراراً للجيوش المغربية في العهد السعدي. وتوضح لنا صورة الصراع الجزائري-المغربي في العهد السعدي على شكل حملات عسكرية دامت ما يقارب ربع قرن من سنة 1551م إلى 1576م. من أول حرب بين محمد الشيخ وحسن بن خير الدين، إلى آخر حملة قام بها القائد رمضان على فاس في زمن حكم المتوكل⁽⁴⁴⁾.

اتخذ الصراع الجزائري المغربي في هذا العهد أشكالاً مختلفة: حروب ومعاهدات:

- حملات محمد الشيخ (المهدي) (1539-1556م)، كان التجاء أبي حسون آخر سلاطين الدولة الوطاسية. إلى الجزائر باعثاً لمحمد المهدي على أن يغزو تلمسان سنة 1551م، وهي لا تزال محمية إسبانية، واستمر حصارها تسعة أشهر، وجاءت نجدات عثمانية أرسلها حسن باشا⁽⁴⁵⁾ بقيادة حسن قورصو⁽⁴⁶⁾، الذي هزم الجيش السعدي وأبرم معاهدة وادي ملوية مع محمد الشيخ جاءت في سبعة بنود:

- وادي ملوية هو الحد الفاصل بين البلدين.
 - احترام الحدود الفاصلة بين البلدين الموروثة عن مملكتي الزيانيين والمرينيين.
 - عدم الاعتداء على بعضهما البعض .
 - عدم التدخل في الشؤون الداخلية لكل بلد.
 - عدم التحالف مع عدو كل طرف ضد الطرف الثاني.
 - عدم تأييد الثائرين على النظام القائم بكل بلد.
 - التعاون بينهما ضد الأسبان⁽⁴⁷⁾.
- حرق المهدي نصوص معاهدة ملوية، وبدأ يوجه غاراته على منطقة تلمسان تمهيدا للاستيلاء عليها. وفي الوقت نفسه بدأ في اتصالات بإسبان وهران لإجراء مفاوضات حول مشروع التحالف السعدي الإسباني ضد الجزائر، على إثر هذه الخيانة، توجه صالح رايس بحملة وانتصر على جيش المهدي في وادي سبو في شهر جانفي سنة 1554م، ونصب صالح رايس السلطان أبي حسون على عرش فاس⁽⁴⁸⁾.
- تمكن محمد الشيخ من القضاء على أبي حسون سنة 1554م، واستغل الصراع القائم بين طائفة الرياس والإنكشارية على السلطة في الجزائر، واعتمادا على التقارب السعدي الإسباني نتيجة لمشروع التحالف بينهما ضد الجزائر، أعد الشريف محمد الشيخ جيشا للاستيلاء على تلمسان ولكنه فشل بسبب ضعف قدراته العسكرية. وأراد أبو محمد عبد الله الغالب (1556-1573م)، تحقيق مشروع أبيه التوسعي في الجزائر بالاستيلاء على تلمسان سنة 1558م معتمدا على الحلف السعدي- الإسباني⁽⁴⁹⁾، واتفق مع ملك إسبانيا فليب الثاني (1598-1621) على أن يهاجم الجزائر في وقت واحد، وسلم له ضمنا لذلك ميناء طنجة ومدينة باد⁽⁵⁰⁾. لقد جهزت إسبانيا ثلاثة جيوش أبحرت من موانئ الأندلس وقادس ومالقة وقرطاجنة صوب وهران والمرسى الكبير ومستغانم⁽⁵¹⁾.
- لقد هاجم الأسبان مستغانم من البحر والبر، بينما السلطان عبد الله تولى مهاجمة تلمسان واستيلاء عليها، غير أن حسن باشا تمكن من محاصرة الإسبان والقضاء عليهم في معركة مزعران في أوت 1558م، وقتل قائد الجيش

الإسباني الكوديت (Alcaudète) وأسر الكثير منهم. وبهذا الانتصار قرر عبد الله الانسحاب من تلمسان قبل وصول جيش حسن باشا⁽⁵²⁾، ولما أبعد حسن باشا الخطر الإسباني من مستغانم جهز جيشا كبيرا وسار به إلى المغرب تحت قيادة قارة بوسنو، وعند وادي اللين⁽⁵³⁾ نشبت معركة انتصر فيها الجيش الجزائري على عبد الله. لما تولى محمد المتوكل (1573-1576 م)، العرش السعدي، عزم على خلع عبد الملك وأحمد المنصور، فاتصلا بالسلطان العثماني فأحالتهما إلى حكام الجزائر لمساعدة عبد الملك في استرجاع ملكه بفاس. فتوجه القائد رمضان إلى فاس بجيش كبير قوامه خمسة آلاف مقاتل، وانهزم المتوكل أمام القوات العثمانية عند وادي سبو، ثم في معركة قرب وادي الريحان، سنة 1575 م، وبفضل الغنائم التي استولى عليها عبد الملك من جيش المتوكل، تم تسديد التعويضات إلى الجيش الجزائري وتقديم هدايا معتبرة للسلطان العثماني⁽⁵⁴⁾.

كما وصل التدخل الجزائري في الشؤون المغربية أوجه في النصف الأخير من القرن السابع عشر مع حصول العلويين شرفاء المغرب الأقصى على العرش. لقد وجدت الأسرة العلوية مضايقة من الجانب العثماني المستقر بالجزائر، و الذي كانا يؤيد منازعي السلطة بالمغرب، فواصلوا بذلك سياستهم القائمة على التدخل والتي يعود تاريخها إلى العهد السعدي. اختار حكام الجزائر جانب الدلائين لما ثاروا على المولى اسماعيل سنة 1677 م، كما أنهم مدّو يد المساعدة إلى خضر غيلان الذي كان يسعى لتأسيس إمارة مستقلة في منطقة شمال المغرب، مما يعني أنّ الجزائر العثمانية اتخذت منذ البداية موقفا عدائيا إزاء الدولة العلوية. فاتسمت هذه العلاقات بالتوتر والتأزم أحيانا، وبالحروب تارة أخرى. وهذا منذ أول غارة قام بها السلطان محمد على وجدة سنة 1646 م إلى قيام السلطان سليمان بحملات على منطقتي قورارة، وتوات سنة 1808 م.

قام محمد الشريف العلوي (1640-1658 م) بدافع التوسع على منطقة وجدة التي كانت تابعة للجزائر العثمانية زمنئذ، وأغار على قبائل بني زناسن، وبني مطهر وذوي يحيى وبني سنوس. وبني عامر، والجعافرة والأحرار والفاسول وعين ماضي⁽⁵⁵⁾، وكرد فعل لهذه الغزوات، قام أحمد باشا (1650-1656 م) حاكم الجزائر بإرسال حملة

عسكرية لمواجهة غارات الشريف العلوي، انتهت بعقد معاهدة تمّ بموجبها تخلي الجزائر عن أراضي غربي تافنة إلى وادي ملوية لصالح المغرب العلوي⁽⁵⁶⁾.

حدد المولى الرشيد (1664-1672 م)، المعاهدة المبرمة مع إيالة الجزائر، ليتفرغ بعد ذلك للاستيلاء على المغرب المجزأ إلى إمارات، ولكنه أغار من جديد على قبائل بني بزناسن الموالية للأتراك العثمانيين، وما لبث أن انسحب إلى تازة مكملًا مشروعه التوحيدي للمغرب⁽⁵⁷⁾. وتابع مولاي إسماعيل (1672-1727 م)، مشروع أخوية للتوسع في الجزائر، ومهدّ لذلك بتحريض سكان تلمسان على الثورة ضد التواجد العثماني بالجزائر، وتوغل الجيش المغربي في الصحراء ثم في وادي الشلف، وانضم إليه بنو عامر سنة 1676 م⁽⁵⁸⁾، فهاجم الجيش الجزائري المحلة المغربية بالمدفعية، فقرر مولاي إسماعيل الانسحاب وقبول عرض الجزائر بإقرار الحدود القديمة⁽⁵⁹⁾.

قام إسماعيل بعقد معاهدة سان جرمان في 29 جانفي 1682 م مع الملك الفرنسي لويس الرابع وإقرار التعاون المغربي الفرنسي. وفي 1682 م أعلنت الجزائر مساندة ابن محرز ضد السلطان العلوي، وخلال هذه المرحلة تأزم الوضع في الجزائر حيث عمد الأسطول الفرنسي بقيادة الأميرال دوكين، الذي تلقى الأوامر بتخريب مدينة الجزائر. لقد كان الفرنسيون معتمدين على سلاح جديد، وهو مدفع يطلق قذيفة ضخمة من المتفجرات على مسافة تقدر بـ (1.350 مترا). إن القصف قد أودى بحياة حوالي خمسمائة شخص وهدم حوالي خمسين عمارة⁽⁶⁰⁾. وقد تصدى الداوي بابا حسن (1682-1683 م) لهذه الحملة، كما أرسل حامية عن طريق البحر لنجدة تلمسان، وهزمت إسماعيل، الذي تراجع واعترف بالحدود مع الجزائر. لم يتراجع السلطان إسماعيل عن أهدافه التوسعية، فاعتنق فرصة الاضطرابات التي عرفت الجزائر بعد حملة دوكين (Duquesne)، وثورة الانكشارية على الداوي حسين باش⁽⁶¹⁾، فتحالف مع محمد باي تونس (1675-1696)، وبتحريض من الانجليز والهولنديين الذين أفلقتهم معاهدة الجزائر مع فرنسا⁽⁶²⁾.

في سنة 1691م، وجه مولاي اسماعيل جيشا بقيادة نجله زيدان لردع قبائل بني عامر الذين كانوا يعرضون خدماتهم تارة على العثمانيين وتارة على أخرى على المخزن المغربي، فردّ الداوي الحاج شعبان (1688-1695م) على هذا التعاون بإرسال حملة أدت إلى انهزام زيدان وتراجعته إلى فاس⁽⁶³⁾.

وقد أسفرت المعركة على خسائر جسيمة، أدت إلى مقتل 5000 مغربي و 100 قتيل عن الجانب الجزائري⁽⁶⁴⁾. فطلب اسماعيل الصلح بعد توسط العلماء والأولياء الموالون للعثمانيين، وهم أتباع الطريقة القادرية الجيلائية، والشاذلية، والأولياء الموالون للعلويين وهم أتباع الطريقة الطيبية الوزارنية، والدراقوية. فوقع الطرفان معاهدة صلح في وجدة، انحصرت أهم نقاطها في البنود التالية:

- اعتراف اسماعيل بوادي ملوية كحد فاصل بين الجزائر والمغرب.
- تتوقف الاعتداءات و التحرشات العسكرية بين البلدين.
- تسريح اسماعيل لجيوشه غير الضرورية.
- يدفع اسماعيل ضريبة إلى الداوي⁽⁶⁵⁾.

بعد هذه التسوية لجأ السلطان إسماعيل إلى إبرام معاهدة صداقة وتجارة مع فرنسا، ومثلها مع باي تونس مراد بن علي (1696-1703م)، واتفاقا معاً على مهاجمة الجزائر في زمن واحد من الشرق والغرب. وبعد أن انقضى صلح سنة 1700م، أقدم مولاي اسماعيل بالزحف على الجزائر، وأغار زيدان على معسكر عاصمة بايليك الغرب، مستغلا غياب الباي مصطفى بوشلاغم⁽⁶⁶⁾. كما قام اسماعيل باكتساح الأراضي الجزائرية في 28 أوت 1701م فوصل إلى مشارف وادي جديوية⁽⁶⁷⁾، إلا أن الهجوم المغربي كلف جيش اسماعيل خسائر بشرية حيث قتل 3000 مغربي، وجرح اسماعيل قرب وادي شلف، وكاد أن يقع في قبضة جنود الإنكشارية⁽⁶⁸⁾.

لم تتوقف أطماع اسماعيل التوسعية في الجزائر رغم الهزائم المتكررة، ففي سنة 1708م قاده حملة لمهاجمة وهران- لا تزال تحت الاحتلال الإسباني- فتوجه جنوب مرسى أرزيو، وتصدى له الباي مصطفى بوشلاغم⁽⁶⁹⁾، وهزمه في مكان يدعى زبوجة الغرب⁽⁷⁰⁾. ومنذ هذه الكارثة توقفت عمليا كل المواجهات العسكرية الكبرى ما بين القوتين، لأن كلا من الجزائريين وجيرانهم المغاربة انشغلوا بالقضايا الداخلية لا سيما القضايا الاجتماعية والاقتصادية التي ساعدت على إذكاء الثورات المحلية، فضلا عن الضغط الأجنبي. أما السلطان اسماعيل فاكثفى بإرساله ابنه عبد الملك الذي أغار على الجنوب ووصل بالحاميات المغربية إلى عين ماضي حيث تمركزت بقرية بوسمغون⁽⁷¹⁾ ما بين سنوات 1710-1713م، زمن حكم الداوي علي شاوش.

أقدم سلطان المغرب سليمان العلوي (1792-1822م)، على إرسال حملة⁽⁷²⁾ من فاس للاستيلاء على وجدة وكانت يومئذ تابعة للجزائر وعليها الخليفة محمد باي وهران. وكتب سليمان إلى باي وهران يطلبه بالتخلي عن المنطقة وعن قبائلها أو يدخل معه في حرب⁽⁷³⁾. فتخلى عن قبائلها ومنطقة رأس العين⁽⁷⁴⁾. وهكذا تدخل السلطان سليمان في شؤون الجزائر الداخلية، بتغذيته للفتن، وتحريضه للثوار ضد التواجد العثماني بالجزائر، بهدف توسيع حدود المغرب والاستيلاء على أكبر مساحة ممكنة من الأراضي الجزائرية الغربية، وهذا بتشجيعه لابن الشريف الدرقاوي، وتحالفه مع باي تونس حمودة بن علي (1782-1814م)، وتشجيعه لابن الأحرش بواسطة تقديم المال والسلاح.

انتهاز السلطان المغربي سليمان فرصة انشغال الجيش الجزائري بإخماد الثورة الدرقاوية بالغرب الجزائري، وثورة ابن الأحرش بالشرق الجزائري، ومواجهة حملات الباي حمودة على قسنطينة⁽⁷⁵⁾. فقام بسلسلة من الحملات على الجنوب الغربي للجزائر، بمساعدة قبيلة ذوي منيع، واستولى على فقيق سنة 1805م⁽⁷⁶⁾ زمن حكم الداوي مصطفى باشا كما

قام بحملات على منطقتي: قورارة وتوات واستولى عليهما سنة 1808 م زمن حكم الداوي علي خوجة الغسال (1808-1809 م).

يظهر لنا من خلال ما تقدم أن القلق العثماني ازداد من جراء الأطماع المغربية، ونستشف هذا من خلال رسالة بعث بها أحد الدايات⁽⁷⁷⁾ إلى لويس رابع عشر يشك من اتفاق مزعوم بين المغرب وتونس لتصفية الوجود العثماني في شمال إفريقيا. وقد تطور هذا النزاع بعد أن اتخذ صفته الدولية بتدخل جهات أجنبية، والتي كانت لها مصلحة في هذا الصراع مثل إسبانيا وفرنسا والبرتغال، لأن هذه الدول لم تكن لترضى بالتقارب الجزائري-المغربي، لأنه يهدد مصالحهم في المنطقة. فسعت الأطراف الأوروبية إلى دفع المغرب وسلاطينه لإثارة الفوضى والفتن داخل الأراضي الجزائرية⁽⁷⁸⁾.

وهكذا يتبين لنا أن البلدان الأوروبية، كان لها دور حاسم في العلاقات المغربية، فهي محور أساسي في علاقات التلاقي والتحالف بين الجزائر والمغرب وتونس، فكانت القوى الأوروبية تتدخل باستمرار في الشؤون الداخلية لهذه البلدان، لبث روح التفرقة، ولتدعيم مصالحها وامتيازاتها في المنطقة.، والعمل على عدم بروز تكتل مغربي من شأنه تهديد مصالح أوروبا مستقبلاً.

والواقع أن أوروبا قد سيطرت على التجارة وفرضت شروطها على العوالم الأخرى بفضل تفوقها التقني والعسكري. ومع نهاية حروب نابليون (1815)، وإقرار سياسة الوفاق الأوروبي في مؤتمر فيينا (1815)، بدأ تطبيق المخطط الأوروبي الذي يهدف إلى إلغاء دور بلدان المغرب العربي الدولي القائم على ممارسة الجهاد البحري، واستخدمت الدول الأوروبية منطق المهادنة والمعاهدة المعتمد على القانون الذي يبقى قانوناً أوروبياً أساسه. واستخدمت القانون البحري الدولي لضغط على هاته الدول في الضفة الجنوبية للبحر الأبيض المتوسط لتبليغها الواحدة تلو الأخرى بدءاً بالجزائر سنة 1830 و انتهاء بالمغرب و ليبيا سنة 1912 م.

الإحالات :

- (1) صلاح، العقاد، المغرب في بداية العصور الحديثة، مصر: دار المعارف، 1962-1963 م، ص 56.
- (2) A.cour, l'établissements des dynasties des chérifs du Maroc et leurs rivalités avec les Turcs de la régence d'Alger, 1509-1830, éd Leroux, Paris 1904, PP.244-245.
- (3) حول سياسة الأتراك اتجاه المغرب والعلاقات السياسية بين المغرب وإيالة الجزائر في العهد العثماني، راجع الدراسات القيمة: - جلول، المكي، مسألة الحدود بين الجزائر والمغرب من 631 إلى 1263 هـ/ 1234-1847 م، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة الجزائر 1413 هـ/ 1993 م.
- (4) A.Cour, op.cit, P.245.
- (5) ibid, PP.230-236.
- (6) عبد الجليل التميمي "التشكل الإداري والجغرافي السياسي للأيلات العثمانية بالجزائر و تونس و طرابلس الغرب (1557-1588 م)"، في كتاب تحية تقدير للأستاذ خليل الساحلي أوغلو (جمع و تقديم: د.عبد الجليل التميمي)، زغوان: منشورات مؤسسة التميمي للبحث العلمي والمعلومات، ج2، أكتوبر-نوفمبر، 1997 م، ص 454.
- (7) إذا استقرت لنا التاريخ، نلاحظ أن بلدان المغرب العربي فشلت في تكوين كتل سياسي موحد يكون امتداد لعمل الدولة الموحدية. وبالرغم من محاولات سلاطين آل عثمان تحقيق هذا الحلم، فإن العلاقات السياسية بين مختلف بلدان المغرب العربي تميزت بالتوتر والعداء فيما بينها.
- (8) عبد الجليل، التميمي، "رؤية منهجية لدراسة العلاقة العثمانية المغربية في القرن 16 م" المجلة التاريخية المغربية، العدد 30-، تونس، جويلية 1983 م، ص 93.
- (9) عزيز سامح، أثير، الأتراك العثمانيون في إفريقيا الشمالية (ترجمة: محمود علي عامر)، ط1، بيروت: دار النهضة العربية، 1989 م، ص 227.
- (10) لقد ساعد المناخ النفسي والاجتماعي على إنجاح حملة قليج علي باشا للعمل على ضم تونس، أنظر: عبد الجليل، التميمي، "رؤية..."، المقال السابق، ص 94.
- (11) عبد الجليل، التميمي، "التشكل"، المقال السابق، ص 460.
- (12) ولیم، سبنسر، الجزائر في عهد ریاس البحر (تعريب وتعليق: عبد القادر زبادية)، الجزائر: الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1980 م، ص 137.
- (13) استمرت التقاليد المملوكة القديمة في إطار التنظيمات العثمانية. ولعل عراقا التقاليد الحكومية في تونس سهلت قيام أسر فيها بعد فترة قصيرة من الحكم على النمط العثماني. وقد مر الحكم العثماني في تونس بأربع مراحل متفاوتة المدة والأهمية:

1. الفتح وحكومة الباشاوات 1574-1590 م.
2. حكومة الدايات 1591-1631 م.
3. الأسرة المرادية 1631-1705 م.
4. الأسرة الحسنية 1705-1957 م.
- (14) عبد الجليل، التميمي، "التشكل" ... المقال السابق، ص 460.
- (15) صلاح، العقاد، المرجع السابق، ص 56.
- (16) H.Hugon, les emblèmes des Beys de Tunis, E.Leroux, Paris, 1914, P.54
- (17) حسن عبد الوهاب، حسني، خلاصة تاريخ تونس، ط3، تونس: دار الكتب العربية، 1372 هـ، ص 136.
- (18) E.Vayssettes, « histoire Histoire des derniers Bey de Constantine », in RA, (N°6), 1862, PP.331-345.
- (19) H. Hugon, op.cit, P.54.
- (20) ويمثل عهد إبراهيم الشريف (1702-1705 م) مرحلة انتقال بين الأسرتين المرادية والحسنية. فبسبب رفض مراد الثالث وأوامر السلطان العثماني مصطفى عن التوقف في قتال الجزائرية، حيث أوعز السلطان إلى إبراهيم الشريف بالتخلص من مراد باي سنة 1702 م.
- (21) M.Gaïd, l'Algérie sous les Turcs, Alger, éd, Mimouni, 1991. , P.151
- (22) المبارك، المبارك، أحمد، تاريخ قسنطينة (تحقيق: رايح بونار)، د.ت. ص 24.
- (23) V.Picquet, les civilisations de l'Afrique du Nord, Barbaresque Arabe-Turcs, A.colin, Paris 1909, P.257
- (24) ابن أبي الضياف، اتخاف أهل الزمان في أخبار ملوك تونس وعهد الأمان، ط2، الجزائر: الدار التونسية للنشر والشركة الوطنية للنشر والتوزيع 1971 م.، ج3، ص 55-56.
- (25) الزهار، مذكرات الحاج أحمد الشريف الزهار، (تحقيق: أحمد توفيق المدني)، ط2، الجزائر: الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1980 م.، ص 96.
- (26) ولیم، سبنسر، المرجع السابق، ص 138.
- (27) الباي مصطفى الانجليزي (1798-1803 م).
- (28) المبارك، المصدر السابق، ص 28.
- (29) تعود فكرة التحالف التونسي - المغربي ضد الوجود العثماني في الجزائر إلى عهد الحفصيين والوطاسيين، لكن ضعف الدولتين حال دون تحقيق تحالف عسكري ضد الوجود التركي.

- (30) المبارك، المصدر السابق، ص 28.
- (31) ناصر الدين، سعيدوني، والبوعبدلي، المهدي، الجزائر في تاريخ (العهد العثماني)، الجزائر: وزارة الثقافة، 1984م، ص 63.
- (32) نفسه، ص 64.
- (33) A.Devoulx, Le Raïs Hamidou, A.Jourdan, Alger, 1859. , PP.123-129.
- (34) العنصري، محمد الصالح، سنين القحط والمسبعة ببلد قسنطينة، (نشر وتحقيق: رايح بونار، بعنوان مجاعات قسنطينة)، الجزائر، 1974م، ص 78-79.
- (35) كانت ضريبة تونس كل سنة ترسل إلى الجزائر تتضمن 250 جرة زيت، و 20 جرة من الصابون بالإضافة إلى الهدايا التي ترسل إلى قادة الإنكشارية من برانس وعطور وورود وشالات تقدر بـ 150.000 جنيه فرنسي، للمزيد أنظر:
V. de Paradis, Tunis et Alger au XVIII Siècle, Sindbad, Paris, 1983 , op.cit, P.238.
- (36) بخصوص هذا الموضوع، أنظر التفاصيل:
محمد خير، فارس، محمد خير، تاريخ الجزائر الحديث من الفتح العثماني إلى الاحتلال الفرنسي، دمشق: مطابع ألف باء، الأديب، 1969م، ص 232-233.
- (37) E.Plantet, Correspondance des Deys d'Alger avec la cour de France (1579-1833), Paris, F.Alcan, 1889 , T3, P.634.
- (38) لقد ورث العثمانيون مملكة تلمسان الزبانية، بحدودها الطبيعية الممتدة إلى وادي، ملوية وزا.
- (39) ولد التيمقوتي بدرعة في المغرب الأقصى حوالي 1560م، زار الجزائر سنوات 1594-1595م.
- (40) أبو الحسن علي بن عمر التيمقوتي، النفحة المسكية في السفارة التركية (تحقيق: هندري دي كاستري)، المغرب 1926، ص 47.
- (41) الحسن بن محمد، الوزان، وصف إفريقيا، (ترجمة: محمد حجي و محمد الأخضر)، ط2، بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1983ج2، ص 8.
- (42) تجزأ المغرب الأقصى إلى إمارات، بعضها كان تحت حكم صلحاء مرابطين أصحاب زوايا كالدلايين في الأطلس المتوسط أو السماليين في سوس، وبعضها بيد مجاهدين كمحمد العياشي الذي حارب البرتغاليين في البريجة ثم الأسبان في المعمورة، وبعضها كان تحصر نظر رؤساء هلالين أصحاب عصبية كعرب الشبانات ناحية مراكش، وبعضها تمثل جمهوريات حرة كسلا

- وتطوان كان أغلب سكانها من مهاجري الأندلس وكانت تشارك في الجهاد البحري، وكان لهذه الإمارات دور في تفتيت البلاد ونشر الفوضى، للمزيد راجع:
- إبراهيم، حركات، حركات، إبراهيم، المغرب عبر التاريخ، ط2، الدار البيضاء: دار الرشاد الحديثة، 1405 هـ/ 1984 م. ج2، ص 284-364.
- (43) كانت منطقة تلمسان تضم عناصر من أتباع الطرق الصوفية الشاذلية والجزولية (طريقة أشرف السعديين)، والتي هيأت السكان إلى قبول زعامة سلاطين المغرب السعدي - أنتظر التفاصيل في المبحث الخاص بالثورات.
- (44) إبراهيم، حركات، المرجع السابق، ج2، ص 503-314.
- (45) حسن بن خير الدين باشا، تولى بايلارباية الجزائر ثلاث مرات، الأولى: (1554-1552 م)، الثانية: (1557-1562)، الثالثة (1562-1567).
- (46) حكم الجزائر ما بين (1556-1557 م).
- (47) أحمد توفيق، المدني، المدني، أحمد توفيق، حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر وإسبانيا (1492-1792 م)، الجزائر: الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1976 م، ص 331 وقارن عند: A. Cour, op.cit, PP.102-103.
- (48) Henri, Terrasse, Histoire du Maroc, Casablanca, 1950, T2, P.167.
- (49) Garrot, Histoire générale de l'Algérie, Alger, 1910, P.426.
- (50) الناصري، أبو العباس أحمد، الاستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى، (تحقيق وتعليق: جعفر ومحمد الناصري)، الدار البيضاء: دار الكتب، 1954-1956 م. ج5، ص 49.
- (51) Haedo, Histoire, P.174.
- (52) Garrot, op.cit, P.426.
- (53) وقعت المعركة بتاريخ 23 مارس 1559 م.
- (54) Haedo Haedo (Fray, Diego de), Histoire des rois d'Alger, Trad et annotée par (H.D- de Grammont), A.Jourdan, Alger, 1881, P.161.
- (55) إبراهيم، حركات، المرجع السابق، ج2، ص 257.
- (56) H.Terrasse, op.cit, T2, P243.
- (57) تم تجديد نص المعاهدة مع آغا الجزائر علي باشا (1665-1671 م) سنة 1665 م، راجع في هذا السياق.
- A.cour, op.cit, P.183.
- (58) لعبت قبلية بني عامر دور مهم في وجه التواجد الإسباني بمنطقة الغرب الجزائري. راجع بهذا الخصوص:

P.Boyer, « Historique des Beni Amer d'Oranie des origines au Sénatus consulte», in **R.O.M.M**, (N°24), 1977, op.cit, PP.39-85.

(59) الناصري، المصدر السابق، ج7، ص 31-42.

(60) جون (ب) وولف، الجزائر و أوروبا (ترجمة و تعليق: أبو القاسم سعد الله)، الجزائر: المؤسسة الوطنية للكتاب، 1986، ص 343-344.

(61) هو الحاج حسين المدعو موزومورتو (1683-1688م).

(62) جمال، قنان، معاهدات الجزائر مع فرنسا 1619-1830م، الجزائر: المؤسسة الوطنية للكتاب، 1987م، ص 97-110.

(63) Grammont, Histoire d'Alger sous la domination Turque, 1515-1830, Paris, E.Leroux, 1887. , op.cit, P.134.

(64) ابن ميمون ابن ميمون، محمد الجزائري، التحفة المرضية في الدولة البكداشية في بلاد الجزائر المحمية (تقديم وتحقيق: محمد بن عبد الكريم)، الجزائر: الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، ص 23-24.

(65) Léon, Galibert, l'Algérie ancienne et moderne, éd, Furue et Cie, Paris, 1844. P.235

(66) الناصري، المصدر السابق، ج7، ص 89.

(67) واد جديوية، هو من روافد واد الشلف، ويوجد اليوم قرية بهذا الاسم.

(68) ابن ميمون، المصدر السابق، ص 27.

(69) حدث هذا الهجوم في عهد الداوي حسين خوجة الشريف (1705-1708م).

(70) يقع هذا المكان جنوب سبخة أرزيو، وتدعى غابة مولاوي اسماعيل، أنظر: أحمد توفيق، المدني، حرب الثلاثائة سنة...، المرجع السابق، ص 46.

(71) قرية بوسمغون، تقع شرقي عين الصفراء وغربي البيض جنوب الجزائر.

(72) تتشكل هذه الحملة من أربعة جيوش:

1. جيش الشراقة. 2. جيش عبيد البخاري. 3. جيش مكناسة. 4. جيش الواديا. وهذا في سنة 1795م.

(73) الناصري، المصدر السابق، ج8، ص 104.

(74) رأس العين منطقة تقع شرقي دبدو، وغربي ثنية الساسي - لا نعرف الأسباب التي جعلت حكام الجزائر يتخلون عن هذه الأراضي التي كانت تابعة لهم، والتي كانت لها نتائج على الصعيد الحدودي، حيث نقلت مصالح الحدود من وادي: ملوية وزا إلى شرقي وجدة بالشمال، وإلى رأس العين بالجنوب.

(75) قام حمودة باي بحملتين على قسنطينة سنتي 1807 و 1813م.

(76) مسلم، بن عبد القادر، أنيس الغريب والمسافر (تحقيق وتقديم: رابح بونار)، الجزائر: الشركة الوطنية للنشر والتوزيع،

1974م.

(77) الداوي شعبان (1688-1695م) والذي كلف محمد الأمين خوجة لمواصلة توقيع المعاهدة مع فرنسا التي أبرمت في 18

ديسمبر 1690م. ص 51.

(78) عبد الهادي، التازي، "فكرة المغرب العربي، من خلال الوثائق الدبلوماسية"، مجلة الدراسات التاريخية، جامعة دمشق،

العدد 13-14، نوفمبر 1983م، ص 9.

التراث المخطوط لأبي راس الناصري.

د. بن عتو بلبروات
جامعة سيدي بلعباس

ميز أهل العلم بين نوعين من التراث المخطوط، تراث في مجال العلوم العقلية مثل المخطوطات الدينية، الأدبية، والتاريخية... وتراث في مجال العلوم العقلية مثل الطبيعة، الطب والصيدلة، التقنية، الرياضيات، والفلك وغيرها. وقد أضحي هذا التراث المخطوط بنوعيه ميراثا ثميناً للأجيال المتعاقبة، ويتعين عليها استغلاله ولا يتأتى ذلك إلا بالفتيش عنه وتحقيقه وطبعه أو نشره، وهذه مهمة حضارية يتحملها المتخصصون مثلما تحملها علماء أوروبا الغربية في عصر النهضة عندما عزموا على استغلال التراث اليوناني والروماني.

وتتوفر بلادنا الجزائر على كمية ضخمة من هذا التراث المخطوط يتوزع على مختلف ولايات الوطن، وما زال بعيداً عن متناول الباحثين والدارسين، وهو يعيش اليوم وضعاً صعباً، قليل منه معروف، تقوم المؤسسات الحكومية بحمايته والمحافظة عليه، وأكثره ملكية خاصة بأيدي لا تدرك قيمته الحقيقية ولا تتوفر أدنى شروط المحافظة عليه وصيانته وحمايته من التداعي والتلف والضياع.⁽¹⁾

في هذا السياق تدرج دراستنا حول التراث المخطوط لأحد أعلام الفكر والثقافة بالجزائر العثمانية وهو أبو راس الناصري، انطلاقاً من تساؤلات رأيناها مفيدة وهي:

- ما هي العوامل التي جعلت من أبي راس الناصري مؤلفاً بارزاً في علوم شتى؟
- ما هي التنبيهات التي يمكن تسجيلها حول مؤلفات العلامة أبو راس الناصري الضائعة أو الباقية، المخطوطة أو المطبوعة؟

- ما هي وضعية التراث الناصري في الوقت الحالي؟

1- التعريف بأبي راس الناصري وعوامل بروزه في مجال التأليف:

لعلامة أبو راس الناصري، هو محمد بن أحمد بن عبد القادر بن محمد بن أحمد بن الناصر الجليلي العسكري المكنى بأبي راس لكبر رأسه. ولد في بيئة فقيرة يوم 08 صفر 1165 هـ/ 27 ديسمبر 1751 م، بقلعة بني راشد بين جبل كرسوط وجبل هونت بالغرب الجزائري، وارتحلت أسرته إلى متيجة حيث ماتت هناك أمه زولة بنت السيد الفرح ابن الشيخ السيد اعمر بن عبد القادر التوجاني. بعد وفاة الأم، انقلب الوالد إلى حوز مجاجة بضواحي مدينة الجزائر، واعتكف على تعليم القرآن للرجال والصبيان. ولمحمد أبي راس الناصري أخوان: عبد القادر، وابن عمر، وهو الأكبر الذي انقلب بعد وفاة الوالد بإخوته إلى المغرب الأقصى. وكان محمد وقتئذ صغير السن، يحمل على العاتق.⁽²⁾ قرأ محمد أبو راس في المغرب الأقصى القرآن الكريم، وأحكامه، وحفظها عن ظهر قلبه، وأظهر نجابة في ذلك وتفوق على نظرائه من القراء، ثم درس على الشيخ منصور تلميذ الشيخ أحمد بن ثابت بجبل ترارة، وأتقن القرآن برواية قالون ورواية ورش. وبعد، انتقل إلى قراءة الفقه على فقهاء معسكر، ثم توجه إلى مدينة مازونة حيث أظهر تفوقاً في قراءة مصنف خليل، وبالتالي طار صيته في المشارق والمغرب.

ومن مازونة عاد مجدداً إلى معسكر وقصد الشيخ عبد القادر المشرقي الذي كان يدرس بعواجة، وأعجب هذا الأخير بتفوق أبي راس. ثم توجه إلى بيت أخيه بوادي أغرم، وتزوج امرأة من أولاد الشيخ محمد بن يحيى. درس محمد أبو راس مدة ست وثلاثين سنة بمعسكر، وكان يورد درسه على التحقيق والتدقيق ويوشحه بتتمة أو لطيفة مهمة أو تنبيه وجه أو تكميل وتذليل، وصارت حضرته في العلم تذكر في الآفاق وتناظر دروس مصر والشام وتونس والعراق.

ذهب إلى الحج سنة 1204 هـ/ 1790 م وقرأ على الشيخ مرتضي الزبيدي،⁽³⁾ بالقاهرة، ولما رجع سنة 1205 هـ/ 1791 م شارك في فتح وهران، ثم تقلد الفتوى، ثم القضاء، والخطابة، لكنه عزل سنة 1211 هـ/ 1797 م، ليتوجه إلى فاس ويفد على السلطان مولاي سليمان، فأهدى له نسخة من الشرح الأكبر للمقامات الحريية، والعقيقة، فأجازه واشتهر بمدينة فاس ولقبه علماؤها بالحافظ، ودعاه أمير خراسان لولاية أحد الأقاليم فامتنع.⁽⁴⁾ توفي محمد أبو راس يوم 15 شعبان 1238 هـ/ 27 أبريل 1823 م متأثراً بمرض الطاعون حسب رواية مسلم بن عبد القادر في كتابه خاتمة أنيس الغريب والمسافر، وضرجه بمدينة معسكر بنهج بابا علي، تاركا وراءه مؤلفات عديدة بعضها ما زال محفوظاً، والبعض الآخر مفقوداً.

ومن العوامل التي كان لها دورا في بروزه في مجال التأليف، حتى أنه حاز المرتبة الثانية بعد السيوطي⁽⁵⁾ من

حيث التأليف هي كالآتي:

* قدرته القوية على الاستيعاب وذكاؤه وفطنته، فقد لاحظنا ذلك في مساره الدراسي حيث كان يتقن القراءة ويتفوق على نظرائه من المتدربين في شتى الدروس التي كان يتلقاها من شيوخه.

* ممارسة مهنة التدريس لمدة ست وثلاثين سنة بمدينة معسكر (عاصمة بايليك الغرب الجزائري في عصره)، بحيث تطلب منه ذلك خوض غمار البحث العلمي وتأليف الكتب ليكون ذلك دعما لطلبته في تحصيلهم العلمي.

* تولى أبو راس مناصب الافتاء والقضاء والخطابة، وأعتقد أن مثل هذه المناصب تدفع أصحابها من ذوي الضمير الحي والأخلاق الفاضلة إلى البحث في علوم شتى قصد التحكم في التحديات التي تفرضها طبيعة الوظائف السابقة الذكر وبالأخص وظيفة المفتي.

* عاصر أبو راس الناصري بواد نهضة جزائرية في عهد الداوي محمد بن عثمان باشا⁽⁶⁾ 1766-1791، وكان أحد كواد النهضة في بلاط الباي محمد الكبي⁽⁷⁾ بمعسكر، خصوصا أن هذا الأخير كان يهتم كثيرا بالفكر والثقافة ويقرب العلماء الفقهاء إلى مجلسه، وعندئذ يمكن الاعتقاد أن أجواء الإصلاح والنهوض بالذات حفز أبو راس وشجعه على التأليف في تخصصات مختلفة في مجال العلوم العقلية وبالأخص في العلوم النقليية.

* انتقال العلامة أبو راس الناصري إلى بلاط الملك سليمان بن محمد بن عبد الله بمدينة فاس، بعد عزله سنة 1797، لأسباب تبقى مجهولة لدى المؤرخين لكن ما نعتقده أن سنة عزله تتوافق مع وفاة الباي محمد الكبير في ظروف غامضة وربما يكون أبو راس الناصري قد اكتشف أمرا فعزل نفسه والتجأ إلى فاس -عاصمة المغرب الأقصى- في العصر- الحديث- وما نود الإشارة إليه أن عهد الملك سليمان هو الآخر كان مفعما بالإصلاح ويظهر أنه ساعد أبو راس على التأليف في علوم شتى.

2- تنبيهات وملاحظات حول التراث المخطوط لأبي راس الناصري:

أ-التنبيه إلى إعادة النظر في ضبط مؤلفات أبو راس الناصري:

حدد المستشرق البولندي أغناطيوس يوليانيوفتش كراتشوفسكي في كتابه تاريخ الأدب الجغرافي العربي، عدد مؤلفات أبو راس الناصري ووقف على 136 كتابا، ويظهر أنه اعتمد على المخطوطة المنسوبة لأبي راس الناصري المسماة بـ: شمس معارف التكاليف في أسماء ما أنعم الله به علينا من التأليف⁽⁸⁾. ونجد هذا الرقم معتمدا عند الكثير من باحثينا لكن إذا حاولنا إعداد قائمة بمؤلفات الناصري فإنه يستحيل بلوغ هذا الرقم نظرا للاعتبارات التالية:

- هناك كتباً منسوبة لأبي راس الناصري مثل : عجائب الأخبار ذات التأسيس فيما يقع بين المسلمين والفرنسيين. وهو أوراق قليلة فيها خبر عن حوادث الاحتلال الفرنسي وموقف الزمالة والدواير منه وتجنيد الشباب المسلم في الجيش الفرنسي. وبالتالي نلاحظ أن صاحب هذا المخطوط عاصر الاحتلال الفرنسي، ويستحيل أن يكون أبو راس الناصري الذي فارق الحياة سنة 1823 أن يتوقع أشياء تتسم بالتحديد والدقة. وما يلفت الانتباه أن هذا المخطوط يحمل عنوانين آخرين هما:

* أقوال التأسيس فيما وقع وسيقع بين المسلمين والفرانصيص.

* صحائف الأخبار ذات التأسيس فيما يقع بين المسلمين والفرانصيص.

وبالتالي نعتقد أن هذه العناوين الثلاثة لكتاب واحد منسوب إلى أبي راس الناصري قد اعتمدت ضمن تعداد مؤلفات الرجل العلامة وهو ما لا يقبله المنطق.

-تعدد عناوين الكتاب الواحد مثل:

* درء السحابة فيمن دخل المغرب من الصحابة. وتوجد نسخة منه بخزانة المرحوم البشير المحمودي، وورد في دليل مؤرخ المغرب لابن سودة أن له عنوان آخر وهو الإصابة فيمن غزا المغرب من الصحابة. وتوجد نسخة منه في مدينة مكناس.

* الوصيد في شرح سلوانية الصيد. لابن عبد الجبار الفجيجي. والكتاب نفسه يحمل عنوان آخر، قام الأستاذ الباحث حمدادو بن عمر بجامعة وهران بتحقيقه وطبعه وهو : الشقائق النعمانية في شرح الروضة السلوانية. وعندئذ من غير المعقول أن يندرج العنوانين ضمن الترقيم الذي توصل إليه المستشرق كراتشوفسكي.

* قام أبو راس الناصري بتفسير القرآن الكريم في ثلاثة أسفار أي مجلدات تحت عنوان واحد: مجمع البحرين ومطلع البدرين بفتح الجليل للعبد الذليل في التيسير إلى علم التفسير. وبالتالي أماننا كتابا واحدا وليس ثلاثة كتب.

* أنجز الناصري كتابا في الفقه أسماه: درة عقد الحواشي على جيد شرحي الزرقاوي والخراسي. وأتمه في ستة مجلدات. وعندها لا يمكن اعتماد ستة كتب بعنوان واحد في عملية ترقيم مؤلفات أبو راس الناصري والأمر نفسه ينطبق على مؤلفات أخرى موزعة إلى مجلدات.

ب-التنبيه إلى ضياع مؤلفات أبو راس الناصري:

ما ننبه إليه بهذا الصدد أن أبا راس الناصري قد ترك لنا تراثا ثقافيا، ضاع جزء منه في حياته وبعد موته،

بفعل عوامل تتعلق بطبيعة كتاباته ونبين ذلك كما يلي:

ب1-خوض الناصري في تاريخ الأنساب بالجزائر في عصر اندثار علم النسب:

اهتم أبو راس الناصري بالأنساب في بلاده انطلاقاً من المثل القائل: "من لا يعرف الناس ليس من الناس"، فألف كتاب الوسائل إلى معرفة القبائل، كتاب القصص الفتانة في ذكر البربر وزناته، وكتاب مروج الذهب في نبذة من النسب ومن انتمى إلى الشرف وذهب. ويذكر المؤرخون أنه انتقد كثيراً من أنساب القبائل البربرية المتمية لآل البيت وذلك ما جر عليه محتته بإحراق الكثير من كتبه وتآليفه وضياع الكثير منها في حياته وبعد وفاته⁽⁹⁾.

ب2-التهجم على مناوئي دولة الجزائر العثمانية في عصره:

من خلال عناوين بعض المخطوطات نلاحظ أن أبا راس الناصري قد حدد موقفه من الحركات المناوئة للحكم العثماني في الجزائر، التي اشتد لهيبها في مطلع القرن التاسع عشر، في كامل القطر الجزائري ونخص بالذكر الحركة الدرقاوية المدعومة من تونس والمغرب الأقصى، فقد ألف:

- درء الشقاوة في حروب الترك مع درقاوة.

-المعالم الدالة على الفرق الضالة.

أ3-اهتمام الناصري بسياسة وسير الملوك والرؤساء:

ونعتقد أن مؤلفات الناصري في هذا المجال وما اكتنفها من فضح وكشف لعيوب بعض الحكام المسلمين دوراً في ضياع مخطوطاته، فقد كتب ما يلي:

-نباهة الغمر من أبناء العمر بأبناء ملوك ورؤساء ومن أحسن منهم ومن أساء.

يظهر أن هذا المخطوط يصب في التاريخ السياسي لبلدان معينة الأرجح أن تكون عربية، ونفترض أن الناصري قد حذا حذو الشيخ أحمد بن علي بن محمد بن علي بن محمود بن أحمد الحجار العسقلاني صاحب كتاب "أبناء الغمر في أبناء العمر". في ثلاث أجزاء، ويتناول التاريخ السياسي والثقافي لمصر والشام، والكتاب متوفر بالمكتبة الوطنية

الجزائرية رقم 1597، 1598، 1599، 1600.⁽¹⁰⁾

-كشف النقاب ورفع الحجاب. ويظهر أن الناصري قد كتب هذا الكتاب بناء على أمثال وحكم ومواعظ سطرها

الباش كاتب لدى بلاط الباي حسن بوهران السيد مسلم بن عبد القادر المشهور بكتاييه:

-أنيس الغريب والمسافر في طرائف الحكايات والنوادر والذي لم يعثر إلا على خاتمة التي حققت ونشرت

بعد الاستقلال.

-عقد الجواهر في مدائح أبي المرتضي حسين باشا ومحاسن الجزائر. وتوفي الرجل سنة 1248هـ/ 1832م.

-إسماع الأصم وشفاء السقم في الأمثال والحكم. وقد وضعه على كتاب صغير في الحكم والمواعظ والآداب والأمثال لصاحبه مسلم بن عبد القادر. أنهاه عام 1234هـ / 1819م، وهو الآن مخطوط بالمكتبة الملكية بالرباط مرقم بـ5553، في 44 ورقة من الحجم الصغير.⁽¹¹⁾

- ذيل القرطاس في ملوك بني وطاس.

-الزهرة الوردية في الملوك السعدية. وحصره زمانا من 918 إلى 1059هـ / 1512-1649م.

-الرياض المرضية في شرح "الغوثة". وقد تحدث الناصري مع مؤلف الغوثة واستفاد بما فيه الكفاية من شرحه لها.

-العز المتين في ذكر ملوك بني مرين.

-الزهرة السماوية في أخبار الملوك العلوية.

-تحفة النفس في ملوك فرنسا.

ج- التنبيه إلى تبعثر مؤلفات الناصري الباقية:

لاحظنا أن مخطوطات الناصري التي نجت من الضياع، لا تزال مبعثرة هنا وهناك ونسخ محدودة سواء في الجزائر أو في بلدان مجاورة، مما يجعل الباحث في تراث أبو راس حائرا ويستلزم منه مشقة وجهدا مضنيا ومتسعا من الوقت لجمعها، فقد نجدها مخطوطات تعد علي أصابع اليد الواحدة بالمكتبة الوطنية الجزائرية وبالمكتبة الوطنية الفرنسية وبالمكتبة الوطنية المغربية، ومخطوطات أخرى لا توجد إلا بخزانات العائلات مثل خزانة الشيخ المهدي البوعبدلي، ومكتبة عبد الرحمن الجيلالي وغيرهم من رجالات الفكر والثقافة في الجزائر المعاصرة.

3-وضعية تراث أبو راس الناصري في الوقت الحالي:

ما يشغل بال الباحثين الجزائريين في وقتنا الحالي ونحن في مطلع القرن الواحد والعشرين الميلادي، هو افتقارهم لقائمة المخطوطات الناجية من التلف والضياع للعلامة أبي راس الناصري، ويتطلب ذلك عملية تفتيش وبحث عن المخطوطات لمدة قد تطول أو تقصر- تحت إشراف مخابر أو وحدات بحث علمي في داخل الجزائر وخارجها. وما يزيد الباحثين مشقة أن عددا من المخطوطات موجودة بخزائن عائلية أو صدت معظمها أبوابها أمام أهل الاختصاص.

وبهذا الصدد يمكن لنا تعداد المخطوطات المحققة والمطبوعة أو المحققة فقط أو التي في طريق التحقيق حتى يتسنى للباحث أن يرصد المخطوطات التي تنتظر التحقيق، فينقب عنها إن كانت لا تزال موجودة. ونوردها كالاتي:

* الحلل السندسية فيما جرى بالعدوة الأندلسية . وحققته الباحثة المغربية سليمة بن معمر في إطار رسالة دكتوراه دولة .

* الشقائق النعمانية في شرح الروضة السلوانية . حققه الباحث الجزائري حمدادو بن عمر وهو مطبوع .
 * الدرة الأنيقة في شرح العقيدة . مخطوط محقق ومطبوع .
 * فتح الإله ومنتته في التحدث بفضل ربي ونعمته . حققه وطبعه الأستاذ محمد بن عبد الكريم الجزائري .
 * عجائب الأسفار ولطائف الأخبار . جزءان . حققه وطبعه الدكتور غلام محمد من جامعة وهران .
 * زهر الشمايخ في علم التاريخ . وهو في طريق التحقيق من طرف وحدة بحث بالمركز الوطني للبحث في الأنثروبولوجيا الاجتماعية والثقافية بهران .

* الكوكب الدري في الرد بالجدري . حققه الأستاذ بوكعب بلقرود بمعسكر سنة 2004 .
 وعليه نلاحظ أن تحقيق ونشر تراث أبو راس الناصري ما زال بطيئا وضئيلا وأغلبه لا يزال مخطوطا ، ونستغل المقام للإشارة إلى عدد المخطوطات التي علمنا أنها موجودة وهي تنتظر التحقيق :
 * الحاوي لنبد من التوحيد والتصوف والأولياء والفتاوي . توجد نسخة منه عند الدكتور بلبشير عمر بجامعة معسكر .

* الإصابة فيمن غزا المغرب من الصحابة . توجد نسخة منه بمدينة مكناس .
 * الحلل الحريية في شرح المقامات الحريية . وهو في جزءين ، وكلاهما مفهرسان بالمكتبة الوطنية الجزائرية ، الجزء الأول تحت رقم 1893 . والجزء الثاني تحت رقم 1894 .

* إسماع الأصم وشفاء السقم في الأمثال والحكم . مودع بالمكتبة الوطنية المغربية تحت رقم 5553 .
 * نبذة من تاريخ الجزائر . مودع بالمكتبة الوطنية الفرنسية ، مصلحة المخطوطات الشرقية ، ضمن مجموع تحت رقم 4614 عربي .

وفي ختام هذه الدراسة نود القول أنه لا بد للجهات الرسمية أن تقدم دعمها المالي والفني لأصحاب الخزائن العائلية والزوايا المنتشرة عبر ربوع القطر الجزائري قصد الحفاظ على مخطوطاتهم بشكل عام وصيانتها من التدهور مقابل فتح أبوابها للباحثين المتخصصين من أجل فهرستها وتحقيقها ونشرها ، وبدون شك سيكون لتراث أبي راس الناصري نصيب في ذلك ، كما نؤكد على ضرورة وتواصل الباحثين فيما بينهم ولعل المخابر والمراكز البحثية

أفضل جسر للتواصل والتعاون، ونحن نعلق آمالا على المركز الوطني للبحث في الانثروبولوجيا الاجتماعية والثقافية بوهرا الذي أخذ يهتم بالتراث الجزائري ذي الصلة بالسكان والمجتمع، وكذا مخبر مخطوطات الحضارة الإسلامية بشمال افريقيا بجامعة وهران.

الهوامش:

- (1) لعرج عبد العزيز، تقديم لأعمال الملتقى المغاربي الثالث للمخطوطات العلمية، منشورات مخبر البناء الحضاري للمغرب الأوسط، جامعة الجزائر، الطبعة الاولى، 2007، ص 05.
- (2) لم نعثر على الأسباب التي جعلت أسرة أبو راس الناصري ترتحل إلى المغرب الأقصى بعد وفاة الوالد.
- (3) الشيخ مرتضى الزبيدي: عاصر العلامة أبو راس الناصري، وهو من كبار علماء الأزهر، يكنى بأبي الفيض لفيض وغزارة علمه ومعرفته، ومن مآثره، شرحه للقاموس في أربعة عشر مجلدا وسماه تاج العروس. توفي سنة 1205هـ/ 1790-1791م.
- (4) أبوراس الناصري، فتح الإله ومته في التحدث بفضل ربي ونعمته. تحقيق وتعليق: محمد بن عبد الكريم الجزائري، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1990. ص ص 18-24.
- (5) السيوطي جلال الدين: أحد علماء مصر، عدد مؤلفاته في كتابه: حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة، فكانت نحو الثلاثمائة مؤلف، وأبو راس الناصري يأتي بعده في المرتبة الثانية بعدد يفوق المائة مؤلف.
- (6) اشتهر الداي محمد بن عثمان باشا طيلة حكمه 1766-1791 بصرامته في علاقاته مع الدول الأوربية والولايات المتحدة الأمريكية وبسياسته الإصلاحية التي عبرت بوضوح عن بوادر نهضة جزائرية، فشلت بوفاة الرجل.
- (7) الباي محمد الكبير: قاد حركة الإصلاح في حدود بايليك الغرب الجزائري إثر توليه الحكم بين 1779-1797 وكان تحرير وهران والمرسى الكبير سنة 1792 من الاحتلال الاسباني أكبر إنجازاته. ولمزيد من التفاصيل حول هذا الباي يمكنك مطالعة: بلبروات بن عتو.
- (8) الباي محمد الكبير ومشروعه الحضاري 1779-1797. رسالة ماجستير، جامعة وهران، 2002.
- (9) شمس معارف التكليف في أساء ما أنعم الله به علينا من التأليف: مخطوطة مودعة بالمكتبة الوطنية الجزائرية تحت رقم 4614. وأثيرت شكوك حول قائمة المؤلفات المثبتة في المخطوطة، ويظهر أنها ليست المخطوطة الأصلية بل هي منقولة بناء على بعض الدلائل التي تحتاج إلى تأكيد.
- (10) عبد الرحمن بن محمد الجيلالي. تاريخ الجزائر العام. ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1994، الجزء الثالث، ص 576.
- (11) عبد الحق زريوخ. أبو راس الناصري الجزائري ومؤلفاته، مقال منشور بالموقع الإلكتروني: www.el-awsat.com

Bibliothèque Nationale D'Algérie, 2 ème édition, 1995. p.443.

التواجد الإسباني في الغرب الجزائري خلال الفترتين العثمانية و الفرنسية

د. حياة قنون

جامعة سيدي بلعباس

لقد كانت منطقة الحوض المتوسطي محل صراع مستمر بين الدول المكونة له، أو تلك التي أرادت أن يكون لها دور فيه، وضمن هذا السياق تعتبر العلاقات الجزائرية- الإسبانية جزء من تلك اللعبة السارية المفعول في المنطقة. إن العلاقات الجزائرية الإسبانية قديمة العهد، والاكتشافات الأثرية أثبتت التفاعل الثقافي الذي عرفته المنطقتين في عصور ما قبل التاريخ وعبر التاريخ، والذي ترك أثارا مادية في كليتهم⁽¹⁾.

ومع الفتوحات الإسلامية للأندلس خلال القرن الثامن من الميلادي، ستتوطد العلاقات بشكل أكبر بين الجزائريين وسكان الأندلس، الذين كانوا يشكلون حلقة الوصل لإيصال حضارة العرب والمسلمين إلى الشاطئ الغربي للمتوسط، ويرجع لهم الفضل في تأسيس مدينة وهران سنة 903م⁽²⁾. المدينة التي سيصبح لها شأن عظيم في إدخال المنطقة في نوع جديد من العلاقات الجزائرية -إسبانية.

:

كانت الجزائر في نهاية القرن الخامس عشر تعيش على غرار دول المغرب الإسلامي حالة انحطاط سياسي وعسكري وتدهور اقتصادي نتيجة لانحيار الدولة الموحدية، في حين ظهرت إسبانيا كدولة قوية بعد توحيد مملكتي أراقون وقشتالة بزواج فرديناند و إيزابيلا . وإثر سقوط غرناطة آخر معقل للمسلمين في الجزيرة الإيبيرية سنة 1492م وما تبع ذلك من حملة اضطهاد ضد من بقي من المسلمين هناك، وحملهم على القبول بالنصرانية أو الطرد والهجرة الى بلاد المغرب، أثر ذلك على اقتصاد اسبانيا، لأن الأندلسيين كانوا دعامة الاقتصاد وخلايا العمل⁽³⁾.

ونتيجة لهذه الأوضاع، اندفعت اسبانيا نحو المحيطات واكتشاف العالم الجديد، كما وجهت أنظارها الى سواحل شمال إفريقيا (تنفيذا لوصية الملكة ايزابيلا)⁽⁴⁾، لتجعل الحوض الغربي من المتوسط بحرا إسبانيا، حيث كانت تنوي بإملاكها الساحل الجنوبي من إيطاليا وجزره (صقلية، سردينيا، كورسيكا) تشكيل وحدة اقتصادية قوامها الاتصال المباشر بين شمال المتوسط وجنوبه في الحوض الغربي منه. وعلى صعيد آخر، كانت الروح الدينية هي المحرك الأساسي للسياسة الإسبانية، حيث ساعدت الحرب مع المسلمين على تعميق الروح القومية التي تميزت بطابع التعصب الديني والتي تشكلت في صيغة العدوان الصليبي.

إن ضعف بلاد المغرب وحدوث صراع بين دوله وممالكه الدولة الحفصية بالمغرب الأدنى (تونس) ودولة بني عبد الواد الزيانية بالمغرب الأوسط (الجزائر) والدولة المرينية بالمغرب الأقصى، هيا للإسبان تدخلهم وشن حملات عسكرية شرسة ضده ، الا ان مقاومة أهالي المنطقة حد من التوغل الإسباني داخل البلاد وانحصر نشاطهم التوسعي في إحتلال السواحل الشمالية لبلدان المغرب خاصة منها الجزائر⁽⁵⁾ حيث إحتلت المرسى الكبير سنة 1505.

وبدافع من الكاردينال فرانيسكو خيمينيث ثيسنيروس francisco jimenez cisneros (1517-1436) والكنيسة التي دعمت المشروع، تمكن بيدرو نافرو Pedro Navarro من إحتلال وهران سنة 1509، وبجاية سنة 1510، واعترفت إمارة بني زيان للإسبان بهذا الإحتلال سنة 1512⁽⁶⁾ لما شكلوه من قوة على طول ساحل شمال إفريقيا بالإضافة إلى الخوف والرعب الذي غرسه الإسبان في نفوس السكان، نتيجة التخريب والوحشية التي اتسمت بها غاراتهم وهجماتهم.

إن النشاط العسكري لإسبانيا والنجاحات المتتالية لقواتهم لم يدم طويلا، لأن التهديد الإسباني دفع بأهل مدينة الجزائر إلى الاستنجاد بالإخوة باربروس⁽⁷⁾ عروج وخير الدين اللذان خاضا معارك طاحنة ضد الإسبان أحرزا فيها على انتصارات عديدة، خاصة بعد حصولهما على الحماية والمساعدة من السلطان العثماني سليم الأول (1512 - 1520) واعتبار الجزائر إيالة عثمانية، أدى ذلك إلى كبت جهود الإسبان وانحصارهم فقط في مدينة وهران والمرسى الكبير قرابة الثلاثة قرون.

كانت قضية تحرير وهران والمرسى الكبير من الاهتمامات الكبرى للجزائر وأصبحت الشغل الشاغل للسكان والدولة معا، ولم تتوقف جهود الأتراك العثمانيين في استرجاع المنطقة، حتى جاء الرد الفعلي على يد الداوي محمد بكداش باشا (1707 - 1710) ومصطفى بوشلاغم (1708 - 1732) بفرض حصار على المدينة وتحريرها من الغزاة سنة 1708⁽⁸⁾ في فترة كانت تعيش فيها إسبانيا حربا أهلية متمثلة في حق الخلافة على العرش، واعتبرت إسبانيا ذلك الضياع انهزاما لها ولبحريتها وهزيمة للمسيحية أيضا⁽⁹⁾ لأنها كانت آخر وأهم معاقل اكتسبها الإسبان في حروبهم ضد المسلمين.

ومنذ 1732 تجددت محاولات الإسبان لإحتلال المنطقة من جديد بقيادة الكونت دي مونتمار De montemar ورغم محاولات الباي مصطفى بوشلاغم لردع الخطر إلا أن المدينة سقطت من جديد في أيدي المحتلين الإسبان. وفي عهد الداوي محمد عثمان باشا (1766-1791) إشتدت غارات القراصنة الأوربيين بصفة مكثفة إستهدفت تحطيم مدينة الجزائر، إلا أنه تمكن من القضاء عليها بعدما عمل على تقوية الأسطول البحري الجزائري وتدعيمه بالرجال والأسلحة والمراكب الجديدة⁽¹⁰⁾.

ومن الحملات التي واجهها الداوي محمد عثمان باشا حملة الدانمارك عام 1770 من أجل قبلة مدينة الجزائر، إلا أنها باءت بالفشل واضطرت الدانمارك في الأخير قبول شروط الجزائر. اما عن إسبانيا فقد إستمرت في عملياتها العسكرية ضد الجزائر، وذلك بعدما رفض الداوي التفاوض مع إسبانيا وإبرام أي صلح معها ما بقيت تحتل وهران والمرسى الكبير ورفض كل مساومة من شأنها التنازل عن المنطقة، لذلك عزمت إسبانيا على استعمال القوة من جديد، فعهد الملك الإسباني شارل الثالث (1759-1788) الى الكونت أوريلي Oreilly قيادة حملة ضد الجزائر سنة 1775 لقذف مدينة الجزائر، إلا أن سكان الجزائر واجهوا الحملة بكل عزم وقوة وباءت بالفشل الذريع⁽¹¹⁾ وخلفت خسائر مادية وبشرية معتبرة واعتبرت نكبة في حق الإسبان.

وخلال سنوات 1783 و 1784 خاض الإسبان مجددا حملتين لقبلة مدينة الجزائر، عرفتا بحملة دون أنطونيو de Antonio Barcelo الأولى والثانية⁽¹²⁾ لكنه عجز عن النيل من حصونها وقوة دفاعها وتصدي الرياس له وأضطر الى الانسحاب وباءت حملته بالفشل أيضا، وعليه قررت اسبانيا الكف عن الأسلوب العسكري والعودة الى أسلوب الحوار والتفاوض. يعتبر النصف الثاني من القرن الثامن عشر مرحلة حاسمة في تاريخ العلاقات الإسبانية- الإسلامية حيث قررت إسبانيا لظروف اقتصادية وسياسية، اتخاذ سلسلة من المفاوضات مع العالم الإسلامي⁽¹³⁾ أدت الى إمضاء مجموعة من إتفاقيات سلام وضعت حدا لقرنين ونصف من التوتر والصراع، فأنسأقت الجزائر في نفس المسار وأبرمت أول صلح سجلته العلاقات الدبلوماسية الجزائرية-الإسبانية وذلك سنة 1785⁽¹⁴⁾.

ففي جوان 1785 وصل الى الجزائر المندوبان الرسميان الإسبانيان للتفاوض مع الداوي العثماني، وهما الكونت دي اكسبيلي El conte dexpilly والأميرال خوسي دي ماثريد و José de mazarredo وساعدهم في المهمة القنصل الفرنسي دي كرسى De kercy ، وقد طالت المفاوضات بينهم وشملت عدة رسائل في الموضوع

الى غاية 14 جوان 1786 اين أمضى الداى محمد عثمان باشا شروط الصلح بصفة رسمية تتالف من 25 بنداً⁽¹⁵⁾ كما وقعه الملك الإسباني شارل الثالث في 14 أوت 1786 ونص أن يحتفظ كل من الداى والملك الإسباني وقنصل إسبانيا بالجزائر دي لاس إيراس de las heras بنسخة لديه يستند عليها لعلاج المشاكل. وأهم المواضيع التي تضمنه اتفاق الصلح (القرصنة، التجارة، قضية وهران والمرسى الكبير، الأسرى، الضرائب...) ⁽¹⁶⁾. ولقد كشف التطبيق الفعلي لنص الاتفاق عن الاختلاف بين النصين التركي و الإسباني نتيجة الترجمة لأهم بنود الاتفاق كمسألة التجارة وقضية وهران⁽¹⁷⁾. ما شكل عائقا في مسار السلم بين البلدين في مرحلتها وعلاقتها الدبلوماسية والسياسية الأولى (1785-1791).

وهكذا، وفي ظل فشل اتفاقية 1785-1786 دام الاحتلال الإسباني لوهران والمرسى الكبير، في حين واصل الجزائريون جهادهم ضد الإسبان حتى تم التحرير النهائي للمنطقة واسترجاعها على يد الباى محمد بن عثمان باشا سنة 1791 وبعودة وهران إلى الخطيرة الوطنية عقد الداى الجديد حسن باشا (1791-1798) صلحا مع اسبانيا تجسد في معاهدة 09 ديسمبر 1791⁽¹⁸⁾، التي أقرت الجلاء الإسباني عن وهران والمرسى الكبير مع إعطاء للإسبان بعض الامتيازات التجارية. وهكذا يعد صلح 1791 نقطة تحول كبيرة في مسار العلاقات الجزائرية-الإسبانية الذي أنهى بدوره صفحة من صفحات العدوان الصليبي الإسباني بعد حرب دامت قرابة الثلاثة قرون. وتعتبر الفترة الممتدة من 1792 الى 1830 فترة حاسمة في تاريخ العلاقات بين الدولتين⁽¹⁹⁾ لاسيما منها العلاقات التجارية التي أوجدتها معاهدة 1791. وستستمر هذه العلاقات حتى بعد 1830، ولكن في ظل معطيات جديدة وهي الإحتلال الفرنسي للجزائر.

الاستيطان الإسباني لوهران وضواحيها أثناء الاحتلال الفرنسي :

إن التواجد الإسباني بالجزائر أثناء الإحتلال الفرنسي للجزائر يدخل في إطار سياسة الإستيطان التي كان مفادها تدعيم التواجد الفرنسي وتطبيق سياسة الأمر الواقع، كما اعتبرت المنطقة الوهرانية محطة استقطاب عناصر أوروبية مختلفة وقد شكل فيها الإسبان العنصر الغالب للوافدين الجدد، وذلك لمعرفتهم بالمنطقة وأهلها، وعلاقتهم التاريخية القديمة بها، والقرب الجغرافي، وامكانية التكيف مع المناخ، زيادة على الأوضاع التي كان يعيشها الفرد الإسباني خلال التاسع عشر. ان البحث في أسباب الهجرة الإسبانية الى الجزائر يتطلب العودة الى دراسة الأوضاع التي كانت تعيشها إسبانيا خلال نفس الفترة، وهذا قصد فهم أدق لكيفية تيار الهجرة الإسبانية.

فإسبانيا خلال القرن التاسع عشر كانت لا تزال تعيش آثار حرب الاستقلال⁽²⁰⁾، بالإضافة إلى تطورات سياسية أخرى عرفت فيها إسبانيا خلال نفس الفترة، كالحروب التي أطاحت بالجمهورية الإسبانية الأولى سنة 1873، وتوج ذلك بالحروب الخارجية كالأزمة الكوبية التي أسفرت عن خوضها حربا مع الولايات المتحدة الأمريكية سنة 1898، وهو النزاع الذي أفقدها آخر مستعمراتها في كوبا Cuba والفلبين Filipinas وبورتوريكو Puerto Rico⁽²¹⁾.

إلى جانب الأوضاع السياسية غير المستقرة، كانت إسبانيا تعيش ظروف اقتصادية واجتماعية مزرية، فمن الناحية الاجتماعية عرفت إسبانيا نموا ديمغرافيا سريعا⁽²²⁾. وقد أثر هذا التزايد السكاني على الدولة التي أصبحت تعاني من الإختلال في التوازن بين الكثافة السكانية وانعدام القدرة على تلبية حاجات المجتمع الضرورية، فلم يعد هناك مناصب شغل، وارتفع من جراء ذلك عدد البطالين.

وفي سياق ذلك، كانت إسبانيا تعيش الأمراض والأوبئة التي أدت بحياة الكثير من السكان⁽²³⁾ ورغم التطور السكاني السريع الذي كان بإمكانه القيام بتعويض الوفيات إلا أن الأوضاع المزرية والأمراض والأوبئة التي كانت تعيشها إسبانيا، كانت أكثر مما يمكن للبلد تحمله للحفاظ على توازنه الديمغرافي. تلك هي إذن باختصار الظروف التي دفعت بالإسبان للهجرة إلى الجزائر بهدف إيجاد حياة أفضل نظرا لكون أولئك المهاجرين كانوا ينتمون إلى فئة العمال العاطلين والفلاحين المتشردين واللاجئين السياسيين.

عرفت الهجرة الإسبانية إلى الجزائر تطورا خلال فترة الاحتلال الفرنسي، فبدايتها كانت عبارة عن هجرة لبعض التجارب الفردية التي استجابت للسياسة الفرنسية متجهة إلى المناطق الوسطى باعتبارها عاصمة المستعمرة لتتوجه فيما بعد إلى المناطق الغربية، وكان الدافع لتلك الهجرة كما سبق الذكر، الأوضاع المضطربة التي كانت تعيشها إسبانيا سياسيا واقتصاديا واجتماعيا وقد شملت مجموعة من المغامرين والفقراء والبؤساء وحتى اللاجئين السياسيين. ثمة صعوبات أحيطت بالتواجد الفرنسي في الغرب الجزائري، وجدت حلها في الهجرة الإسبانية تلك الهجرة التي تواصلت وتنوعت مشاربها وتعددت أسبابها والتي مدت كل القطاعات بحشود جديدة من الوافدين عززت التواجد الفرنسي من جهة، ومكنت الإسبان من تحسين وضعهم وهيمتهم على قطاعات ونشاطات مختلفة وذلك على حساب أهل المنطقة الشرعيين الذين حرموا من حقوقهم المشروعة.

لقد كانت لهم الصدارة في الزراعة، حيث أرتبط الإسبان منذ الوهلة الأولى بالأرض واستصلاحها وفلاحتها وشكلوا يدا عاملة عوضت فشل الفرنسيين في هذا السياق⁽²⁵⁾، وبالرغم من أن رغبة السلطات الفرنسية كانت تجنح

الى توطين مهاجرين من شمال أوروبا إلا أن فشلها في ذلك اضطرها إلى التعويل على الإسبان؛ الذين جاؤوا بجهدهم العضلي وبأشروا في خدمة الأرض واستصلاحها؛ فتطور وضعهم المهني والاجتماعي وتمكنوا من الحصول على ملكيات في مختلف مناطق الغرب الجزائري، واشتهروا بزراعات ألفوها في موطنهم الأصلي وأدخلوا طرق وأساليب زراعية ساهمت في تطور القطاع الزراعي⁽²⁶⁾. ولعل السبب الأول لهذا الرقي يعود إلى المستعمر الفرنسي نفسه، ففي ظل سياسة الاستيطان قامت السلطات الفرنسية بتشجيع الهجرة وإنشاء المراكز الاستيطانية وتوطينها بالمهاجرين الأوربيين، كما عملت على جلب المياه وتوفير الأمن من أجل استقرار هؤلاء المهاجرين، وأوجدت القوانين التي جردت الجزائريين من حقهم في أرض أجدادهم وأعلنت نظام التنازل المجاني ونظام البيع بأشكاله المختلفة، كل ذلك بهدف انجاح عملية الاستيطان.

ونظرا للأهمية التي شكلها امتهان الإسبان فلاحه الأرض، فقد عملوا كمستصلحين ومزارعين وعمال ومؤجرين وأخيرا مالكين، دون إغفال أولئك الذين استفادوا من عملية التنازل المجاني "المستفيدين" في السنوات الأولى من الاحتلال. لقد عمل الإسبان في استصلاح الأراضي وتهيئتها للزراعة، كما عمل أيضا في استغلال الحلفاء، لاسيما بعدما تطور استعمال هذه المادة نحو صناعة الورق⁽²⁷⁾ إلى جانب ذلك، عمل الإسبان في حقول الزيتون والعنب ومزارع الحبوب والذرى، ووجدوا أيضا في حقول الكروم أو الزراعات التي تحتاج إلى العمل اليدوي. وتخصصوا في الزراعات المبكرة والصبخية والفلاحة الشجرية⁽²⁸⁾.

إلى جانب الزراعة، ارتقوا في بعض الحرف والصناعات كما كان لهم دور في مجال الصيد البحري، كصيد الأسماك والمرجان كما مارسوا التجارة وعملوا كبقالين وسراجين وجزارين وبائعي الخضار والفواكه، كما كانوا أصحاب محلات تجارية وحانات ودكاكين أيضا. إلى جانب ذلك عملوا في الأشغال الكبرى، كإنجاز الطرقات وبناء الجسور والمباني والسكك الحديدية.

ومن الصناعات الإسبانية نسج الحلفاء، لصناعة الحصائر المنسوجة والحبال والسلال، و حسب باستيد Bastide كان في سيدي بلعباس سنة 1880 أربع ورشات لنسج الحلفاء، تشغل 20 عاملا في صناعة السلال والحصائر والأحذية المصنوعة بالحلفاء، إلى جانب الحبال التي تستعمل في المجال الزراعي⁽²⁹⁾.

أما لوران Lorin فقد تحدث عن رواج صناعة النعال الاسبانية في المنطقة سنة 1908، حيث يقول " في سنة 1908 ، هيمنت صناعة النعال في منطقة الغرب الجزائري حيث نجد في أغلب مدنها ورشات لصناعة النعال الإسبانية وهي أغلبها ورشات عائلية"⁽³⁰⁾.

وإلى جانب ذلك، إختص الإسبان بصناعة التبغ ومشروب الأنسون، وقد استأثر الإسبان بصناعة التبغ إنتاجا وتسويقا، حيث كان مصنع باستوس Bastos بوهراش يشغل من 600 إلى 700 عاملا، كلهم من الإسبان⁽³¹⁾. إن هذا الإهتمام بصناعة التبغ سيسمح لهم بتأسيس مصانع جديدة خاصة بهم ، وذلك مع مطلع القرن العشرين. ومن الورشات الإسبانية، نذكر ورشة النجارة كون زالفاز conzalez التي تأسست سنة 1886⁽³²⁾ و مؤسسة ماس أنطوان Mas Antoine التي تأسست سنة 1880 الخاصة بصناعة ملابس السهرات والحفلات⁽³³⁾ ومؤسسة مارتينات Martinez الخاصة بصناعة الحديد والصلب، ومعمل النسيج فارسيا وشركائه Garcia⁽³⁴⁾ . وهي من المؤسسات التي تأسست في بداية القرن العشرين⁽³⁴⁾.

أما من الناحية السياسية، فإن مشاركة الإسبان في المجال السياسي كانت محتشمة في البداية، حيث تمكنت بعض الشخصيات الأسبانية من الانضمام إلى كتلة الأجانب في الانتخابات البلدية، وبعد قانون 1889 الذي سمح بدوره للإسبان الدخول في صفوف الفرنسيين والهيئة الانتخابية الفرنسية استطاع الإسبان أن يقتحموا المجال السياسي والمشاركة في الانتخابات المحلية بل والهيمنة على المجالس البلدية منذ ذلك الحين⁽³⁵⁾.

تمكن الإسبان من الناحية العددية أن يتحولوا إلى العنصر الغالب ضمن تعداد الأوروبيين القاطنين في منطقة الغرب الجزائري. مما حوّل لهم مكانة المجتمع داخل المجتمع الاستعماري، فاحتفظوا بعاداتهم وتقاليدهم وثقافتهم ولغتهم واستطاعوا أن يؤثروا بذلك على غيرهم من الأوروبيين وحتى على أهالي المنطقة . وذلك التفوق العددي أزعج السلطات الاستعمارية وجعلها تفكر في كبت التكاثر في صفوف الإسبان وغيرهم من الأجانب حتى لا يتحولوا إلى فئة ذات نفوذ وسيطرة في المستقبل، ولقد حاولت فرنسا عن طريق شتى قوانين التجنيس لاسيما قانون 1889، إدماجهم في المجتمع الفرنسي، كما لعبت المدرسة الفرنسية والجيش الفرنسي دورهما في هذا الاتجاه.

وفي الختام ، لقد عانت وهران من الاحتلال الإسباني قرابة الثلاثة القرون، ورغم تحرير وهران النهائي عام 1791، إلا أن الأسبان عادوا إليها من جديد واستوطنوها وذلك في ظل معطيات جديدة وهي الاحتلال

الفرنسي للجزائر، هذا الأخير الذي منح للإسبان فرصة إحياء ذلك التواجد القديم في المنطقة. وذلك عن طريق الهجرة نحو الجزائر عموما والغرب الجزائري على وجه الخصوص.

ولا زالت آثار الإسبان إلى يومنا راسخة في المدينة القديمة وهي مدينة حي سيدي الهواري العتيق، هذا الحي الغني بمعالمه الأثرية المتمثلة في القصور والأبراج والحصون و الأبواب والبيوت والمساجد والمنارات والساحات وغيرها، والتي تعود إلى فترات مختلفة من تاريخ المنطقة، والتي أعطت لهذا الحي أهميته التاريخية والمعمارية.

ومن المعالم الإسبانية الشاهدة على فترة الاحتلال الإسباني نذكر باب إسبانيا Puerta de espana وباب كانستال Puerta de Canastel وحصن سانتا كروز Santa Cruz، وساحة إسبانيا La plaza de espana وغيرها، بالإضافة إلى أحياء تعود إلى نفس الفترة مثل حي la blanca و la calere و la marine، وهي نفس الأحياء التي تركز فيها الأسبان أثناء استيطانهم لوهران إبان الاحتلال الفرنسي على الأقل إلى غاية 1880، حيث أخذ عددهم فيما بعد ينقص في تلك المدينة القديمة لصالح المدينة الحديثة الفرنسية أو الضواحي. ومن المعالم الإسبانية الأخرى التي تعود إلى فترة الاحتلال الفرنسي نذكر ساحة الكميل Les arènes d'Eckmuhl التي كان يمارس فيها الإسبان مصارعة الثيران للترويج عن أنفسهم.

إن هذه الآثار والمعالم شاهدة على فترة من فترات تاريخ هوان، وهي تعبر عن مخلفات الوجود الإسباني في المنطقة عبر مراحل تاريخية مختلفة سواء كانت إبان الاحتلال الإسباني أو أثناء الاحتلال الفرنسي واستيطان الإسبان بها.

الإحالات:

⁽¹⁾ Mikel de Epalsa et Juan BTA vilar, plans et cartes hispaniques de l'algerie XVIII^{ème} siècle (madrid :institutito hispano- arabe de cultura-1988) p 72.

للمزيد أنظر أيضا:

G. willemot, Reconnaissances aux échelles puniques d'Oranie (Autun Musée Rolin, 1965) PP 3180330.

بقول البكري: اتفق على بنائها محمد أبي عوف ومحمد بن عبدون وجماعة من البحارة الأندلسيين البحريين الذين ينتجعون مرسى وهران مع نفزة وبني مسقن- فبنوها سنة تسعين ومائتين. ويقول الحافظ أبو راس في نفيسة الجمان ويقال لها أيضا الحلل

السندسية:

بنتها مغراوة بإذن موالئهم الأمويين أمراء الأندلس ثالث قرن خزر منهم قد أسسها وملكهم في غاية الغزو والشمس.

⁽²⁾ أنظر: محمد بن يوسف الزياتي، دليل الجيران وأنيس السهران في أخبار مدينة وهران، تقديم وتعليق المهدي البوعبدلي

(الجزائر: الشركة الوطنية للنشر والتوزيع) ص 32.

⁽³⁾ محمد زكي "تاريخ الندلس السياسي (92-897هـ/711-1492م" الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس (مركز دراسات الوحدة العربية ج 1 ص 137).

⁽⁴⁾ كانت وصية الملكة إيزابيلا لخليفتها هي توسيع السيطرة الإسبانية حتى تشمل جميع شمال إفريقيا من مضيق جبل طارق الى طرابلس.

⁽⁵⁾ لقد شملت تلك الإعتداءات المتكررة بلاد المغرب الساحلية من طانجة غربا الى طرابلس شرقا، وذلك وفق سياسة إستعمارية مدروسة.

⁽⁶⁾ camille kehl,Oran et l'Oranie avant l'occupation Française (Oran :L. Fouque 1942) p25.

⁽⁷⁾ اطلق النصارى لقب باربروسة أي ذي اللحية الشقراء على الإخوة عروج وخير الدين. عمل الإخوة باربروسة باسم الجهاد البحري على انقاذ المسلمين المضطهدين في الأندلس وافتكاك بعض الموانئ المغربية التي سقطت في قبضة الإسبان وقد شاع خبر الأتراك العثمانيين في البحر المتوسط ابتداء من القرن السادس عشر.

⁽⁸⁾ إن أهم من كتبوا عن تحرير وهران الأول نذكر : محمد بن ميمون التحفة المرضية في الدولة البكداشية في بلاد الجزائر المحمية تحقيق محمد بن عبد الكريم الجزائري، وشرح أرجوزت الخلفاوي، لعبد الله الجامعي التلمساني.

⁽⁹⁾ جون ب. وولف. الجزائر وأوربا (1501-1830) ترجمة وتعليق أبو القاسم سعد الله (الجزائر: المؤسسة الوطنية للكتاب 1986) ص 400.

⁽¹⁰⁾ برز في عهده عدد من الرياس و القباطنة البحرين حازوا شهرة عالمية أمثال: الرياس حميدو الرياس الحاج محمد، الرياس الحاج سليمان وحسب رواية الزهار فإن الرياس الحاج محمد اسر خلال غزواته البحرية حوالي 24 ألف رجل للمزيد عن عهد

الداي محمد عثمان باشا ونشاط البحرية الجزائرية. ينظر: مذكرات أحمد الشريف الزهار، تحقيق ونشر أحمد توفيق المدني (الجزائر: الشركة الوطنية للنشر والتوزيع 1974).

Devoulx "la marine de régence d'Alger" R.A 1868 pp 384.420

Belhamissi moulay, histoire de la marine Algérienne 1516-1830 (Alger, 1983).

-Grammont (H.D) histoire d'Alger sous la domination turque 1515-1830 (Paris : E Leroux 1887).

⁽¹¹⁾ ch. Feraud, "les trois attaques des Espagnols contre Alger au 18^{ème} siècle" RA 1876 pp 300-319.

⁽¹²⁾ lespes, "Oran ville et port avant l'occupation française "1831" RA 1934. P51.

⁽¹³⁾ ميكال دي إيبالزا "تقرير حول العلاقات الإسبانية - المغربية" المجلة المغربية (تونس عدد 14 جويلية 1975) ص 92.

⁽¹⁴⁾ يحيى بوعزيز المراسلات الجزائرية الإسبانية في أرشيف التاريخ الوطني لمدريد (1780-1798) (الجزائر ديوان المطبوعات الجامعية 1993) ص 90.

⁽¹⁵⁾ نفسه ص ص 42 - 43.

⁽¹⁶⁾ Ismet terki Hassaine "Nouvelles considération sur la signature du traité de paix Algero- Espagnol de 1786" cahier Maghrébin d'histoire (N°6, 1990) p100.

⁽¹⁷⁾ لقد أشار تركي حسين، عن الاختلاف الوارد بين النصين التركي والإسباني

أنظر :

Ismet TH, Relaciones Argelino- Espanoles bajo el gobierno del dey Mohamed ben Otman pacha (1766-1791) Oran 1987.

⁽¹⁸⁾ ان نص المعاهدة نجدها بالعربية عند.

أحمد توفيق المدني، حرب الثلاثمئة سنة بين الجزائر وإسبانيا (1492- 1792) (الجزائر المؤسسة الوطنية للكتاب ط 3 1984).

بالفرنسية عند

Fey, histoire d'Oran avant pendant et après la domination espagnole (Oran : Perrier 1858).

بالإسبانية عند

Francisco zavalá, la Bandera Español en Argelia (Argel : gojosso 1886 T3)

⁽¹⁹⁾ بخصوص العلاقات بين الجزائر وإسبانيا بعد 1791 أنظر:

Kheira Araf las relaciones Argelino-Espanoles durante el reinado del Hassan Bacha(1791-1798) (Université d'Oran Ile 1989)

Louis cara de aguila, les Espagnoles en Afrique les relations politiques et commerciales avec la régence d'Alger de 1786 à 1830(Université de bordeaux 1974).

⁽²⁰⁾ pierre Vilar, historia de España (Barcelona : critica SD) pp 85-86.

⁽²¹⁾ T Yacine, la communauté espagnole en Algérie à la veille du XX siècle'' (Paris : l'harmattan, 1985) p 59.

⁽²²⁾ pierre Vilar, op cit p 96.

لقد قدر ندال J Nadal عدد الإسبان خلال سنة 1797 بـ 10,5 مليون نسمة ليرتفع هذا العدد الى 15,6 مليون نسمة خلال

سنة 1860 وهنا نلمس الاختلاف في الإحصائيات للمزيد أنظر:

j. Nadal oller, la poblacion espagnola siglos (XVI alXX) (Barcelona :Ariel 1976, 2 ed).

⁽²³⁾ j. jordi les Espagnols en Oranie 1830-1914 (Mont pellier : Africa Nostra 1986/p68

⁽²⁴⁾ للمزيد عن أسباب الهجرة الإسبانية الى الجزائر أنظر:

حياة قنوناً دور ومكانة الإسبان في ترسيخ الاستعمار الفرنسي في الغرب الجزائري (1831-1900) رسالة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ الحديث والمعاصر (السنة الجامعية 2002-2003).

⁽²⁵⁾ Robert tinthoin, colonisation et évolution des genres de vie dans la région ouest d'Oran de 1830 à 1885 (Oran : L. Fouque 1947) p 295.

⁽²⁶⁾ Guy thurin, le role agricole des espagnoles en Oranie (lyon : box frères ML, Ricoux 1937) p 147.

⁽²⁷⁾ Jordi op cit p 104.

⁽²⁸⁾ louis de baudicour, la colonisation de l'Algérie (ses éléments (paris 1856) p 172.

⁽²⁹⁾ L. Bastide , sidi bel abbés et son arrondissement (Oran : perrier 1880). P 431.

⁽³⁰⁾ lorin , L'évolution sociale des Espagnols en Oranie in jordi, op cit p 431.

⁽³¹⁾ jordi, op cit p 254.

⁽³²⁾ le livre d'or de l'oranie (édition de l'Afrique du Nord illustré, Aout 1925). P158.

⁽³³⁾ Idib P159.

⁽³⁴⁾ Idib p 222-242.

⁽³⁵⁾ للمزيد عن نشاط الإسبان السياسي أنظر: قنون حياة، المرجع السابق ص 127-138.

انتفاضات القبائل ضد مظالم البايات العثمانيين في منطقة غليزان

العربي سعيدي
المركز الجامعي - غليزان

بعد سقوط غرناطة سنة 1492 م بدأ الخطر الإسباني يهدد الجزائر منذ سنة 1503 م. وقد إستغل الغزاة صراع الأخوين: "أبو زيان الثالث المسعود" و "أبن حمو الثالث بوقلمون" على العرش بتلمسان، فاحتلوا عام 1505 م المرسى الكبير ثم وهران سنة 1509 م، ومستغانم في 1511 م، وكانت المدينتان تابعتين للدولة الزيانية⁽¹⁾. وفي هذه الظروف المتميزة بضعف حكام بني زيان، وتعاون بعضهم مع الإسبان للبقاء في الحكم، إتصل أعيان الإمارات الصغيرة بالإخوة بربروس لمواجهة الصليبيين، ومنهم: "الشيخ أحمد بن القاضي الزواوي" صاحب جبل كوكو بمنطقة القبائل أو "سالم التومي" شيخ قبيلة الثعالبة في مدينة الجزائر، و"حميدة العبد"⁽²⁾ شيخ قبيلة سويد (المحال) الهلالية في تنس و سهل مينا (غليزان) حاليا. كان "حميدة العبد، من المرحيين بالإخوة بربروس لمحاربة الإسبان، ولكنه كان غيورا على سلطته في إمارة "سويد" الممتدة من تنس مرورا بغليزان إلى غاية مستغانم⁽⁴⁾.

1- عدم الإنسجام مع حكم الأتراك :

ثار "حميدة العبد" منذ سنة 1517 م ضد "عروج" بمعية حملة قوامها عشرة آلاف فارس من قبيلة سويد (المحال)، لكن "عروج" باغته في منطقته و إنتصر عليه بسهل الشلف في جويلية 1517 م وأخذ منه المناطق الممتدة بتنس و غليزان و مستغانم.⁽⁵⁾ وبعد المفاوضات الطويلة أعاد له "خير الدين" مدينة تنس، أين إسترجع "حميدة العبد" مكانته بين قومه، وظل متعاوناً مع العثمانيين في مقاومة الإسبان، وفي الحملة على مدينة تلمسان التي كان يقودها "حسن آغا" سنة 1543 م، أسهم "حميدة العبد" بألفي فارس⁽⁶⁾، وبعد وفاته سنة 1545 م، أصبحت المنطقة ضمن بايليك الغرب منذ سنة 1565 م، وقاعدته مازونة⁽⁷⁾.

2- قبيلتي سويد وفليانة في مواجهة البايات :

واصلت قبيلة "سويد" (المحال) حربها ضد مظالم حكام بايات وهران، ثورة "المحال" في منطقة غليزان

و ضواحيها سنة 1743 م، التي تزامنت بتولي الباي "مصطفى قائد الذهب" حكم الإيالة الغربية كما تسببت في إقالته فيما بعد⁽⁸⁾.

ولما تولى صهره "عصمان بن براهيم" حكم الإيالة سنة 1747 م، إستفز قبيلة سويد، و إنتقم منهم و أجلاهم إلى تلمسان ثم إلى وهران، و بعد ذلك أرجع من بقي منهم إلى موطنهم، بين مينا و الشلف، بعد ما حصل الصلح بينهم و بين الباي عصمان⁽⁹⁾. و أرجعت المصادر المعاصرة أسباب إنتفاضة قبيلة سويد علي الباي إلى:

"الصراع حول الأراضي الخصبة في سهل الشلف و حوض مينا الممتد من أراضي وادي الجمعة إلى وادي أرهيو جنوبي منطقة غليزان، حيث كانت جل بطون المحال مستقرة قبل أن يحاربهم بايات وهران"⁽¹⁰⁾.

ومن جهتها قبيلة "فليتة"⁽¹¹⁾ لم تكن راضية عن نظام الباي "محمد بن عثمان" القائم على التمييز ما بين القبائل و تقسيمها إلى رعية و مخزنية، فثارت فليتة عام 1769 م، على النظام الضريبي غير العادل، و الذي كان يلزم القبائل الرعية بتقديم رسوم الزكاة و العشور، إلى جانب الضرائب الإضافية كالغرامة، و المعونة، و اللزمة⁽¹²⁾.

في حين كانت القبائل المخزنية دون بقية السكان تستفيد من الإعفاء من الضرائب الإضافية، كما تستفيد من منافع و مزايا كثيرة⁽¹³⁾. و هذا النظام التمييزي الذي سمح لبعض حكام الأتراك المتكالبين على جمع الثروات، تسبب في إتلاف موارد القبائل الرعية و دفعهم إلى الثورات و الإنتفاضات، منها قبائل الحشم و فليتة⁽¹⁴⁾. و قد واجه الباي "محمد الكبير" (1780-1797) موقف القبائل الرعية، بالقمع للمحافظة على إستقرار بابليك الغرب، و واصل على دربه بايات آخرون⁽¹⁵⁾.

:

إندلعت ثورة "عبد القادر الشريف الدرقاوي" الفلتي، سنة 1802 م، و دامت حوالي عشر سنوات، على مظالم البايات الأتراك، إعتبرها بعض الكتاب "فتنة عم فيها الخوف و الجوع و كادت أن تقضي على حكم البايات و نظام الأتراك عامة"⁽¹⁶⁾.

كما تزامنت و تعيين المسمى "مصطفى العجمي" بايا على وهران ، و الذي لم يكن على إطلاع بأنحاء بايليك الغرب ، و تمثلت ميزته في نهب الشعب ، لذلك وجه الشريف الدرقاوي نداءه إلى قبائل الرعية قائلاً لها : "أنا نزعتم عنكم ما كنتم فيه من أداء الجزية ... وقطعت دابر الاتراك و أتباعهم ، فالواجب مبايعتنا و الجهاد معنا" (17). و إنضم إلى انتفاضته معظم سكان المناطق الريفية ، ومنهم في غليزان و جديوية و وادي أرهيو (18).

وتعد معركة فرطاسة التي جرت سنة 1805 م، من أهم المعارك التي إنتصر فيها أتباع الدرقاوي على "مصطفى العجمي" باي وهران ، مما تسبب في إقالته من منصبه ، وتعيين "محمد المقلش" سنة 1805 م (19)، الذي أقبل بجيش كبير و اتجه به على بعد 15 كيلومتر غربي غليزان نحو زاوية الولي سيدي أحمد بن عودة حيث كان الثائر الدرقاوي مستقراً بها ، و لم ينج من القتل في هذه المعركة إلا من لجأ إلى ضريح سيدي أحمد بن عودة (20).

و لما أعيد الباي "مصطفى العجمي" مرة ثانية إلى الحكم سنة 1807 م، حارب ثوار درقاوة في موقعتين : الأولى سميت بمعركة يوم الثعالب ، و الثانية بمعركة مدغوسة التابعتين لقبيلة فليتة و هي من أراضي فرطاسة على الحدود بين معسكر و غليزان (21).

في سنة 1808 م حاربهم مجددا الباي "محمد بن عثمان" بوكابوس، وقضى عليهم في مواضع كثيرة ، وبعد مقتل بوكابوس سنة 1813 م، واصل الباي "قارة بغلي" الحرب ضد درقاوة بناحية مازونة ، و إلتحق الثائر "محمد بن الأحرش" بثورة الدرقاوي وخاض معه معركة جديوية 1816 م (22).

:

أقدم جيش الباي "حسن بن موسى الباهي" سنة 1829 م على مهاجمة زاوية الشيخ "إبن قندوز القداري" بتحمدة (بالمطمر) من أراضي غليزان ، و كان من بين طلبه هذه الزاوية أبناء فليتة، و أرسل باي وهران "إبن دهماء العامري" إلى الشيخ "إبن قندوز" فأخذه مقيداً إلى الباي ، الذي أمر بقتله في منطقة واريان بوادي أرهيو (23).

ثم كثر عبث هذا الباي و ظلمه و تعديه ، على العلماء و الأولياء و الرعية ، و كثر منه الضلال و التردّي ، فأكثر من سفك الدماء في العباد و حتى في علماء آخرين من غليزان "كإبن عبد الله بن حواء التيجاني" و الشيخ "فرقان الفليتي" (24).

و هذا الوضع دفع بجل قبائل منطقة غليزان للمشاركة في كل إنتفاضة ضد مظالم البايات ، الذين لم يدركوا التحديات الجديدة ، و لم يواكبوا العصر الحديث ، بل إنهمكوا في نهب الخيرات ، و جمع المال ، ويشير صاحب دليل

الخيران إلى جباية الباي "حسن الباهي" للغرائم دون وجه حق: "ولما نبهه بعض أصحابه إلى ذلك أجابهم قائلا: إن أهل غليزان قد أكلوني بالكلية، ولذلك تراني أكلت الرعية" (25).

و لأن أهل المنطقة و أعرابها سئموا سطوة جند الأتراك فقد وقع الإحتلال الفرنسي لمدينة وهران يوم 4 جانفي 1831 م في عهد الباي "حسن الباهي" (26).

:

(1) -عمار بن خروف العلاقات السياسية بين الجزائر و المغرب في القرن 10/16 م الجزائر: دار الأمل 2006 أ ج 1 ص 17 .

(2) -Haédo,(F.Diego de),Histoire des Rois d'Alger ,(Trad.H.D de Grammont),A.jordan,Alger ,pp,25-27

(3) -سويد (المحال) قبيلة عربية هلالية عتيقة كانت تتشكل من بطون عديدة تفرعت عن قبيلة زغبة الهلالية .أنظر : عبد الرحمن ابن خلدون ،كتاب العرب وديوان المبتدأ و الخبر في أيام العرب و العجم و البربر و من عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر ، بيروت : دار الكتب العلمية 1992 أ ج 6 ص 56 .

(4) -Sinan-chaouch ,fondation de la Régence d'Alger :Histoire des frères Barbarouse ,G.A.L ,Alger 2006, p.311

(5) -عبد الرحمن ، بن محمد الجيلالي ، تاريخ الجزائر العام ،الجزائر : ديوان المطبوعات الجامعية ،1994 أ ج 3 ص 34 .

(6) -Moulay,(Belhamissi),Histoire de Mostaganem,S.N.E.D, Alger, 1982,p.70

(7) -يحيى بوعزيز ، مدينة وهران عبر التاريخ ، ط 2 ، وهران : دار الغرب للنشر و التوزيع ،2002، ص 79 .

(8) - بن عودة، المزاري ، طلوع سعد السعود ،(تحقيق و دراسة :يحيى بوعزيز)، بيروت : دار الغرب الإسلامي ،1990، ج 1، ص 281 .

(9) - نفسه ، ج 1، ص 283 .

(10) -أحمد، ابن سحنون الراشدي ،الثغر الجفاني في إبتسام الثغر الوهراني ،(تحقيق و تقديم :المهدي البوعبدلي)،الجزائر :مطبعة

البعث،1973، ص 36

(11) - فليتنه إسم قبيلة عربية ذكرها عبد الرحمن ابن خلدون ضمن الفروع التابعة لقبيلة زغبة الهلالية ، و كان إستقرارها بمنطقة غليزان

و ضواحيها قبل القرن الثالث عشر الميلادي .أنظر :

عبد الرحمن ابن خلدون ،المصدر السابق ، ص 56 .

(12) -ناصر الدين ، سعيدي ، " دور قبائل المخزن في تدعيم سلطة البايليك التركي "، مجلة الأصالة ، ع 32، 1976 ، ص 50 .

(13) -Mahfoud,Kaddache,l'Algérie durant la période ottomane ,O.P.U, Alger 1998,p.139 .

- (14) - ابن سحنون ، المصدر السابق ، ص. 36.
- (15) - نفسه ، ص. 57.
- (16) - أبوراس ، الناصري ، فتح الإله ومنتته في التحدث بفضل ربي و نعمته ، (تحقيق : محمد بن عبد الكريم) ، الجزائر : المؤسسة الوطنية للكتاب ، 1990 ، ص. 24.
- (17) - حمدان ، بن عثمان خوجة ، المرأة ، (تقديم وتعريب و تحقيق : محمد العربي الزبيري) الجزائر : الشركة الوطنية للنشر و التوزيع ، 1982 ، ص. 139.
- (18) - Delpeche . (A) « Résumé historique sur le soulèvement des derkaoua de la province d'Oran », in, R.A(N°78), 1937, p45 .
- (19) - أحمد ، بن هطال ، رحلة الباي محمد الكبير إلى الجنوب الصحراوي الجزائري ، القاهرة : عالم الكتب ، 1969 ، ص. 14.
- (20) - مسلم ، بن عبد القادر ، خاتمة أنيس الغريب و المسافرين في طرائف الحكايات و النوادر ، (تحقيق و تقديم : رابح بونار) ، الجزائر : الشركة الوطنية للنشر و التوزيع ، 1974 ، ص. 97.
- (21) - نفسه ، ص. 98.
- (22) - نفسه ، ص. 99.
- (23) - محمد بن يوسف ، الزياني ، دليل الحيران و أنيس السهران في أخبار مدينة وهران ، (تقديم و تعليق : المهدي البوعبدلي) ، الجزائر : الشركة الوطنية للنشر و التوزيع ، 1978 ، ص. 119.
- (24) - مسلم ، المصدر السابق ، ص. 95.
- (25) - الزياني ، المصدر السابق ، ص. 119.
- (26) - أحمد ، بن أبي الضياف ، إتحاف أهل الزمان في أخبار ملوك تونس و عهد الأمان ، ط2 ، الجزائر : الدار التونسية للنشر و الشركة الوطنية للنشر و التوزيع ، 1971 ، ج2 ، ص. 217.

المجلة الإفريقية: دراسة إحصائية- بيبليوغرافية: للمخطوطات العربية

أ.د. محمد صاحبي
جامعة وهران

يعترف العديد من المؤرخين الفرنسيين أن الجزائر لم تكن الهدف الوحيد في الاستراتيجية الاستعمارية التي رسمتها السلطات الفرنسية في النصف الثاني من القرن الثامن عشر الميلادي. ويتأكد هذا النزوع التوسعي بعد الثورة الفرنسية في سنة 1789، إذ عرفت مناطق عديدة من الوطن العربي حملات عسكرية فرنسية عديدة مثل حملات نابليون على مصر و سوريا و فلسطين. و الأكيد أنه لو كان بمقدور الفرنسيين خاصة والأوروبيين عامة الزحف على الأراضي العربية و الاستيلاء عليها بعد سقوط غرناطة في سنة 1429م (أو قبل هذا التاريخ) لفعلوا ذلك دون تردد، و السبب في أن الظروف المواتية لهم لم تكن متوفرة، لذلك أجّلوا مشاريعهم إلى حين اشتداد شوكتهم..

1- الإيديولوجية السانسييمونية¹ و الحملات الفرنسية:

لم يكن الكاتب الكبير " فيكتور هوغو Victor Hugo " من أتباع سان سيمون، لكنه كان يؤمن ببعض طروحاتهم حول إدخال العرب و المسلمين إلى المدنية و الحضارة² الأوروبية. و كان شأنه في ذلك شأن العديد من مثقفي و علماء فرنسا أواخر القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر. إلا أن سان- سيمون وبعض أتباعه كانوا أقل قتامة في نظرهم للعرب و المسلمين آنذاك، بحيث كان يردّد عبارة مشهورة هي بمثابة المفتاح الذي يمكّن من التعرف على الفلسفة التنويرية لدى السانسييمونيين: " إن العرب و علماءهم كانوا محرك تقدم الإنسانية إلى غاية خروجهم من إسبانيا في القرن السابع عشر. وعلى الغرب أن يساهم في تمكينهم من الرجوع إلى المرتبة التي يستحقونها... ". إلا أن سان- سيمون وبعض أتباعه كانوا أقل قتامة في نظرهم للعرب و المسلمين آنذاك، بحيث كان يردّد عبارة مشهورة هي بمثابة المفتاح الذي يمكّن من التعرف على الفلسفة التنويرية لدى السانسييمونيين: " إن العرب و علماءهم كانوا محرك تقدم الإنسانية إلى غاية خروجهم من إسبانيا في القرن السابع عشر. وعلى الغرب أن يساهم في تمكينهم من الرجوع إلى المرتبة التي يستحقونها... "³.

و الحقيقة أنه إذا كانت الحركة السانسييمونية قد عرفت أوج ازدهارها بعد ثورة جويلية 1830 الفرنسية و هي الفترة التي شهدت دخول الجيوش الفرنسية إلى الجزائر، فإنها لها ماض عريق مع مصر و المصريين و خاصة في خلال حملة نابليون و ما بعدها، حيث جربوا تجسيد أفكارهم و طموحاتهم السياسية-الدينية في تعاونهم الوثيق مع محمد علي التقني و العسكري و

التعليمي. ولقد انفتح لهم المجال بمصر بعد حملة نابليون (1798-1801) التي قام علماءؤها بحملة استكشافية ووصفية كبيرة للآثار الفرعونية واليونانية والرومانية والقبطية والإسلامية، أسفرت عن إصدار موسوعة ضخمة معروفة بـ "وصف مصر". وإذا كان السانسيمونيون قد جلبوا معهم إلى مصر التقنية- لأنهم كانوا المؤسسين الفعليين للكلية التقنية بالقاهرة- كما جلب نابليون معه المطبعة، فإنهم كانوا أيضا الجذوة التي كانت تغذي الإيديولوجية التوسعية والاستعمارية الفرنسية التي اتسمت بها العشرية الأولى من القرن التاسع عشر. بل إن من المؤرخين الفرنسيين من يذهب إلى القول بأنه، لولا إلحاحهم المستميت وراء مشاريع الحملات العسكرية لما كنا قرأنا في التاريخ عن حملة نابليون على مصر ولتأخر هجوم الأساطيل البحرية على الجزائر. و على العكس من وجود السانسيمونيين بمصر، الذين كانوا ضيوف محمد علي (إسماعيل وربان Ismael Urbain واسمه الحقيقي طوماس- و فرديناند دي ليسيس Ferdinand de Lesseps على سبيل المثال) إلى غاية مغادرتهم البلد في سنة 1836، فإنهم كانوا في الجزائر المعاونين الأوفياء لجيش الاحتلال و المنظرين لمشاريع فرنسا الاستيطانية، وقد قدموا إلى الجزائر، بعد الفشل الذريع الذي منيت به أحلامهم الكبرى في مصر، مجموعات تلو الأخرى، يتقدمهم "بروسير أونفانتين P.Enfantin "أوربان Urbain" العائدين من مصر، وأسماء أخرى معروفة كان لها في الحقل العلمي والثقافي الدور الكبير.⁵

2 - الشروع في حملة "وصف الجزائر".

إذا كان هناك من دور علمي أو ثقافي أو صناعي، قامت به مجموعة السانسيمونيين في الجزائر، فذلك لم يكن من أجل عيون الجزائريين المحتلين، بل كان من أجل المصلحة العليا لفرنسا الإستعمارية. والدليل على ذلك هو وجود أتباع سان سيمون من القادة العسكريين مثل الجنرال "بيدو Bedeau" والجنرال "لاموريسيير Lamoricière" ورئيس الحكومة "كافنيك Cavaignac" ⁶، ناهيك عن رجال العلم والصناعة. وبهؤلاء تحوّل المجتمع الجزائري، غداة الاحتلال إلى مشروع ضخّم للاستكشاف و مادة بحث حُشدت من أجلها كل العلوم التي كانت متاحة آنذاك: الجغرافيا، التاريخ، الإثنوغرافيا. ولم يكن الهدف من وراء ذلك هو تجميع البيانات و المعلومات العلمية وحسب، بل إعادة صياغة تاريخ و فكر الجزائريين كذلك، ليس بهدف تبرير الاحتلال فقط، بل من أجل التأكيد على أن الجزائر مجتمعا و أمة في حاجة ماسة إلى الحضارة و التمدّن و هو الدور الذي يجب أن يلعبه أتباع هذا المذهب.⁷

إصدار الدوريات وتأسيس الجمعيات "العلمية":

أ- مثلما هو الحال مع نابليون في مصر، قام جيش الاحتلال الفرنسي فور غزوه للجزائر بإدخال المطبعة، و كان ذلك في 26 جوان من سنة 1830. وفي ظرف سنة واحدة عرفت المطبعة انتشارا واسعا في معظم المدن الكبرى مثل قسنطينة و وهران و عنابة و غيرها. ولم يكتف الفرنسيون بذلك فقط، بل راحوا يصطحبون معهم المطابع المتنقلة في حملاتهم العسكرية على باقي المدن و القرى و الفيافي، ليس من أجل تشجيع الجزائريين على اكتشاف كتابات " فولتير " أو " مونتسكيو "، بل بغرض طبع المنشائر و المطبوعات التي تدعو المقاومين على الاستسلام و الانخراط في مشروع فرنسا الحضاري؟؟

ب- وكخطوة موازية لسياسة " الاستكشاف " المعلنه من طرف "حكومة الجزائر" يوافق الجنرال "برتيجان-Berthégène" من خلال قرار مؤرخ في 16 ديسمبر من سنة 1831 على طلب أحد المشتغلين بالآثار يُدعى " سيافي-Sciavi " كان قد سُمح له بإصدار مطبوعة دورية تحت اسم " الأنتكير – l'antiquaire " بالقيام بتفتيش المنازل و القصور و الحدائق التابعة لوزارة الحربية، - التي كانت في الأساس ملكا لدايات الجزائر وقادتها - عن الآثار و المقتنيات و المخطوطات و الوثائق.⁸ كما سمحت السلطات العسكرية أيضا بإصدار سبعة صحف، أهمها: المونيتور الجزائري «le moniteur algérien» في سنة 1832، و صحيفة "الأخبار" مع مطلع سنة 1839 م ثم " la gazette médicale " في سنة 1834 و غيرها..

ت - وفي خضم هذا الجو المُفعم بالحيوية التي يبحث عنها السانسيمنيون، يأمر وزير الحربية الجنرال "لاموريسيار" الجمعيات العلمية الفرنسية أو المشكّلة حديثا لتحضير حملة التنقيب و الاستكشاف الكامل للتراب الجزائري، بما في ذلك المناطق التي تزال خارج السيطرة الفرنسية، و كان الهدف الرئيسي من وراء ذلك هو رسم خرائط جغرافية لتكون من الوسائل الأساسية لمواصلة احتلال إفريقيا.. وقد أدى هذا الأمر (حملة الاستكشاف) إلى التعجيل بتشكيل " اللّجنة العلمية لاستكشاف الجزائر" commission d'exploration scientifique d'Algérie يكون ضمن أعضائها: "بروسير اونفانتين - P.Enfantin " الذي كُلف بالجانب التاريخي و الإثنوغرافي للمهمة الموكلة إلى اللّجنة و النقيب " أنطوان ميشال كاريت-Carette Antoine Michel " الذي أوكلت إليه مهمة وضع الخرائط، و هما من أهم معتنقي المذهب السانسيموني الذين شاركوا في مجهودات محمد علي التحديثية.⁹

ث- لقد عرفت الفترة الممتدة بين سنتي 1830 و 1840 م دينامية غير معهودة في مجال تأسيس الدوريات و الجمعيات الثقافية و السياسية، ففي سنة 1835 م، و بقرار من وزير الحربية يُعلن عن ميلاد مكتبة الجزائر ن يُكَلّف من خلاله أحد أتباع المذهب السانسيموني و هو أ.بربروجر Adrian Berbrugger بإدارتها.

لم يكن اختيار "بربروجر" المؤرخ وعالم الآثار مديرا لمكتبة الجزائر عشوائيا، بل كان ذلك نظيرا للخدمات التي قدمها لجيش الاحتلال في حملاته على المدن الجزائرية كقسنطينة ومعسكر وغيرهما. فالإضافة إلى كونه قد اشتغل السكرتير الخاص للجنرال "كلوزل-¹⁰، قائد حملة قسنطينة، وسكرتير ليرال لمعديده من "Clauzel"، شأنه في ذلك شأن معظم السانسيونيين، مولعا بتجميع الكتب والمخطوطات وخاصة تلك المتعلقة بالحضارة العربية الإسلامية. بدأ "بربروجر" حين استلم قرار تعيينه مديرا للمكتبة الوطنية، برصيد أولي بلغ مائتي مخطوطة عربية، كانت عبارة عن هدايا ضباط الجيش الفرنسي وبعض ما استطاعت يده الوصول إليها، لكن مع حملة قسنطينة تمكن بربروجر من تجميع الآلاف من المخطوطات والوثائق التاريخية، حتى أصبح ما تحتويه المكتبة يقارب الأربعين ألفا من المخطوطات..

والحقيقة أنه، على الرغم من الشهرة التي بلغتها المكتبة الوطنية الجزائرية آنذاك، فإنها في الواقع قد غطت بظلالها على متحف الجزائر (تحت إدارة بربروجر أيضا)، الذي يحتوي على الآلاف من المقتنيات والآثار والمسكوكات وغيرها، لكن أغلب هذه التحف تمّ ترحيلها نحو باريس عشية استقلال الجزائر في سنة 1962م، مثلها في ذلك مثل المئات من المخطوطات والوثائق التاريخية التي عرفت طريقها نحو المكتبة الوطنية بباريس..¹¹

4- تأسيس "الجمعية التاريخية الجزائرية" ولسان حالها "المجلة الإفريقية":

بتشجيع من أعلى هرم في السلطه وهو وزارة الحربية بالجزائر العاصمة، يقوم "أ.بربروجر" مع ثلة من الضباط السامين في الجيش الفرنسي وعدد من المستعربين الفذنين بتأسيس الجمعية التاريخية الجزائرية بعد مرور ستة عشر عاما على احتلال الجزائر. ولقد جاء قرار إنشاء هذه الجمعية في سنة 1856م بحسب "بربروجر" نفسه بعدما فشلت تجارب الدوريات والصحف التي بدأت في الصدور مع بداية الاحتلال في إعطاء الصورة الحقيقة للبحث العلمي يقول بربروجر: "لقد أسهمت هذه الدوريات في إعطاء لمحات عن البحث العلمي في هذا البلد، غير أن النتائج المتوصل إليها لم تكن منظمة تنظييا مُحكما يؤسس لقواعد بحث علمي حقيقي وهو الأمر الذي دفعنا في الجمعية التاريخية الجزائرية إلى إنشاء "المجلة الإفريقية"..¹²

من الأهداف التي سطرته الجمعية التاريخية في برنامجها:

- جمع ودراسة والتعريف عبر النشرات المتخصصة بكل الأحداث التي تتصل بتاريخ إفريقيا، وخصوصا تلك المتعلقة بالجزائر منذ العهد الليبي (العصر القديم) إلى غاية فترة حكم الأتراك والوجود الفرنسي.

- تنطلق الجمعية في مفهومها للتاريخ من بعده العام الذي يشمل: التاريخ بمعناه الضيق - اللغات - الجغرافيا - الفنون - وعلوم إفريقيا الشمالية..

- تستخدم الجمعية كل الوسائل المتاحة للحفاظ على المعالم التاريخية الثابتة (أقواس النصر، البنيات، الأعمدة..)

وبالخص المعالم الأخرى المتنقلة..¹³

أما في المادة رقم 27 الخاصة بتسيير الجمعية من الناحية البحثية فنقرأ ما يلي:

تقوم الجمعية بنشر مجموعة بحوث و أعمال يكون الأساس فيها:

- التقارير المكتوبة من طرف اللجان التابعة للجمعية.

- المذكرات و الأعمال العلمية الأخرى.

- المذكرات و الأعمال غير المنشورة سواء الموجودة بالأرشيف أو في أماكن أخرى.

- نشر مقالات منشورة في دوريات إفريقية و أسيوية أخرى، ترى الجمعية أنها مفيدة..¹⁴

- تركيبة بـ بعض أعضاء الجمعية التاريخية الجزائرية:

يتكون أعضاء الجمعية التاريخية من فئتين مختلفتين هما: فئة من الباحثين و المستعربين وفئة أخرى من العسكريين.

- الفئة الأولى: أدريان بربورجر محافظ مكتبة و متحف الجزائر رئيسا.

: بريزنيي - Brézniier أستاذ كرسي اللغة العربية بالجزائر.

: دوفو - Devoulx مدير الأرشيف العربي بأملاك الدولة (Domaine).

- الفئة الثانية: البارون دي سلان - Baron de Slane المترجم الرئيسي بالجيش و ملحق الحكومة العسكرية، نائبا لرئيس الجمعية.

- الماريشال كونت راندون Randon الحاكم العام، مؤسس الجمعية التاريخية رئيسا شرفيا.

- الكولونيل دي نوفو De neveu النائب الثاني لرئيس الجمعية.

وبقراءة سريعة لوظائف بعض أعضاء " الجمعية التاريخية الجزائرية " نستنتج بأن العمل المنوط بها له مبررات عسكرية أكثر منها علمية. يُقصد من وراء التأسيس إضفاء الطابع العلمي على بحوث و دراسات الجمعية التاريخية هذه.

- " المجلة الإفريقية " وأهدافها:

على غرار المجلة العلمية " جورنال أزياتيكي - Journal asiatique التي بدأت في الصدور في 1822 م عن الجمعية الآسيوية، أرتأت " الجمعية التاريخية الجزائرية " إصدار مجلة "علمية" تبحث في تاريخ شمال إفريقيا على وجه التحديد، وبالأخص في كل ما يتعلق بتاريخ الجزائر العام، و كان لهذا ذلك مع بداية 1856. لكن على العكس المجلة الآسيوية التي لا تزال تصدر إلى الآن توقفت المجلة الإفريقية عن الظهور في الجزائر أو في الخارج عن الظهور بمجرد حصول الجزائر على استقلالها. وإذا كانت أهداف المجلة المعلنه هي الوصول إلى " أن تصبح مكتبة تاريخية إفريقية حقيقية تُكمل ما يقوم به علماء أوروبا من بحوث حول تاريخ إفريقيا و المستعمرات "،¹⁵ فإن ما لم يُعلن عن هو كتابة تاريخ المنطقة من منظور استيطاني يُجرد الجزائريين من تاريخهم، وذلك بإتباع الخطوات التالية المبثوثة في ثنايا الدراسات و المقالات.

- التركيز على الآثار و المنقوشات و النميات الرومانية من أجل ربط منطقة شمال إفريقيا

والجزائر خصوصا بأوروبا اللاتينية-المسيحية. وقد ساهمت العديد من هذه الدراسات والبحوث في وضع برامج التدريس لأبناء المعمّرين والقلة المحظوظة من أبناء الجزائريين..

- التركيز بالدراسة النقدية الجارحة على كل ما هو إسلامي في الجزائر وبقية المناطق العربية

و الإسلامية الأخرى. فأسمى الرسول عليه الصلاة والسلام في كتاباتهم " النبي المزعوم" ¹⁶

- ربط وجود العثمانيين بالجزائر والعالم الإسلامي بالجهل والتزمت والفوضى، بل إن تاريخ المسلمين عامة

والجزائريين خصوصا قد وقع في قبضة المقص الاستعماري، فراح دارسو المجلة الإفريقية - أو جزء منهم على الأقل - ينددون بها قام به المسلمون تجاه المسيحيين من سبي و حبس خلال الفترة التي أعقبت سقوط بعض الإمارات الأندلسية في يد المسيحيين

- إظهار صورة الفرنسي والمدنية الأوروبية على أنها يُشكّلان الخلاص للجزائريين والمسلمين عامة.. وهو المبدأ الأساسي الذي اعتنقه السانسيونيون بشكل عام.

- التشجيع على استخدام اللغة الجزائرية العامية في الكتابات الأدبية عامة بنشر الكتب التي تصب في مواضيع إباحية..

- أقسام المجلة و محتوياتها:

شرع القائمون على المجلة في تقسيم أولي لموادها إلى ثلاثة أقسام رئيسية، وقسم رابع غير ثابت:

- القسم الأول: ويتضمن الدراسات والتحليلات، وقد أطلق عليه مصطلح " مقالات أساسية - ARTICLES DE FONDS".

- القسم الثاني: وهو عبارة عن أخبار مختصرة، قد تستغرق صفحة أو صفحتين، يشير فيها كاتبها سواء كان عسكريا أو مدنيا إلى ما عثر عليه من مقتنيات (نقود، وثائق، نقوش ...) مع التعريف بالمكان الذي وجدت به (مدينة، قرية، جبل ..). ويُطلق على هذا الجزء من المجلة لفظة "أخبار أو حوادث Chronique"..

- أما القسم الثالث فيقوم صاحبه بإعادة نشر كل ما له علاقة بموضوعات المجلة: الإشارة إلى اكتشافات أثرية، ملخصات عن مقالات بعض المستشرقين في مجلات أخرى، ويُطلق على هذا الجانب اسم نشرة أو بيان " Bulletin " ..

- أما بخصوص القسم غير القار في المجلة فيُخصص للملاحظات والإرشادات سواء تلك الموجهة إلى القراء أو للمراسلين، مع الإشارة إلى القوانين وما شابه ذلك، وقد أطلق عليه المشرفون على المجلة لفظ " ملحوظات متنوعة - notes diverses". ¹⁷

وإذ تنطلق فلسفة المجلة من البُعد الوصفي والاستكشافي للأثار بكل أصنافها، تقوم بجمع و تصوير كل ما له علاقة بالتاريخ بمعناه العام: نقوش و آثار ترجع إلى عصور ما التاريخ والعصور الأخرى، نُميّات، وثائق إدارية

و تاريخية إسلامية (العصور الوسيطة و العثمانية) . و يتكلف بجمعها على وجه الخصوص ضباط متمرسون يتكوّن أغلبهم من المترجمين أو ممن يشتغلون بالمكتب العربي التابع لحكومة الجزائر « *gouvernement d'Alger* » العسكرية. وكانت توصيات الجمعية التاريخية في ذلك هي وصف ورسم المعثورات مع تبيان موقعها الجغرافي مع التعريف بالمكان أو الموقع إن أمكن.

و كان للمجلة عدد من المراسلين تتكون أغليبيتهم من ضباط الجيش الفرنسي العاملين في الوحدات التي تقوم بالحملات العسكرية على المدن و القرى و المداشر. و قد كُلف المدرسون الفرنسيون و رجال الدين المسيحيين أيضا بذات المهمة، على أن تكون مهماتهم تطوعية..

وبعد وصول التقارير و الدراسات إلى هيئة تحرير "المجلة الإفريقية" بالجزائر العاصمة مجلسها العلمي و هو ذاته مجلس الجمعية التاريخية الجزائرية المكوّن من المؤرخين و الأثريين، إما بتقيقه و تصحيحه أو نقده و دراسته و ترجمته. وقد عُرف عدد منهم كان له صيت و شهرة كبيرتين في الأوساط العلمية، منهم على سبيل المثال: غابرييل كامبس، شربونو، دي سلان، ستفان غزال، شارل أندري جوليان.

3- المجلة الإفريقية: دراسة إحصائية- بيبليوغرافية:

دام نشر و طبع المجلة الإفريقية مائة وست سنوات (في مائة وستة مجلدات) ضمن أربع مائة و واحد وسبعين عددا. احتوت موادها على كل ما يمت بصلة إلى التاريخ بمعناه العام: الآثار، التاريخ بعصوره المختلفة، الجغرافيا، اللغات و غيرها. غير أن النصيب الأوفر فيها كان في باب الآثار، حيث قام دارسو المجلة بكل ما من شأنه أن يخدم نظرهم إلى التاريخ و الحضارة، فقاموا بالإشارة و التصنيف و دراسة و ترجمة كل ما يمت بصلة إلى ذلك. وعليه سوف تقتصر هذه المداخلة على مجال واحد من النشاط العلمي الذي قامت به المجلة الإفريقية و هو باب المخطوطات العربية بالجزائر، و محاولة التركيز على ما قام به الدارسون و المستشرقون الفرنسيون في الفترة الزمنية الممتدة بين 1856 م و 1871 م. و هي الحقبة العسيرة من تاريخ الجزائر الحديث، بحيث تصادف ما قامت " المجلة الإفريقية " من تجميع و دراسة و ترجمة للمخطوطات العربية بحملات الجيش الاستعماري على المدن و المناطق الجزائرية التي كانت تحوز على قدر مهم من المخطوطات و الوثائق التاريخية مثل قسنطينة و بسكرة و معسكر و غيرها. وقد تصادف عمل الجمعية التاريخية "الجزائرية" أيضا بحركات التمرد و الانتفاضات و المقاومة التي انتشرت في معظم المناطق الجزائرية: مقاومة الأمير عبد القادر في الغرب و الوسط، و مقاومة أحمد باي في الشرق و الصحراء، و ثورات الزعاطشة و المقراني في بقية الجزائر على سبيل المثال. فإذا سيغطي مجال الدراسة تسعين عددا (90) من إجمالي الأعداد البالغ أربع مائة و واحد وسبعين (471)، الشاملة لـ "مائة وست" سنوات (1856-1962). و هي الفترة التي تصادف أيضا فترة تأسيس مكتبة الجزائر الوطنية و المتحف الملحق بها سنة 1835 م. و كافة الجمعيات العلمية الأخرى التي تأسست في خلال هذه الفترة الممتدة من سنة 1835 إلى سنة 1871، كجمعية التاريخية و الجمعية الأثرية و الجمعية الجغرافية و

غيرها. من الملاحظات الأولية التي يمكن إبداءها هي أن بعض الأعداد تخلو تماما من ذكر المخطوطات أو الوثائق التاريخية سواء بالإشارة أو الدراسة أو الترجمة مثل الأعداد التي تتضمنها المجلدات التالية: السادس الخاص بسنة 1862 و المجلد الحادي عشر الشامل لسنة 1867 .

أما فيما يخص المنهجية التي ستسير وفقها هذه المداخلة، فسوف تنطلق من مقارنة إحصائية- بيبليوغرافية للمواد (المخطوطات العربية) التي تشتمل عليها أعداد المجلة دراسة أو تحقيقا أو إشارة أو وصفا، ويكون ذلك حسب الخطوات التالية:

- الإشارة إلى المخطوط وصاحبه (إن وُجد).
- الإشارة إلى دارس المخطوط أو إلى مترجمه.
- رقمه في مكتبة الجزائر (إن توفر ذلك).
- إن كان المشار إليه ضمن المقالات "articles de fonds " أو الأخبار "chroniques" أو النشرة " bulletin"
- محاولة إعطاء مستخلص إن كان العمل تحقيقا أو ترجمة..
- ذكر المجلد و العدد و الصفحات التي ورد فيها ..
- أما ترتيب المادة العلمية فسيكون حسب ورودها في المجلة، أي زمنيا.
- الدراسة الإحصائية-الببليوغرافية:

1- " المغرب في ذكر بلاد إفريقيا والمغرب " للبكري (أبو عبيدة عبد الله بن عبد العزيز المتوفى سنة 487 هـ).

دراسة و ترجمة دي سلان De slane في سنة 1857.

وقد أعطاه المترجم العنوان التالي: .Description de l'Afrique septentrionale.

و في تعليق لكاتب الملخص في القسم الخاص بالنشرية " Bulletin " (و هو بربروجر) يقول أن المحقق قد اعتمد في عمله على نسخة واحدة من المخطوط. غير أنه يعود فيجد تعليلا لذلك بقوله: على الرغم من علم دي سلان بأن التحقيق لا يمكن الاكتفاء فيه بنسخة واحدة، فإن الحاجة الملحة إلى معرفة جغرافية المنطقة هي السبب في إخراج الكتاب إلى النور.. لكن يضيف بربروجر، إن دي سلان - بمعية "ألفريد كليرك" - قام بتحقيق المخطوطة لاحقا (؟) بالاعتماد على مجموعة من نسخ الكتاب، منها النسخة الموجودة بمكتبة الجزائر.

- المجلد الأول: 57 / 1856 ، العدد الثاني، ص..148

2- " نظم الدرر و الإسكيان في دولة بني زيان " لمحمد بن عبدالله بن عبد بن عبد الجليل القصري

(التنسي). تحقيق المستشرق "أ. شربونو A. Cherbonneau".

و من الملاحظات العامة عن المخطوط يقول المحقق أن المخطوطة المعتمد عليها ناقصة و في حالة سيئة، و هي من رصيد مكتبة الجزائر تحت رقم 703. و قد نسخت بالمغرب سنة 1167هـ/ 1753م، و ناسخها هو أبو العباس بن محمد السيني من قبيلة بني سنوس. و يُشار في الدراسة " المقالات - Article de fonds " - و كاتبها هو شربونو ذاته - أن المحقق بصدد دراستها من حيث الأسلوب و اللغة، و تلخيص أقسامها و التعليق على ما ورد فيها من أخبار. و ينتهي المجلد بمختصر تاريخي حول أصل الشعب العربي، تليه سبع قصائد في مدح السلطان (أبو حمّو الزياني)، الذي حكم تلمسان عام 707هـ/ 1307م.

- المجلد الأول: 1856/ 57، العدد الثالث، ص.ص: 213-215.

3- " الشجر الجماني في ابتسام الشجر الوهراني " المعروف بالجماني. لأحمد بن محمد بن علي بن حنون الشريف.

أشير إلى هذا المخطوط في دراسة و ترجمة قام بها المستشرق " غورغيوس Gorguos " للكتاب المخطوط المذكور تحت عنوان " معلومات عن باي وهران محمد الكبير " notice sur le bey d'Oran ". الدراسة التي قام به المستشرق في القسم الخاص بالمقالات، هي الوقوف عند المحتوى اللغوي و البلاغي و التاريخي للكتاب المخطوط، مع الإشارة إلى مناسبة تأليف ابن سحنون لمؤلفه، و الذي يقول عنها " أنها كُتبت احتفاء بالباي محمد الكبير، و هي عبارة عن مجموعة من القصائد متبوعة بتعليق مسهب عن صمود واستسلام مدين وهران للأسبان.

و يشير " غورغيوس " في ثانيا ترجمته هذه إلى مخطوطة أخرى، يقول أنها وُجدت ضمن مخطوطات مكتبة الباي محمد الكبير هي: " المنهل الروي و المنهج السوي في الطب النبوي " للشيخ عبد اللطيف (و هو أحد معاصري الباي محمد نهاية القرن الثامن عشر الميلادي).

- المجلد الأول، العدد الخامس، ص.ص: 404-415.

4- الإشارة مرة أخرى إلى تحقيق و ترجمة البارون دي سلان لمخطوطة البكري: المغرب في ذكر إفريقيا وبلاد المغرب، و التي تُرجمت إلى جغرافية إفريقيا. و قد استعان دي سلان في هذه التحقيق ببعض النسخ من مكتبة باريس و أخرى ممّا جُلب في أثناء الحملة العسكرية على مدينة قسنطينة، و قد طُبِع من هذه الترجمة - حسب كاتب الخبر " Bulletin " في المجلة، و يمكن أن يكون " بربروجر - مائة و سبعين نسخة. كما يتم الإشارة في نفس المكان إلى خبر تحقيق و ترجمة البارون دي سلان في سنة 1851م.

للجزء الخاص بإفريقيا و البربر من كتاب العبر لابن خلدون، اعتمد فيها المحقق على نسخة من مكتبة الجزائر و عدد آخر من نسخ مكتبات أوروبا..

- المجلد الأول، العدد الرابع، ص.ص: 73.

5- الإشارة إلى مخطوطة نادرة حول "بلاد النوبة و السودان" قد أرسلها الدكتور روسي Rossi إلى المجلة الإفريقية من القاهرة.

- المجلد الثاني: 1857 / 58. العدد الحادي عشر، ص. 418.

6- في خبر ضمن القسم الخاص بالأخبار أو الأحداث ، يشير أحد المحررين بالمجلة تحت عنوان: " السيد شارتون (محامي بالجزائر) يهدي مجموعة من المخطوطات إلى مكتبة الجزائر".

وقد جمعها المحامي المذكور في أثناء الحملة العسكرية على مدينة قسنطينة، وعددها ثلاث مخطوطات.

الأول: الجزء الرابع والأخير من مؤلف في الفقه المالكي، يشتمل على إجازة.

الثاني: المجلد الثالث والأخير من كتاب في الإعراب، يحمل عنوان: إعراب القرآن، لمصنف يُدعى أبو حيّان.. حالة المخطوط جيدة و يرجع تاريخ نسخه إلى سنة 1026هـ/ 1617م.

الثالث: وهو الجزء الثالث والأخير من كتاب " الشفاء " للقاضي عياض في موضوع المدح النبوي، تمّ نسخه في سنة 831هـ/ 1427م

- المجلد الرابع، العدد العشرون، ص. 150..

7- العثور على مخطوطين باللغة الإسبانية مكتوبتين بأحرف عربية. مقالة لـ "بربورجر" ، يعرض فيها بالنقد لهذا النوع من المخطوطات مع ذكر مصادرهما.

المخطوط الأول: وقد تمّ شراؤه حسب كاتب المقال من القاهرة عن طريق الدكتور "بيرون Perron" أما البائع فهو مغربي. يبدأ المخطوط بسورتين من القرآن الكريم، و يأتي بعدهما نص مكتوب باللغة العربية (نطقا وقراءة) لكنه في حقيقته مكتوب باللغة الإسبانية، و هو (الآن) موجود بالمكتبة (مكتبة الجزائر).

المخطوط الثاني: في نفس الموضوع، و مصدره دانيال روس من المكتب العربي التابع للحكومة العسكرية بالجزائر العاصمة..

- المجلد الرابع، 1860 العدد الثاني والعشرون، ص. 113..

8- "روض القرطاس" لأبي محمد صالح بن عبد الحليم الغرناطي.

يدور موضوعه حول تاريخ سلاطين المغرب و مدينة فاس.

قام بتحقيقه و ترجمته المستشرق الفرنسي "م. بومييه- M.Beaumier" سنة 1860م.

وقد تعرض لهذا المخطوط المستشرق "بربورجر" في مقالة نقدية يقول فيها إن التحقيق و الترجمة قد اعتمد فيهما "بومييه" على نسختين من المخطوط فقط، إحداهما تمّ نسخها بالمغرب سنة 1846، و هي بدورها منسوخة عن أصل قديم يُمكن أن يكون النسخة الأم. أما الثانية فقد جلبها المحقق من تونس يرجع تاريخها إلى سنة 1100هـ/ 1688م.

و يظهر من تعليق "بربورجر" أن العمل ناقص نوعا ما، حيث يقول: "لو عاد "بوميه" إلى نسخ هذا المخطوط موجودة بمكتبة الجزائر لكان العمل أكثر عمقا".

ويذكر صاحب المقالة نسخ منها تقع إحداها تحت رقم 1071، ونسخة أخرى (لم يحدد رقمها) جميلة الشكل، نُسخَت بفاس من طرف أحد علماء مدينة تطوان الكبار هو: أبو الحسن علي بن عبد الله بن أبي زهرة الفاسي.

و يشير "بربورجر" أيضا أن هذا الكتاب المخطوط قد تُرجم إلى اللغة الألمانية مختصرا من طرف "المستشرق دونباي Dombay" في سنة 1794م. كما تُرجم النص إلى البرتغالية كاملا في 576 صفحة عن طريق المستشرق البرتغالي "انطونيو موزة Antonio Mouza" في سنة 1828م.

- المجلد الخامس 1861، العدد الخامس والعشرون، ص.ص: 78-80.

9- مقالة تحليلية للمستشرق "غورغيوس Gorguos" عن محمد أبي رأس بن أحمد بن عبد القادر العسكري و أهم كتبه المخطوطة.

- المجلد الخامس، العدد السادس والعشرون، ص.ص:

10- مخطوط "تحفة الأريب في الردّ على أهل الصليب" للشيخ عبد الله بن عبد الله الترجمان (القرن 9هـ/ 15م).

وقع هذا المخطوط في يد المستشرق "بربورجر" أولا، حيث يقول أنه ابتاعها من أحد الجزائريين ضمن مجموعة من المخطوطات. وهي (الآن) تحت رقم 1083 بمكتبة الجزائر.

كُتِب هذا المؤلف في سنة 823هـ/ 1420م. أما ما يجلب الانتباه في هذه المقالة فهو النقد الشديد الذي يصل إلى التجريح في شخص المؤلف، الذي يقول عنه صاحب المقالة أنه رجل دين مسيحي من إسبانيا، اعتنق الإسلام في القرن الخامس عشر الميلادي. وعمله هذا ضمّنه القيرواني في "تاريخ إفريقيا".

يشير بربورجر في معرض تهجمه الشديد على صاحب المخطوط، إلى مخطوط آخر في نفس الموضوع، مؤلفه مجهول، وتاريخه غير معروف هو: مفتاح الدين المجادلة بين النصاري والمسلمين، وهو ضمن رصيد مكتبة الجزائر تحت رقم 926. المجلد الخامس، العدد الثامن والعشرون، ص.ص: 261-275.

11- "نفع الطيب في غصن الأندلس الرطيب" لأحمد بن محمد المقرئ التلمساني ق. 10هـ/ 17م.

مقالة حول تحقيق و طبع هذا الكتاب من طرف مجموعة من المستشرقين الفرنسيين و الدارسين الجزائريين، وعددهم أربعة يتقدمهم المستشرق "غوستاف دوغا Gustave Dugat". ويقع العمل في 1800 صفحة من القطع الكبير، و مكُون من ثمانية كتب و مقدمة. تمّ الاعتماد في تحقيقه على نسخة مخطوطة موجودة بمكتبة الجزائر تحت رقم 124. - المجلد الخامس -

1861م، العدد الثلاثون، ص.ص: 422

12- شرح مقامات الحريري، للشيخ محمد أبي رأس العسكري.

أهديت إلى مكتبة الجزائر من طرف السيد "موران - Morin" التابع للمكتب العربي بالحكومة العسكرية. يرجع تاريخ نسخها إلى سنة 1791 م. ومن الوصف الذي يُعطيه كاتب الخبر في المجلة، فإن تجليدها من النوع الفاخر، وكتابتها بخط مغربي جيد وواضح.

لم يُشر إلى رقمها في مكتبة الجزائر. - المجلد الثامن، 1865، العدد الرابع والأربعون، ص.ص: 152-153.

13- "الزهرة النيرة" ترجمة للفصل الأخير من المخطوط (دون ذكر صاحبه).

قام بالترجمة المستشرق الفرنسي "ل.ج. بريزنيي L.J Bresnier" متكثرا في ذلك على نسخة موجودة بمكتبة الجزائر تحت رقم 100. يدور موضوعها حسب كاتب المقالة إلى الحملات الإسبانية على مدينة الجزائر، من طرف القائد الإسباني ذي الأصل الإنجليزي "أورليي O'reilly" خلال القرن السادس عشر. والمخطوطة خاصة بالحملة التاسعة. ويركز كاتب المقالة على ظروف هذه الحملة مع التركيز على ظروف مجيء القائد "أورليي" إلى إسبانيا ثم قيامه بالحملات على الجزائر. وهي مكتوبة بخط مغربي، جيد، سهلة القراءة، وهي حسب مؤلف المقالة بخط مؤلفها، يرجع تاريخها إلى 14 ذي الحجة من سنة 1193 هـ/ 23 ديسمبر 1779 م.، وهي الفترة التي ترجع إلى فترة حكم محمد باشا المقرئ.

يبلغ عدد صفحات الجزء المترجم 12 صفحة، وعدد أسطر صفحاتها 38 سطرا.

وقد نسخت عن المخطوطة الأصلية من طرف محمد باي وهران.

- المجلد الثامن-1864 م، العدد السابع والأربعون، ص.ص: 334-346.

14- "كتاب علاج السفينة في بحر قسنطينة" [للشيخ بركات الشريف] في القرن الرابع عشر الميلادي.

وقد ورد ذكر هذا الكتاب المخطوط ضمن مقالة كتبها "ل. فيرو- L.Charles Féraud" مترجم لدى الجيش تحت عنوان "فترة استقرار الأتراك بقسنطينة - Constantine époque de l'établissement des turcs à". وقد ارتكز فيها صاحب المقالة على المخطوطة المذكورة، التي يقول عنها أنها (يمكن) للشيخ بركات الشريف بقسنطينة.

ويقول كاتب المقالة في معرض حديثه أن المخطوطة كانت أساس ما كتبه "نيكولي لانييري N.Limbéry" عن أحداث وجود الأتراك بقسنطينة. وكان "لاميري" - حسب ل. فيرو - من "سبارطه" المترجم الرسمي لبعض الاتفاقيات التي أبرمت بين قرطاج و مرسيايا. أما عن المخطوطة السالفة الذكر، فإنها حسب "فيرو" مخطوطة قديمة ذات أوراق صفراء، لكنها مكتوبة بخط مقروء..

- المجلد العاشر-1866 م، العدد السابع والخمسون، ص.ص: 179-196.

15- "عنوان الأخبار فيها مرّ على بجاية" للشيخ أبي علي إبراهيم المريني البجائي.

و قد جاء ذكر هذا الكتاب المخطوط ضمن مقالة بالمجلة الإفريقية بعنوان: غزو مدينة بجاية من طرف الأسبان من خلال مخطوطة عربية، للكاتب و المترجم " ل. شارل فيرو ". يقول مؤلف المقالة و مترجم المخطوط إلى الفرنسية أن المخطوط قد أهدى له من طرف ضابط سام في الجيش ، وُجدت عند أحد رجال الدين المسلمين (طالب) من قبيلة بن يعلا من قسنطينة. لم يُشر إلى المخطوط من الناحية الخارجية و لا إلى عدد صفحاتها أو تاريخ كتابتها.

- المجلد الثاني عشر - 1868 م، العدد السبعون، ص.ص: 245-256.

16- "فتوح إفريقية" لمؤلف لم يُذكر إسمه.

ورد ذكر هذا المخطوط عند الحديث عن قيام المستشرق "شاربونو" بترجمة فصل من المخطوط المذكور. و تدور أخبار المخطوط حول فتح مدينة تبسة الجزائرية من طرف المسلمين "سقوط مدينة تبسة في يد المسلمين" بعبارة المشرق. المخطوط من مكتبة الجزائر تحت رقم 127.

- المجلد الثالث عشر - 1869، العدد الخامس و السبعون، ص.ص: 225.

17- "ذيل الديباج" للشيخ محمد بن يحيى بن عمر بن يونس بدر الدين القرقي، المولود بمصر سنة 939هـ/ 1532م و توفي سنة 1009هـ/ 1600م.

ورد ذكرها المخطوط في مقالة للمستشرق "شربونو Cherbonneau" بعنوان "ملاحظة بيبليوغرافية عن القرقي - Note bibliographique sur el karafi"، يرجع فيها المستشرق إلى سيرة القرقي

18- "تاريخ ابن حمّاد" للقاضي أبي عبد الله بن علي بن حمّاد. (القرن التاسع الميلادي-الثالث الهجري).

رجع المستشرق "شربونو" في بحثه عن الهرطقة في مقالة بعنوان "وثائق تاريخية حول الهرطقة أبو زيد مخلّد بن حداد التدمكي".

و قد اعتمد المستشرق في ذلك ، على مخطوطتين ، رمز إليهما بـ "أ" و "ب" ، وهما من مكتبته الخاصة ، يقول أنها أهديتا له من طرف رجل دين مسلم من قسنطينة. و ظروف تصنيفه للذيل . يقول "شربونو" أن القرقي كان أول من صنف ذيلًا على كتاب الديباج لابن فرحون، غير أن عمله هذا كان ناقصا نوعا ما، و هو الأمر الذي أدى بـ "أحمد بابا التنبكتي" ، أربع سنوات بعد وفاة القرقي، إلى تأليف كتابه "نيل الابتهاج على ذيل الديباج" مضيفا فيه أكثر من ست مائة شخصية علمية على عمل القرقي. أما عمل القرقي المذكور فيتكوّن من ثمان كراسات، تحتوي على 304 بيبليوغرافية ، منها سيرة مطولة للشيخ خليل وذكر لمؤلفاته. مصدر هذا المخطوط الذي درسه "شربونو" من مكتبة ابن الفكون بقسنطينة ، وهي مكتبة يقول عنها "ل.فيرو" بأنه قلّ أن تجد مكتبة في جبالها ورصيدها " (المجلة الإفريقية، م. 10، ع. 57، ص.ص: 179-196)..

- المجلد الثالث عشر 1869 م، العدد السادس و السبعون، ص.ص: 263-284.

و يشير المستشرق إلى أن موضوع المخطوط ، كما يقول عنه ابن حماد ذاته في مقدمة كتابه، هو اختصار لعدة مؤلفات كانت تهدف التعريف بعائلة عبيد الله..

- المجلد الثالث عشر- 1869 م، العدد الثامن و السبعون، ص.. 425

19- "التحفة المرضية" لابن المفتي الحنفي حسين بن رجب. (ق. 12هـ / 18 م).

وردد ب هذا المخطوط ف b مقالة للمستشرق الفرنسي "ألبير ديفو A.Devoulx" تحت عنوان "اختطاف باشا من طرف القبائل .

يذكر المستشرق أن المخطوط وقع بين يديه ضمن مجموعة، ويرجع تاريخ كتابتها إلى سنة 1734 م. مصدرها الآن : مكتبة الجزائر، (دون ذكر رقمها).

- المجلد الثالث عشر 1869 م، العدد الثامن و السبعون، ص.ص: 459-464

20- " مختصر الفقه المالكي" للشيخ خليل. ترجمة و نشر هذا المختصر فيما بين 1848-1854 م ن، و الغرض من ذلك - حسب المترجم الدكتور بيرون- هو معرفة الفقه الإسلامي و المالكي على وجه التحديد ، لأنه سيُتيح لنا معرف أهل المنطقة (الجزائر) و علاقاتهم بعضهم ببعض. يقول: "...إنه من الضروري في هذه الظروف التعرّف عن قرب على دقائق هذا المذهب الذي يُسيّر الحياة الاجتماعية و القانونية .. و ما كتبه سيدي خليل في هذا المقام هو شرح وافي للمذهب المالكي كلّ..". مصدر المخطوطة من مكتبة الجزائر.

- المجلد الرابع عشر 1870 م، العدد الواحد و الثمانون، ص.ص: 209-252

21- " ميزان الشريعة" لعبد الوهاب بن أحمد بن علي الشعراي. (ولد ببنهسة بمصر سنة 899هـ / 1493 م، و توفي سنة 973هـ / 1565 م)، لكنه يرجع في نسبه- حسبما يقول هو نفسه في مقدمة كتابه- "...إلى السلطان أحمد سلطان تلمسان، المعاصر للشيخ أبي مدين المغربي..".

تحقيق ونشر للمخطوط الذي يسمى أيضا " ميزان الشعراي " من طرف المستشرق "بيرون" .

و يُعرف الشعراي بمصر تحت اسم الشعراوي. أما الداعي إلى إعادة تحقيقه ونشره - حسب المحقق- هو أن الميزان الذي طُبِعَ بمصر سنة 1279هـ / 1862 م في مجلد واحد، مليء بالأخطاء المطبعية، و مبتور الجمل..

- المجلد الرابع عشر 1870، العدد الواحد و الثمانون، ص.ص: 209-252

22- " نكد الزواج بالضراير" للشيخ النفزاوي. (المعاصر للسلطان عبد العزيز الحفصي)

تحقيق و ترجمة جزء من المخطوط من طرف المستشرق "دوغا G.Dugat" .

مصدر المخطوط: يقول المترجم أنه قد أهديت له نسخة من طرف المستشرق "شربونو".

- الجلد الرابع عشر، العدد الثالث و الثمانون، ص.. 451

23- "دولة العبيدين في إفريقية" لابن حجاج (القرن العاشر الميلادي)

ترجمة نصوص كاملة من المخطوط حول سقوط دولة الأغالة بإفريقية، قام بها المستشرق "أ. مرسيه - L. Mercier". وقد قام "شوبونو" بترجمة أجزاء من العمل و عرض بالمجلة الإفريقية.

- المجلد الخامس عشر 1871، العدد السادس و الثمانون، ص.ص: 112-137.

ختاما لهذا العرض حول إسهامات المستشرقين الفرنسيين، والجمعية التاريخية الجزائرية على وجه الخصوص، في ترجمة و تحقيق التراث العربي المخطوط بالجزائر في النصف الأول من القرن التاسع عشر، يمكن القول بأنه، على الرغم من الظروف العامة التي اتسمت بها هذه المرحلة من تاريخ الجزائر، و الأسباب التي من أجلها، أنشئت الجمعية التاريخية الجزائرية و لسان حالها "المجلة الإفريقية" التي كانت تصبو إلى خدمة المشروع الاستعماري الفرنسي، إلا أنه من باب الموضوعية القول بأن النتائج العلمية التي توصل فريق الباحثين و المحققين التابع للجمعية المذكورة، كانت لها الدور الكبير في إرساء قواعد المنهج العلمي بالجزائر. وسمحت فيما بعد للباحثين الجزائريين و العرب من امتلاك تقنيات البحث في الآثار و التاريخ و الأنثروبولوجيا، من خلال الأعمال التي أنجزها المستشرقون و الأثريون الفرنسيون، بصرف النظر عن التأويلات و بعض الشروحات التي خرج بها الباحثون الفرنسيون، والتي كانت تخدم في المقام الأول تطلعات السلطة العسكرية التي حكمت مدة مائة و اثنين و ثلاثين سنة منطقة شاسعة مثل الجزائر..

وبالإضافة إلى ذلك يمكن القول بأن الدور الحضاري الذي رسمته سلطة الاحتلال لنفسها منذ البدايات الأولى، - الذي كان المبرر الأكبر في استعمار الشعوب - حتم عليها القيام بما قامت به في هذا الميدان لتحسين صورتها أمام الأهالي و الشعوب المجاورة، مستعينة في ذلك بأكبر العلماء و المستشرقين الذين كانوا يعتنقون المذهب السانسيمني مثل "بربورجر" و "أونفانتين" وغيرها. و ما تعليق الإمبراطور الفرنسي نابليون الثالث¹⁸ حول الدور المنوط بفرنسا الثقافة و الحضارة في هذه البقاع البعيدة (الجزائر و إفريقيا) وهو يتجول في بهو مكتبة و متحف الجزائر في يوم 11 ماي 1865 معجبا بالمخطوطات النادرة و المقتنيات الرائعة إلا دليل على ذلك..

الهوامش :

¹ - السانسيمونية " Saint-simonisme " مذهب يُنسب إلى مؤسسه الفرنسي " Claude Henri de Saint-Simon " (1760 - 1825). ولقد كان هذا المذهب الفلسفي و السياسي المعروف بـ " الاشتراكية الطوباوية " بمثابة الدين الجديد في أوساط الفئات المثقفة بفرنسا. وتحول هذا المذهب على يد خليفته بروسبير أنفانتان (Prosper Enfantin 1796 - 1864) إلى مشروع سياسي و ديني يتولى القيام بنفس الرسالة التي قامت بها الكنيسة الكاثوليكية في القرون الوسطى، ولكن بصورة جديدة قوامها مشروعات صناعية كبرى تربط أجزاء الأرض بعضها ببعض هادفة إلى توحيد العالم صناعيا، وصولا إلى توحيده روحيا. ومن مبادئه: إن العلم قاعدة المجتمع و الإدارة السياسية - على أتباع هذا المذهب النضال من أجل سعادة البشر و بالأخص أولئك المقصين في المجتمعات بإنجاز المشاريع الصناعية الكبرى - و من أجل تحقيق هذه الأهداف لا بد من تولي المثقفين و الفلاسفة إدارة الحكم.... راجع:

Henri de Saint-Simon ,le nouveau christianisme et les écrits sur la religion. Paris : Ed. le Seuil ,1969, introduction.

² - يقول " فيكتور هوغو " عن احتلال الجزائر: " إنها الحضارة ضد البربرية، إنه (الفرنسيون) شعب متنوّر وجد شعبا (الجزائريين) في الظلام. نحن يونانيو العالم، و على عاتقنا تقع مسؤولية تنوير العالم. "

« C'est la civilisation qui marche contre la barbarie. C'est un peuple éclairé qui va trouver un peuple dans la nuit. Nous sommes les Grecs du monde, c'est à nous d'illuminer le monde. »

³ -Alain LARDILIER « l'œuvre de Saint-simonien au XIX siècle » www.emopnha.com. 14/10/06

- لنشر أفكارهم ومشاريعهم قام هذا المذهب، بالإضافة كتبهم و مؤلفاتهم بإصدار صحيفة أطلقوا عليها اسما يحمل دلالات على

توجهاتهم السياسية و الفكرية العالمية هو: Le Globe (الكرة الأرضية). و في عدد 1832 / 02 / 25 كتب " ميشال شوفاليي Michel Chevalier " يقول. " سوف يتحوّل البحر الأبيض المتوسط سرير زواج بين الشرق و الغرب " ..

⁴ - كان لتفشي داء الطاعون بمصر سنة 1836 وراء مغادرة معظم منتسبي هذا المذهب (حوالي مائة عضوا) ولم يبق إلا ثلاثة منهم بصحبة « لانبير باي Lambert bey » وقد كان لهم دور فعّال في الحضور الفرنسي بمصر. للمزيد من المعلومات راجع:

Sébastien CHALEVY , Histoire du Saint-simonisme (1825-1864). Paris: Editions. P.Harmathan, 1931, p.p 112-132:

⁵ - إن أول عمل قام به إسمايل أوربان في الجزائر هو مترجم في الجيش الفرنسي أما Enfantin فقد عُيّن عضوا في اللجنة العلمية الاستكشافية التي أسستها سلطات الاحتلال في الجزائر .

⁶ - من الأعمال الوحشية التي قام بها بعض هؤلاء "المتنورين" إقدام الجنرال "لاموريسيار" سنة 1848 على إحراق الآلاف من الجزائريين الذين احتموا بالمغارات خوفا من بطش الجيش الفرنسي ..

⁷ - ظهرت في العشرية الأخيرة مؤلفات فرنسية عديدة عن الدور الإيجابي الذي قام به أتباع سان سيمون في كل من مصر و الجزائر و المستعمرات الفرنسية الأخرى، الأمر الذي هباً لاستصدار قانون فرنسي يُعترف بموجبه بالدور الإيجابي للوجود الفرنسي الاستعماري. او قد تمّ صدور القانون رقم 158-2005 في 23 فبراير 2005 ، و كان من نتائجه أن علّقت معاهدة الصداقة الجزائرية الفرنسية..

⁸ -Adrian BERBRUGGER, « introduction » in Revue Africaine .Alger : Bastide, libraire-éditeur n° 01 volume n° 01, 1856, p.03.

⁹ - لقد سبقت الإشارة إلى "أونفانتين" في الفقرة الخاصة عن السانسيمنيين بمصر، أما النقيب "كاريت" - وهو من خريجي المدرسة التقنية بباريس، فقد أتى إلى الجزائر في سنة 1835 و بادر من تلقاء نفسه بدراسة إحصائية حول إمكانيات استغلال الأراضي الجزائرية : زراعية، صناعية و منجمية، واضعاً معلوماته هذه تحت تصرف العلم، الجيش و الصناعة الفرنسية. المصدر:

- L'Algérie par Rozet et Carette. Tunis :éd.Bousslama,1980.

¹⁰ - E.Watbled « expédition et prise de Constantine » in Revue Africaine n°80, vol. 14, année1870, p.200.

- اشتغل "بربروجر" بعد ذلك سكرتيراً خاصاً للجنرال "مولييرس - Molières" المعروف بحملاته على مدن جزائرية عديدة..
¹¹ - الوقع أن حملة نقل الآثار و الوثائق التاريخية الجزائرية، لم تبدأ مع خروج الاحتلال فقط، بل كانت من الممارسات اليومية التي عهدتها سلطات الاحتلال. ففي أمرية مؤرخة في 29 نوفمبر 1842، يقر الدوق دي دالماسي - le Duc DE Dalmacie نقل قوس النصر الموجود في مدينة جميلة الأثرية نحو باريس. لكن ضخامة المشروع حال دون ذلك..راجع ذلك في :

- A.Berbrugger , « introduction du premier numéro » in Revue Africaine n°1,vol.n°1,p.05.

¹² - Ibid , p.03.

¹³ - Partie officielle de la société historique algérienne in Revue africaine n° 49,vol.09, 1865,p.p :13-19.

¹⁴ - Ibid , p.p :13-15.

15 - A.Berbrugger , op.cit, p.10.

¹⁶ - وردت هذه العبارة و عبارات أخرى في مقالة لبربروجر عن مخطوطة " تحفة الأريب في الرد على أهل الصليب " لعبد الله الترجمان.

المجلة الإفريقية، المجلد الخامس، عدد 28 ، ص.ص: 261-275.

¹⁷ - صدر المجلة في الأصل ضمن نشرة " journal " و هي بمثابة العدد الذي يظهر مرة كل شهرينو قام المشرفون على الجمعية التاريخية بإخراجه في مجلد سنوي يقع في حوالي 500 صفحة بحجم 24 سم .قامت سلطات الاحتلال بتكليف الناشر و الطابع الفرنسي باستيد " Bastide " بطبعها ونشرها . ثم أعاد الديوان الوطني للمطبوعات في الجزائر بإعادة طبع "المجلة الإفريقية بعد الإستقلال.

المجلد الأول-العدد الأول:1856- المجلد 106 - العدد 470-71.

¹⁸ – Chroniques, in Revue Africaine, vol.09,n°51,p.212.

نتائج ثورة بني غانية 580هـ - 633هـ / 1184-1237م

د. هرباش زاجية
جامعة معسكر

بسّطت الدولة الموحدية نفوذها على كامل أراضي الإمبراطورية المرابطية سواء كان ذلك في المغرب أو في الأندلس، ولقد كانت غرناطة آخر معقل مرابطي في الأندلس صمد أمام ضربات الجيوش الموحدية. توفي يحيى بن غانية في سنة 543هـ / 1148م وأوصى أخاه محمدا بن غانية بالانتقال إلى جزر البليار قبل وفاته، فما كان من حاكم جزر البليار إلا أن يمثل لأوامر أخيه، ويستقر بجزره قرابة الثلاثين عاما، اهتم بتحصينها، وبتقوية جيوشها وأسطولها، واستقبل بها فلول المرابطين الفارين من الأندلس، والمغرب واستمر في سياسته التي اتبعها أولاده من بعده فتحولت تلك الجزر إلى مملكة مرابطية مستقلة. عرفت جزر البليار أزهى عصورها في عهد إسحاق بن غانية من سنة 550هـ إلى 580هـ / 1146 / 1184م إلا أن فترة حكم هذا الأخير لم تكن عادية لأنها استدفع أبناءه من بعده إلى الدخول في حرب ضروس مع الدولة الموحدية التي تمكن كل من محمد وإسحاق ابنا غانية من تجنبها حفاظا على كيانهما واستقلالهم إلا أن هذا الاستقلال سرعان ما هددته الاستفزازات الموحدية التي طلبت على لسان خليفتهما أبو يعقوب يوسف بن عبد المؤمن تحديد موقفهم من السلطة الموحدية إما بإعلان الطاعة والولاء لها، أو بالتمرد عليها فكان الردّ سريعا منهم بحرب بدأت من بجاية في 06 شعبان 580هـ / 13 نوفمبر 1184م بقيادة علي بن غانية برفقة إخوته يحيى، عبد الله، والغازي تاركا أمر مملكته لأخيه طلحة لتشمل هذه الحرب منطقة المغرب الأوسط، وإفريقية وجزر البليار (الجزر الشرقية) إلى غاية سنة 633هـ / 1237م⁽²⁾ انعكست على القوتين الإسلاميتين بنتائج وخيمة شملت جميع الميادين استفاد منها بالدرجة الأولى النصارى الذين استرجعوا الأندلس من بين أيديهم وتركوهم متطاحنين في بلاد المغرب الإسلامي.

1- النتائج السياسية :

1- سقوط جزر البليار:

تمكنت قوات النصارى من استرداد جزر البليار بعد العمل الكبير الذي قام به خايمي الأول الملقب بالفاتح⁽³⁾ على إثر استنجد السيد أبي زيد بن عبد الرحمان بن أبي عبد الله بن أبي حفص والي بلنسية، هذه الخيانة التي انتظرها ملك أراغون طويلا ليستغلها لتوجيه ضربة ناجحة اشتركت فيها قوات أراغون، قطلونية، برشلونة، بروفانس، نارابون وحتى بيزة وجنوه بقوة بلغت 150 سفينة تحمل ألفا وخمسمائة فارس، وخمسة عشر - ألفا من المشاة⁽⁴⁾ تمت بواسطتها استباحة جزيرة ميورقة بكل وحشية، انتهت بقتل 50.000 شخص، وأسر 2000 من المسلمين⁽⁵⁾ في 15 صفر 627هـ / أول يناير 1230م، ولم تتمكن

المقاومة الميورقية من الصمود إذ سرعان ما انهارت في 10 ربيع الأول سنة 628هـ / 13 فبراير 1231م وكان ذلك إيذانا ببداية سقوط الحصون الإسلامية، فميورقة التي أصبحت عاصمة لخايمي الأول فتحت شهيته لاسترداد باقي جزر البليار (منورقة ويااسة) ومنها التوسع في مختلف المناطق المتبقية في أيدي المسلمين.

2- بداية سقوط الأندلس:

دخول النصارى إلى جزر البليار نجم عنه سقوط معظم المدن الأندلسية فسيطروا على بلنسية في 20 ذي الحجة 634هـ / 1236م،⁽⁶⁾ ثم قرطبة في 23 شوال 633هـ / 29 جوان 1236م⁽⁷⁾ ومنه ساروا إلى مرسية في 10 شوال 641هـ / 1243م⁽⁸⁾ واشبيلية في 27 رمضان 646هـ / 23 نوفمبر 1248م⁽⁹⁾ وغيرها من المناطق، وبقيت غرناطة لوحدها في ظل بني الأحمر تصارع قوات النصارى المتكاملة إلى غاية 890هـ / 1492م وهو تاريخ خروج المسلمين نهائيا من الأندلس⁽¹⁰⁾.

3- تفكك الدولة الموحدية:

تعتبر تولية الخليفة الموحدي للشيخ عبد الواحد بن أبي حفص الهنتاتي⁽¹¹⁾ بإفريقية إيذانا بظهور الدولة الحفصية التي سرعان ما انفردت بالحكم بها لتساهم معركة حصن العقاب سنة 609هـ / 1212م في زيادة تفكك الدولة الموحدية التي شهدت ميلاد ثلاث دول جديدة في ربوعها هي الدولة الحفصية في إفريقية، الدولة المرينية في المغرب الأقصى، والدولة الزيانية في المغرب الأوسط.

II- النتائج الاقتصادية والاجتماعية :

1- النتائج الاقتصادية:

أثرت هذه الثورة على جميع المناطق التي دارت في رحاها الحرب حيث بدأت بالمغرب الأوسط وبالضبط من منطقة بجاية التي كانت مركزا تجاريا هاما كثير الثمار والفواكه والخيرات وبها دارا لصناعة السفن⁽¹²⁾ لكن الحرب خربتها، ثم انتقلت مجرياتها إلى كل من جزائر بني مزغنة، المتيجة، مازونة، مليانة، أشير، قسنطينة، بونة، المسيلة، تبسة، تلمسان، تيهرت، وارجلان والتي كانت في معظمها مناطق زراعية، اشتهرت بمنتجاتها الزراعية والصناعية، وبمواقعها ذات الأهمية الاستراتيجية من الناحية التجارية،⁽¹³⁾ التي أسهب الرحالة الجغرافيين في وصفها. لم يقتصر الوضع على المغرب الأوسط بل إن مجال الحرب الجغرافي امتد أيضا إلى إفريقية فضررت توزير التي كان يخرج من تمورها حمولة ألف بعير عمرا للتجارة⁽¹⁴⁾ وأيضاً قسطنطينة، ثم قابس أو دمشق الشام،⁽¹⁵⁾ وإذا كانت قصصة قد نجحت باستسلامها لتجنب التدمير فإن ذلك لم يشفع لها وكان انتقام الموحدين منها فظيعا بحصارها وبالإقدام على قطع ألف نخلة من نخيلها في اليوم،⁽¹⁶⁾ كما شهدت كل من منطقة صفاقس، المهدية بإفريقية، وسرت بليبيا، والعقبة الكبرى قرب الإسكندرية بمصر نفس المصير باعتبارها كانت مجالا لهذا الصراع المرير بين الإخوة الأشقاء .

2- النتائج الاجتماعية:

- (1) - القتل والبطش والرعب من الجانبين في كل المناطق التي دارت فيها رحى هذه الحرب فقتل الكثير من سكان بجاية،⁽¹⁷⁾ وجالت السيوف ذبيحا في رقاب أهل قفصة⁽¹⁸⁾ ليشمل هذا المصير كل المناطق بالمغرب الأوسط والأدنى.
- (2) - النهب والسلب بالاستيلاء على أموال الأهالي بغير حق، فكما سلب المارقة أهل جزيرة شريك بتونس بما في ذلك ثيابهم التي توارىهم وتستر أجسادهم، فإن الموحدون غنموا في موقعة شبرو قرب تبسة سنة 604 هـ / 1207 م مائة وخمسون فرسا وحولة ألفي جمل⁽¹⁹⁾ في الوقت الذي عمجز فيه سكان بجاية حسب رواية ابن عذاري حتى عن تكفين موتاهم جراء ما ألحقته بهم هذه الحرب من ويلات⁽²⁰⁾.
- (3) - المجاعات والانتحارات حيث خربت الحرب جل المزارع، فقلت موارد التجارة لانعدام الأمن ومات الكثير من سكان باشو بتونس على سبيل المثال فانقطع منهم إثني عشر ألفا⁽²¹⁾ عن بقية إفريقية واضطر سكان منورقة بجزر البليار إلى أكل الميتة من شدة الجوع والحصار،⁽²²⁾ واختار بعضهم في بلاد المغرب الانتحار بعدما فتك بهم ثالث الجوع والعطش والأوبئة⁽²³⁾.
- (4) - الضرائب التي أجبر الأهالي على دفعها بأثمان باهظة بلغت أحيانا 100.000 دينار⁽²⁴⁾ مما جعل أهل توزر يخسرون كل أموالهم، ولقد شملت هذه الضرائب المجحفة كل المناطق التي شملتها الحرب دون استثناء.
- (5) - التمثيل بالموتى وهتك الأعراض، فكما مثل الموحدون بقيادة بني غانية كغزي الصنهاجي، وعبد الله بن غانية⁽²⁵⁾ نهج ابن غانية نفس الشيء مع عبد الرحمن ابن منديل المغراوي بالمتيجة على سبيل المثال،⁽²⁶⁾ أما بالنسبة لهتك الأعراض فيكفي الرجوع إلى المصادر التي وصفت ذلك من الجانبين.⁽²⁷⁾
- (6) - عودة الصراع بين الأجنحة البربرية فلقد أعادت هذه الحرب الصراع بين قبيلتي زناتة ومصمودة أي بين مصامدة الدولة الموحدية وزناتة الدولة المرينية⁽²⁸⁾ من جهة وبين مصامدة إفريقية الممثلين في قبيلة هنتاتة ذراع المصامدة الأيمن، وزناتة بني عبد الواد، هذا الصراع الذي عاد إلى بلاد المغرب من جديد على اثر تضعف كيان الدولة الموحدية والذي سمح بظهور ثلاث دويلات جديدة هي الدولة الحفصية، والدولة المرينية، والدولة الزيانية وما صاحب ذلك من صراع حربي فيما بينها لبسط النفوذ كل واحدة على حساب جارتها⁽²⁹⁾.

III النتائج العمرانية و الدينية: 1- العمرانية:

- دخل بنو غانية إلى بجاية في سنة 580 هـ / 1184 م من باب اللوز مما جعلها ميدان حرب لم يسلم منه سوى قصر اللؤلؤة⁽³⁰⁾ شأنه في ذلك شأن قلعة بني حماد التي حاصروها ودخلوها عنوة، وانتقلوا منها إلى جزائر بني مزغنة، المتيجة، مليانة، تيهرت، تلمسان وغيرها التي جاء ذكرها على لسان ابن خلدون من جراء ضراوة تلك الحرب مشيرا إلى: "...أنها لم تبصر بها نارا... ولا صرخت بها آخر الديكة..."⁽³¹⁾ تعبيرا عما أصابها من تخريب وتدمير، ونفس هذه الأعمال التخريبية شهدتها إفريقية في كل من قفصة، توزر، صفاقس،... إلخ⁽³²⁾.

2- النتائج الدينية:

أعادت هذه الحرب ذلك الصراع الذي أذكاه المهدي بن تومرت بين المصامدة والمرابطين⁽³³⁾ الذين وصفهم بالكفرة، والمجسمين لتستعمل هذه العبارات من جديد بين القوتين على اثر إعلان بنو غانية ولاءهم للخلافة العباسية،⁽³⁴⁾ والذي قابله الموحدون باللجوء إلى توظيف كلمات ذات صبغة دينية: كالفاسق، الكافر، واللعين ذكرت على المنابر بخطب الأئمة، أو في رسائل متبادلة تبارى كاتبوها في استعمال أقسى وأبشع عبارات الوصف بين الإخوة الأشقاء⁽³⁵⁾. نصف قرن من الصراع بين القوتين الموحدية وبقايا الدولة المرابطية كانت كافية للإتيان على الأخضر واليابس، فدمرت البنية التحتية الاقتصادية والاجتماعية لكلتا الدولتين، مخلفة خسائر فادحة في جميع الميادين وكان المستفيد الوحيد من هذه الحرب هم النصارى الذين استفادوا من هذا الصراع ليحولوه إلى انتصارات استردوا من خلالها معظم المناطق الإسلامية في الأندلس ليكمل أحفادهم فيما بعد هذه المهمة بالسيطرة على غرناطة آخر معقل إسلامي، فضاعت الأندلس نهائيا من يد المسلمين، بل والأدهى والأمر من ذلك هو مطاردة النصارى للمسلمين الأندلسيين في أي مكان حلوا به واستعملوا تلك المطاردة كذريعة للاحتلال المناطق الإسلامية في المغرب الإسلامي (التحرشات الأسبانية والبرتغالية على شمال إفريقيا) الذي لم يتمكن من الوقوف في وجه قواتهم الزاحفة إلا بعد تدخل الأتراك⁽³⁶⁾.

الإحالات :

- ⁽¹⁾ المراكشي: المعجب في أخبار المغرب، تقديم وتحقيق زينهم محمد عزب، دار الفرجاني للنشر والتوزيع 1981 ص 255. ابن أبي زرع: الأنيس المطرب يروض القرطاس، في أخبار ملوك المغرب، وتاريخ مدينة فاس دار المنصور للطباعة، الرباط، 1973، ص 215. ابن عذاري: (2) البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب القسم الموحد، تحقيق إبراهيم الكتاني وآخرون دار الغرب الإسلامي بيروت ط 1، 1985، ص 175.
- ⁽³⁾ ابن خلدون: العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، ج 6 تصحيح فرحان المصطفى دار إحياء التراث العربي، مؤسسة التاريخ العربي، بيروت، لبنان، ط 1، 1999، ص 198.

⁽⁴⁾ Alfred Bel : les benou Ghania ed Ernest le roux, paris, 1903, p 184.

⁽⁵⁾ ALCOVER MIGUEL: El Islam en Mallorca, Escuela typographia provincial. Palma de Mallorca, 1930 p 151. condé Joseph : Histoire de la domination des Arabes et des Moueres en Espagne T2 Lib Alexis Emery, paris 1825, pp. 20-21.

⁽⁶⁾ Fourgous Jean: Iles Baléares Majorque, Minorque, Ibiza, Librairie, Hachette, Paris 1924, p 8.

- ⁽⁷⁾ المراكشي: المعجب في أخبار المغرب، تقديم وتحقيق زينهم محمد عزب، دار الفرجاني للنشر والتوزيع 1981 ص 255. ابن أبي زرع: الأنيس المطرب يروض القرطاس، في أخبار ملوك المغرب، وتاريخ مدينة فاس دار المنصور للطباعة، الرباط، 1973، ص 215. ابن عذاري: البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب القسم الموحد، تحقيق إبراهيم الكتاني وآخرون دار الغرب الإسلامي بيروت ط 1، 1985، ص 175.
- ⁽⁸⁾ ابن خلدون: العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، ج 6 تصحيح فرحان المصطفى دار إحياء التراث العربي، مؤسسة التاريخ العربي، بيروت، لبنان، ط 1، 1999، ص 198.

أشباح يوسف: تاريخ الأندلس في عصر المرابطين والموحدين، ترجمة عبد الله عنان، نثر مكتبة الخانجي، القاهرة، ط 1958، ص 418.

⁽⁹⁾ الكوفر: الإسلام في ميورة ص ص 103-104. سيسالم سالم عصام: جزر الأندلس المنسية، التاريخ الإسلامي لجزر البليار ط 1، دار العلم للملايين، بيروت لبنان، ص 431.

⁽¹⁰⁾ المقرئ: نفح، ج 4، ص 474. ابن خلدون: العبر، ج 4، ص 172.

- ⁽¹¹⁾ المقرئ: المصدر السابق، ص 272. ابن خلدون: المصدر السابق، ج 6، ص ص 175 - 183.
- ⁽¹²⁾ المقرئ: المصدر السابق، ص 472. ابن الأبار: الحلة السيرة، ج 2، تحقيق حسين مؤنس، نشر الشركة العربية للطباعة والنشر، القاهرة 1956، ص 314.
- ⁽¹³⁾ المقرئ: المصدر السابق، ص ص 472-473. الحميري: الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق إحسان عباس، مكتبة لبنان، مصر، ط 1975، ص 58-60.
- ⁽¹⁴⁾ ابن خلدون: المصدر السابق، ج 6، ص ص 175 - 183.
- ⁽¹⁵⁾ المراكشي: المعجب، ص 263، ابن عذاري: البيان، ص ص 245 - 249. برا نشفيك روبر تاريخ إفريقية في العهد الحفصي، من القرن 13 إلى نهاية القرن 15، ج 1 ترجمة حماد الساحلي، دار الغرب الإسلامي، بيروت 1988، ص 41.
- ⁽¹⁶⁾ مجهول: الاستبصار في عجائب المطائر نشر وتعليق سعد زغلول عبد الحميد، دار النشر المغربية، الدار البيضاء 1985، ص 130. ابن عذاري: البيان، ص 135، رشيد بورويبة: الدولة الحفدية تاريخها وحضارتها، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1977، ص 134.
- ⁽¹⁷⁾ ابن حوقل، البكري، الإدريسي، حسن الوزان، الحميري ويمكن الرجوع إليها لمعرفة مدى أهميتها.
- ⁽¹⁸⁾ البكري: المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، نشر البارون دي سالان، مكتبة أمريكا والشرق باريس، 1965، ص 48.
- ⁽¹⁹⁾ أبو الفدا: تقويم البلدان، صححه وطبعه دي سالان دار الطباعة السلطانية، باريس 1840، ص 123.
- ⁽²⁰⁾ التجاني: رحلة التجاني، تقديم حسني عبد الوهاب، المطبعة الرسمية بتونس، نشرات كتابة الدولة للمعارف تونس، 1958، ص ص 138 - 139.
- ⁽²¹⁾ ابن عذاري: المصدر السابق، ص 179.
- ⁽²²⁾ ابن عذاري: المصدر السابق، ص 188. الحميري: الروض المعطار، ص ص 193 - 195.
- ⁽²³⁾ ابن خلدون: العبر، ج 6، ص 197. الحميري: الروض، ص 338.
- ⁽²⁴⁾ ابن عذاري: البيان، ص 181.
- ⁽²⁵⁾ ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج 11، دار صادر للطباعة والنشر، بيروت، 1966، ص ص 520 - 521. التجاني: رحلة التجاني، ص ص 14 - 15.
- ⁽²⁶⁾ ابن عذاري: المصدر السابق، ص 240.
- ⁽²⁷⁾ ابن عذاري: المصدر السابق، ص 186.
- ⁽²⁸⁾ التجاني: المصدر السابق، ص ص 355 - 356. مجهول: مجموع رسائل موحدة من إنشاء كتاب الدولة المؤتمنة رقم 19، إصدار ليفي بروفنسال، مطبوعات معهد العلوم العليا المغربية، رباط الفتح، المغرب، 1941، ص 172.
- ⁽²⁹⁾ ابن عذاري: المصدر السابق، ص 181. مجهول: رسائل موحدة رقم 31، ص 246.
- ⁽³⁰⁾ ابن خلدون: المصدر السابق، ج 7، ص ص 66 - 67.
- ⁽³¹⁾ التجاني: المصدر السابق، ص 147. المراكشي: المعجب، ص 260.
- ⁽³²⁾ ابن زرع: روض القرطاس، ص 281. ابن عذاري: المصدر السابق، ص 266.
- ⁽³³⁾ مجهول: الاستبصار، ص ص 128 - 131. ابن خلدون: العبر، ج 6، ص 175. بورويبة: الدولة الحفدية، ص 208.
- ⁽³⁴⁾ ابن خلدون: المصدر السابق، ج 7، ص 80.
- ⁽³⁵⁾ ابن خلدون: المصدر السابق، ج 6، ص ص 194 - 196. التجاني: رحلة، ص ص 104 - 110، ص 158.
- ⁽³⁶⁾ المراكشي: المعجب، ص 164.

السياسات العامة من منظور حكومي

أ.د. رياض بوريش
جامعة منتوري قسنطينة

تعتبر السياسات العامة للحكومات بأنها مجموعة من النشاطات (القوانين، اللوائح، المراسيم، الخطط، الأفعال، والسلوك) التي تختارها من خلال إدارتها للمجتمعات. تعد الحكومات بصفة عامة نشطة في بلورة وصناعة وتطوير السياسات العامة فكل سنة تصدر العديد من اللوائح والقوانين والمراسيم عن السلطات التنفيذية بالتنسيق مع السلطات التشريعية، تعقبها بعد ذلك مجموعة من التعليمات والإجراءات المفسرة والموضحة من قبل الإدارات التنفيذية. إن موضوع السياسات العامة، يشكل مطلب حق ينبغي فهمه و استيعابه بشكل جيد ضمن الواقع المعاصر، لأنه يؤدي بنا إلي معرفة الأدوار الرسمية و الغير الرسمية في عملية رسم السياسات، و يعيننا على القيام بالواجبات والمطالبة بالحقوق، لأن السياسة العامة تمثل الدائرة المركزية التي تهتم المواطن من النظام المجتمع القطاعي أو من النظام السياسي، لأن الذي يهم الفرد بالدرجة الأولى هو أن يرى وقعا و أثارا لما يفعله النظام وتفعله الحكومات في حياته بطريقة مباشرة بحيث يكون يمس المجتمع القطاعي بشكل مباشر (صحة، إسكان، تعليم، غذاء، طرقات، مواصلات، أمن، رفاه اقتصادي و اجتماعي...).

وبما أن الحكومات تمتلك السلطة على مجموع أفراد المجتمع ولها المسؤولية عنهم، لذلك فإن عليها أن تضع السياسات العامة التي تتناول أفعالها وتصرفاتها ودوافعها. كذلك أن السياسات العامة لا تشمل فقط أفعال الحكومات بل تشمل أيضا امتناعها عن فعل أشياء في حالات معينة. فالسياسات العامة تعرف بأنها تلك النشاطات الحكومية أو القرارات اللازمة لتنفيذ البرامج التي تهدف إلى تحقيق أهداف سياسية، اقتصادية و اجتماعية. توضع السياسات الحكومية عادة باسم الجمهور، وتبادر بها الحكومات، ويحاول كل من القطاعين الخاص والعام فهمها، وتشير إلى ما تنوي الحكومة فعله أو الامتناع عن فعله. فتحليل هذه السياسات العامة يشمل مجموعة متركزات أساسية متجددة : التدخلات الجماعية المنتجة لوسائل حقيقية موجهة للقطاعات المختلفة، طرق واليات الحكومة في تدخلاتها العمومية، المعلومات المطلوبة والخطوات المنهجية في صنع السياسات العامة، مخرجات هذه السياسات وتقييمها ومتابعتها.

السياسات العامة هي طرق الحكومة في التعبير عن فعلها ونشاطها ووجودها، بوصف الحكومة مزيجاً من الأهداف و التطلعات و البرامج، فضلاً عن الأفكار و المراكز و الأبنية و الاختيارات. و يرتبط نجاح السياسات العامة بمراكز الدعم الرسمي و الغير الرسمي، سواء الصانع الرسميون (التنفيذيون، المشرعون، الأجهزة الإدارية والمحاكم) أو الصانع غير الرسميين (جماعات المصالح، الأحزاب، المجتمع المدني والمواطن) ومن ثمة تصبح السياسات العامة قادرة في التأثير على سلوكيات الأفراد وتغيير الظروف الاجتماعية وتحقيق التغيير المطلوب في المجتمع القطاعي، ولكي يتحقق ذلك فإنها تتبنى مجموعة من الأدوات والعناصر التي تتناسب واستخدامات السياسات العامة والبيئة والظروف المحيطة بها. ومن هذا المنطلق تنحصر تساؤلات هذا المقال في الإشكالية التالية: ما هو مفهوم السياسات العامة؟ وخاصة ما هو مفهوم السياسات العامة من منظور الحكومة؟ وما هي أدوات وعناصر صنع السياسات العامة حسب هذا المنظور؟

:

لقد عرفت السياسة العامة كحقل معرفي تطورات و تغيرات منهجية و عملية سواء من حيث تعريفها، مداخل صنعها و حتى طرق تحليلها، و يعود الفضل في ذلك للعديد من الاتجاهات الفكرية (نظرية البيروقراطية، نظرية التنظيمات، نظرية التسيير العمومي...) و خاصة للتطورات الفكرية السياسية الأوروبية و "الأنجلوسكسونية" لاسيما في فترة الستينيات و السبعينيات أي ما بعد الحرب العالمية الثانية أين أصبح التركيز منصبا أكثر على المخرجات بدلا من المدخلات¹. ففي ظل التحول الكبير في وظائف و أدوار الدولة و ظهور مجموعة من الفواعل المشاركة و المتدخلة في صنع السياسة العامة تغير مفهوم مضمون هذه الأخيرة و أصبحت تجسيدا لمحصلة التفاعلات - بأنواعها المختلفة الرسمية و غير الرسمية - القائمة بين هذه الفواعل². إذن من نتائج المجهود الفكري لأعوام الخمسينيات للقرن العشرين انبعاث و بروز مصطلح علم السياسة العامة بطابعه الفكري و التجريبي، الذي تبلور بفضل الجهود الفكرية للعالم الاقتصادي السياسي (هارولد دي لاسويل Harold D Lasswell) الذي قدم من خلال كتابه (السياسة من يحوز على ماذا؟ و متى و كيف؟) أساسا للعمليات التبادلية و التوزيعية للقيم و للمنافع المتضمنة في صنع السياسات العامة و تنفيذ عملياتها³.

وقد ارتبط مفهوم السياسة العامة و ما يختص بعملية تحليلها ضمن هذا التحول الذي طرحه (هارولد دي لاسويل) إلى حد ما و واضح بما يختص بنظام الحكم في أمريكا كما ارتبط ذلك المفهوم أيضا بأفكار المدرسة السلوكية في بداية أعوام الستينيات ، عندما تزايد الاهتمام بدراسة منهج تحليل النظم الذي تحول من تسليط الضوء فقط على

الدولة إلى تسليطه نحو الأبعاد المتعددة التي تشكل حقيقة اجتماعية و نتيجة لهذا التحول أصبحت الجماعات والقوى الاجتماعية هي ركيزة البحث والاهتمام والتحليل، وأصبح مفهوم السلوك هو الرمز المتحكم في دراسة علم السياسة، حيث حل مفهوم النظام محل مفهوم الدولة وتمكنت المدرسة السلوكية من خلال المفاهيم التي اعتمدتها بدراسة الظواهر والقضايا والمشكلات المطروحة أمام المجتمع (دراسة الحقوق السياسية، السلوك الانتخابي، جماعات المصالح...) وصار كل ما يتعلق بالدولة يطلق عليه (مدخلات ومخرجات النظام السياسي)، وهذا كله استدعى إيجاد سبل مناسبة في أدوات البحث العلمي للموضوعات والتحليلات في السياسة العامة، فتم الاعتماد على الجوانب الكمية خلال قياس الرأي العام، وخلال إجراء المسحات وتفعيل الاستبيان وإجراء التجريب في ضوء المناهج الإحصائية الصحيحة⁴.

وبصورة عامة فإن علماء السياسة اليوم قد حولوا اهتماماتهم إلى دراسة قضايا السياسة العامة، من خلال القيام بدراسات عدة في مجالات المجتمع القطاعي، تولى اهتماماً بالمؤسسات السياسية والاقتصادية والاجتماعية فضلاً عن الاهتمام ببنية المؤسسات الحكومية وممارستها و بدور المؤسسات الحكومية والمؤسسات الأهلية في صنع السياسة العامة إلى جانب معالجة قضايا السياسة العامة المقارنة، حيث أصبحت هناك موضوعات خاصة في الجامعات الغربية تدرس بوصفها محاور مستقلة تعنى بها العلوم السياسية مثل (سياسة الرفاه، سياسية التمدن، سياسة مكافحة الجريمة، سياسة حماية البيئة، سياسة الحريات العامة)⁵.

إن مرحلة التسعينيات وما بعدها، في ظل متطلبات القرن الحادي والعشرين، (تغيرات في دور الدولة، ارتفاع مستويات التفاعل بين القطاعين الخاص والعام وتزايد أدوار الشركات المتعددة الجنسيات والمنظمات الحكومية والغير الحكومية) أسهمت في بلورة اتجاهات الحديثة التي ترى أن السياسات العامة ما هي إلا محصلة متجمعة للتفاعلات الرسمية وغير الرسمية، بين عدد من المؤثرين والفاعلين على المستويين المحلي والمركزي والذين هم عادة ما يكونون أعضاء في شبكة منتظمة أصبحت تعرف اليوم بشبكة السياسة (Policy Network) في السياسات العامة⁶. حيث أن هذا المجال العلمي حظي بالاهتمام المتزايد من طرف الباحثين في العديد من الجامعات الغربية إلى حد جعله تخصص قائم بذاته ومهم في العلوم السياسية يدعى السياسة العامة، لكن ما هو ملاحظ على الدراسات العربية في إطار هذا الحقل المعرفي (السياسة العامة) إنها محدودة وضعيفة. فهذا المجال لم يحظى بالاهتمام إلا في السنوات الأخيرة والسبب في التأخر يعود إلى نقص المعلومات حول العملية السياسية و غموض قواعد اللعبة

السياسية في الأنظمة العربية، وكذلك إن هذا العلم الذي يخص النشاط العمومي و التدخل العمومي في مختلف القطاعات (science de l'Etat en action) يعتبر حديث النشأة⁷.

حيث ظهر موضوع السياسات العامة منذ عقود قليلة ماضية كأحد المواضيع التي حظيت باهتمام واسع علي الصعيدين العملي والأكاديمي، فقد نال هذا الموضوع اهتمامات واسعة من قبل المختصين في علم السياسة والإدارة العامة، باعتباره موضوع يرتبط أساسا بوظائف السلطات الرئيسية الثلاثة في الدولة: التنفيذية، التشريعية و القضائية. وما كان لحقل السياسات العامة أن يتطور لولا مساهمة حقول علمية عديدة كالاقتصاد والقانون والإدارة و الاجتماع و الدراسات الكمية وغيرها من العلوم الأخرى وذلك لمساندتها في تغذية صانع السياسة العامة بالمعلومات الاقتصادية، القانونية، المالية، التجارية، الإدارية، الفنية، التقنية..... الخ⁸. إذن عملية تحليل السياسة العامة تقتض من المفاهيم الرئيسية لكل هذه العلوم و بالتالي هذا ما تتطلبه دراسة السياسات العامة من التأكيد علي أهمية الجمع بين المؤشرات الكمية والكيفية في التحليل، والاستعانة بالمنهجية البحثية المستخدمة في العلوم الأخرى.

وتظهر اليوم الحاجة في المجتمعات - سواء علي صعيد مؤسسات المجتمع المناط بها صنع السياسات العامة، أو علي صعيد آليات التنفيذ المختلفة - إلي الاهتمام بهذا الحقل المتنامي، والتعرف علي التجارب الإنسانية فيه كما تظهر الحاجة كذلك إلي أن تساهم مختلف المؤسسات العلمية في تقديم الدراسات العلمية المساندة والمقيمة للظروف المحيطة بموضوع السياسات العامة في مختلف المجتمعات. لكن يمكن أن نشير إلي أن التحدث عن السياسات العامة أمر شائع في الحياة العامة، قد يستخدم المصطلح في إطاره الواسع كالسياسة الخارجية أو السياسة الاقتصادية أو السياسة الاجتماعية أو السياسة الزراعية لبلد ما أو يستخدم في إطار ضيق جدا كالسياسة المتعلقة بتنظيم المرور في الطرقات⁹. فهي إذن ليست موجهة لفرد أو لأحد بذاته وإنما هي تؤثر بعمق في نمط الحياة للمواطنين العامة.

إن مصطلح السياسة العامة يستخدم للإشارة إلي سلوك الفاعل سواء كان مسؤولا حكوميا أو مؤسسة رسمية في نطاق معين و هو معنى له اثر في الأوساط العامة. و هذا المصطلح يعني كذلك ذلك المجال الخاص بالمصالح العامة المسيرة من طرف السلطة الشرعية. لكن ما نحتاجه هنا و نحن نتناول موضوع السياسات العامة من جانب منظور حكومي هو تعريف دقيق يسهل فهم موضوع السياسات العامة. إن أدبيات العلوم السياسية مليئة

بتعريفات هذا المصطلح، و مع محاولة مراعاة الصعوبات التي تثيرها هذه التعريفات الكثيرة نحاول طرح البعض منها في ما يلي:

* تعريف ايف ميني وجون كلود تونين (Meny. Y, Thoenig, J-C.)¹⁰: "إن السياسة العامة هي عبارة عن برنامج عمل حكومي في قطاع من قطاعات المجتمع أو في فضاء جغرافي". حسب هذا التعريف فالحكومة هي الجهاز الذي يحقق التواصل بين الأفراد و أصحاب القرار و بالتالي تشير إلى عملية الحكم من خلال ممارسة وظائف معينة تظهر فيها السياسة العامة للدولة ككل في كل القطاعات و كل الفضاءات الجغرافية . فالحكومة هي الجهاز الذي تعتمد عليه الدولة في صيانة السياسات العامة القطاعية.

* تعريف كارل فريدريك (Carl J. Friedrich)¹¹: "إن السياسة هي برنامج عمل مقترح لشخص أو لجماعة أو لحكومة في نطاق بيئة محددة لتوضيح الفرص المستهدفة و المحددات المراد تجاوزها سعيا للوصول إلى هدف أو لتحقيق غرض مقصود". فالسياسة هنا موجهة نحو أهداف و هذا ما يجعل فيها سلوكا هادفا و موجهها على الرغم من أن أهداف الحكومة قد يصعب فرزها أحيانا على وجه التحديد، و أن المطلوب من السياسة هو بلورة ما يتم فعله و ليس مجرد افتراض أو مقترح يمكن أخذه.

* تعريف جيمس أندرسون (James Anderson)¹²: "فالسياسة هي برنامج عمل هادف يعقبه أداء فردي أو جماعي في التصدي لمشكلة أو لمواجهة قضية أو موضوع". فهذا التعريف يركز على ما يتم فعله في إطار ما يستوجب أو يراد فيه تمييزا للسياسة من القرار الذي هو مجرد من الخيار من بين البدائل.

* تعريف روبرت إيستون (Robert Eyestone)¹³ يقول بأنها: "العلاقة بين الوحدة الحكومية و بيئتها". و هذه السعة و الشمولية تجعل أغلب الدارسين غير متأكدين من حقيقة المعنى و ربما لا يسعفهم بأي تصرف.

* عرفها هارولد دي لاسويل (Harold D. Lasswell)¹⁴ بأنها: من يحوز على ماذا؟ و متى؟ و كيف؟ من خلال نشاطات تتعلق بتوزيع الموارد و المكاسب و القيم و المزايا المادية و المعنوية و تقاسم الوظائف و المكانة الاجتماعية، بفعل ممارسة القوة أو النفوذ، و التأثير بين أفراد المجتمع من قبل المستحوزين على مصادر القوة.

* عرفها توماس داي (Thomas R. Dye)¹⁵ من خلال تعريفات متعددة في سبيل الإلمام بمعطيات النشاط الحكومي: "أنها اختيار الحكومات لما تفعله و ما لا تفعله ضمن مجال معين"، و "توضيح لماهية أفكار الحكومة"،

و "عملية لضبط الصراع بين المجتمع وأعضاء التنظيم"، و "عملية تضبط السلوك و بيروقراطيات التنظيم، و توزيع المنافع و استخلاص الضرائب و غير ذلك". تم التركيز هنا في هذه التعريفات على الاختلاف بين ما تقرره الحكومة و ما تفعله فعلا من أجل ضبط المجتمع القطاعي. و من هنا سوف نقدم تعريفنا للسياسة العامة على أساس أنها: " برنامج عمل حكومي يتضمن كافة القطاعات، يتم وضعه من أجل تحقيق المصلحة العامة و تحقيق رفاهية الفرد و أمنه "، أي أن السياسة العامة "هي علم يهتم بالعمل و النشاط الحكومي الموجه من أجل إيجاد حلول للمشاكل التي يعاني منها المجتمع و الدولة". و لا بد هنا من تحديد بعض المفاهيم للسياسة العامة كما عرفت هنا و على الوجه التالي: إنها تشمل الأعمال الموجهة نحو أهداف مقصودة، فالسياسات العامة في ضوء الأنظمة السياسية هي مجموعة من الديناميكيات تعتمد التغيير، التعديل و التحسين.

- إنها تشمل البرامج و الأعمال التي تصدر عن القادة الحكوميين و ليست القرارات المنفصلة المنقطعة (تشمل المراسيم الصادرة بتشريع القوانين وكذلك القرارات المنفذة لهذه القرارات).
- تشمل السياسات العامة جميع القرارات الفعلية المنظمة و الضابطة للمجتمع القطاعي (معالجة التجارة، التضخم، السكن، الأجور...).

- و قد تكون السياسة العامة ايجابية في صياغاتها مثلما تكون سلبية. فالحكومة قد تتبنى سياسة عدم التدخل (laissez faire) أو رفع اليد (Hands off) في ميدان أو قطاع ما أو إزاء ظاهرة محددة بذاتها، فهي تؤثر بمواقفها و اختياراتها على المعنيين أو جمهور السياسات العامة.

- و قد تكون السياسة العامة هي ذلك الحقل الواسع من المعلومات و الأفكار و القيم التي تخص جميع المجالات و بالتالي هي مجموعة القرارات المتخذة من طرف صناع القرار في شتى الميادين و التي ترمي إلى تحقيق الأهداف المرجوة مع مراعاة البيئة الداخلية و الخارجية.

و أخيرا فان السياسة العامة الإيجابية الآمرة ينبغي أن تكون شرعية و قانونية حتى تصبح ملزمة للخاضعين لها. و يمكن فهم مصطلح السياسة العامة بصورة واضحة حينما نشير إلى العناصر المكونة للسياسة العامة و هي كالتالي¹⁶:

- مطالب السياسة: و تشمل كل ما يطرح على المسؤولين الحكوميين من جانب أبناء المجتمع أم من الرسميين الفاعلين في النظام السياسي، و ذلك للتحرك إزاء قضية معينة أو التوقف عن المضي في اتجاه ما.

- قرارات السياسة: و تمثل ما يصدره المسؤولون الحكوميون المخولون قانونيا و رسميا بإصدار الأوامر و التوجيهات المحركة للفعل الحكومي.
- تصريحات السياسة: و تمثل خطابات و التعبيرات و الإعلانات الرسمية أو التفسيرات و تصريحات الحكومة العامة، و تشمل الأوامر الشفهية و التفسيرات القانونية و الضوابط المحددة للسلوك و آراء الحكام و حتى خطب المسؤولين و شعاراتهم التي تعبر عن مقاصد السياسة العامة.
- مخرجات السياسة: و هي الانعكاسات المحسومة الناتجة عن السياسة العامة و في ضوء قرارات السياسة و التصريحات التي يتلمسها مواطنون من الأعمال الحكومية، فهي تمثل محصلة النتائج الناجمة عن السياسة العامة، و عن عملية تنفيذها بالشكل الذي يمكن معاينتها و التحقق في واقع الحياة العملية .
- عوائد السياسات: و هي النتائج التي يتلقاها المجتمع سواء كانت مقصودة أو غير مقصودة و التي تنجم عن الفعل و الامتناع عنه. و تمثل تلك النتائج المقاسة ذلك التأكيد من كون السياسة العامة خدمت أغراضها التي شرعت من أجلها أم لا. إن مفهوم السياسة العامة معطى عاما في بلورة العلاقات و التفاعلات بين مكونات النظام السياسي و الاجتماعي ككل بما في ذلك العلاقات و الممارسات المتجسدة عن السلوكيات الرسمية و الغير الرسمية، مما يدفع إلى القول بأن مضمون السياسة العامة يتجلى في خصائصها أو سماتها التالية¹⁷:
- إن السياسة العامة هي فعل للمؤسسة الحكومية: أي أن السياسة العامة تمثل خيارات الحكومية و النشاطات الرسمية المستمرة و المتطورة التي تؤديها المؤسسات، فالحكومة هي التي تتبنى سياسة عامة معينة إزاء مشكلة اجتماعية و تصدر بشأنها قانونا أو مرسوما أو تعليمات نظامية.
- إن السياسة العامة ذات سلطة شرعية: تمثل السياسة العامة بعدا هاما من أبعاد الالتزامات القانونية و الشرعية حيث بمجرد إقرارها من قبل صانعيها، لا بد و أن يصدر بشأنها قانون أو مرسوم أو نظام يمنع بدوره أو يجيز تصرفا أو سلوكا معيناً.
- أن السياسة العامة نشاط هادف مقصود: تعكس السياسة العامة ما يعبر عن الغايات المجتمعية و ما يهدف أساسا إلى تحقيق المصلحة العامة، المتفق دستوريا على تحقيقها و إدامتها.
- أن السياسة العامة استجابة واقعية و نتيجة فعلية: السياسة العامة تعبر عن الأمور و المسائل الواقعية التي تشكل مطلبا محسوسا أو ملموسا و ينبغي أن تكون لها مخرجات يمكن إدراكها و معايشتها.

- إن السياسة العامة شاملة و تمتد لعموم المجتمع المقصود بها: إن الحكومات تمارس أنواعا متعددة من السياسات العامة (المادية و الرمزية) في سبيل حماية المصلحة العامة التي تشكل مضمون المصالح المتفاوتة التي تعني فئات المجتمع و شرائحه المختلفة.
 - إن السياسة العامة توازن بين الفئات و الجماعات المصلحية: تتأثر السياسة العامة بقوى كثيرة فعالة تشكل تكتلا مؤلفا من مجموعات المصالح، و هذا هو ما يمكن وصفه بتحالفات المثلاث الحديدية (جماعات المصالح، جهاز التشريعي و الجهاز التنفيذي).
 - إن السياسة العامة قد تكون غير معلنة أو غير مؤطرة بقانون أو نظام: إن صانعي السياسة العامة بمقدورهم وضع سياسة عامة معينة من خلال عدم فعل أي شيء و كأنهم يؤدون شيئا.
 - إن السياسات العامة تعكس ما يسمى الجدوى السياسية: المقصود بذلك تقويا قبليا للأثار المتوقعة من السياسة العامة المتخذة قبل المباشرة بتنفيذها، حيث تشكل مؤشرا هاما من مؤشرات السياسة العامة، بحيث الاهتمام بذلك سوف يوضح قدرة السياسة العامة على مواجهة محددات المشكلة التي تسعى لحلها.
- بعد محاولة إعطاء مفهوم للسياسة العامة، و التطرق للعناصر المكونة لها و خصائصها، انه هناك الكثير من الأسئلة تعد من بين الاهتمامات التي ينبغي لعلماء السياسة العامة الإجابة عليها (هل لبرامج الرفاهية علاقة أو ارتباط بطبيعة السياسة العامة، هل أن الانتخابات تؤثر على اتجاهات السياسة العامة... الخ) و هذه الأسئلة تقودنا إلى السؤال الرئيسي لماذا نشغل بعملية صناعة السياسات العامة ؟ فالجواب المقترح هو أننا ندرسها لأسباب علمية و مهنية و سياسية. لكنه من المهم جدا أن نتعرف على صناعة السياسة العامة و تطورها في ضوء المنظورات الفكرية الحديثة - منها خاصة منظور الحكومة. كما انه أسهم كثير من علماء السياسة في تطوير هذه النماذج و المنظورات التي تتناول صنع القرارات و رسم السياسات العامة و تسهل فهمها و عمليتها، فإنهم طوروا بعض النظريات والاتجاهات لتساعد في دراسة و فهم السلوك السياسي لمجمل النظام السياسي و خاصة في دراسة كيفية "بلورة السياسة العامة". ففائدة هذه المنظورات تتوقف على استخدامها في دراسة الظواهر السياسية و تعميق الفهم و الوعي لأسبابها و جذورها و مضاعفاتها إضافة إلى فائدتها في رسم و إقرار السياسات العامة.

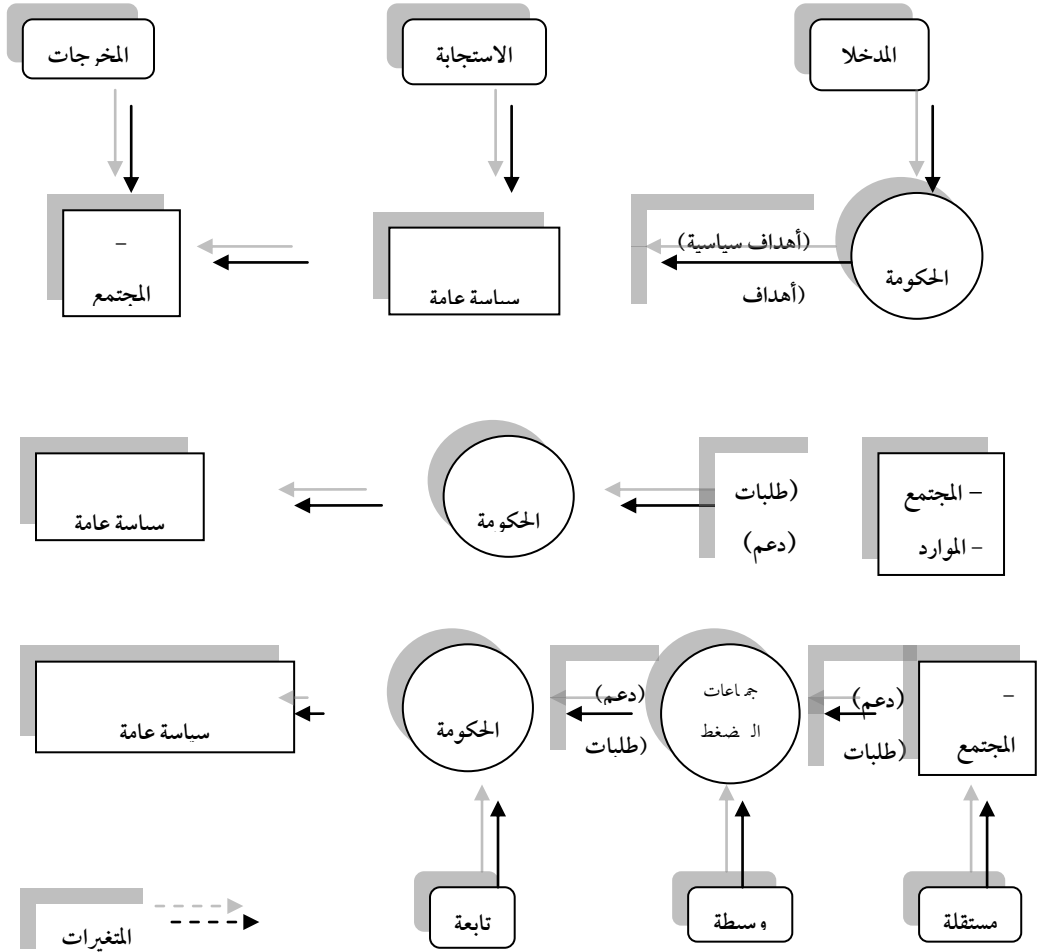
إن الجهات التي تتولى صنع السياسات العامة في حقيقة الأمر هي متعددة و مختلفة عن بعضها البعض، و أن تلك العملية غالبا ما تتضمن جميع صانعي السياسة الذين يعملون ضمن الميدان العمل الحكومي، و آخرين من خارج ميدان العمل الحكومي الرسمي و وضعه التنافسي. فمنهم صانعو السياسة الحكوميون الذين يمثلون السلطات الثلاث التنفيذية و التشريعية و القضائية، و منهم غير الحكوميين من جماعات المصالح و الأحزاب السياسية و المواطنين القادرين في التأثير على صناعة السياسة العامة. و ضمن هذا السياق يمكن أن تكون الجهات الصانعة للسياسات العامة في نمطين أساسيين و هما- صناع السياسة العامة الرسميون و صناع السياسة العامة الغير الرسميين. و يتكون صناع السياسة العامة الرسميون من التنفيذيين و هم المسؤولون السياسيون المعنيون بأداء الحكومة و النهوض بأعبائها في المجتمع بدءا من الرئيس أو الوزير الأول، فالوزير، و ممن لديهم سلطات حقيقية في سن القوانين و النظم و تنفيذها.

يؤكد فهمي خليفة الفهداوي¹⁸ على أن الحكومة سلطة تمارس السيادة في الدولة لأجل حفظ النظام و تنظيم الأمور داخليا و خارجيا، فضلا عن كونها بنية تنظيمية، تتمثل بالأجهزة و المؤسسات التي تقوم بوضع القواعد القانونية و تنفيذها، إلى جانب كونها كممارسة تمثل عملية اتخاذ القرارات و رسم السياسات العامة داخل الأجهزة و المؤسسات الحكومية، و كيفية انسياب العلاقة بين التنفيذ و التشريع و القضاء. فان السياسة العامة يمكن النظر إليها من خلال كونها ممارسة لاتخاذ القرارات و رسم السياسات العامة في سبيل صيانة بنيتها التنظيمية و ممارسة أعمالها لأجل حفظ النظام و الأمن لمجتمعها داخليا و خارجيا. كما تطرق دي كوسولاس¹⁹ (D.G. Kousoulas) للسياسات العامة بأنها " تلك القرارات و الخطط التي تضعها الهيئات الحكومية من اجل معالجة القضايا العامة في المجتمع".

إن المنظور الحكومي للسياسة العامة يعكس اهتماما بارزا بفعل التغيرات الوطنية، الإقليمية والدولية، التي تشهدها الحياة السياسية لبلدان العالم²⁰ حيث تشكل السياسة العامة واحدا من أهم الموضوعات الهامة التي لها وزنا بالنسبة لمستقبل الحكومات ولقدراتها على التواصل مع مصالح مجتمعاتها وشعوبها، من خلال كون السياسات العامة تفصح عن حقيقة النتائج المتحققة عن اختيارات الحكومة لإحداثها و برامجها مم يتيح عملية تحليل أداء المؤسسات السياسية و الإدارية التي تطلع بمهام صنع و تنفيذ السياسة العامة.

ومن الجدير بالقول أن السياسة العامة هي مجموعة من القواعد و البرامج الحكومية التي تشكل قرارات

أو مخرجات النظام السياسي بصدد مجال معين ، فهذا التعريف يتفق مع المنظور الحكومي للسياسة العامة و يمثل منطلقا عمليا في دراسة جوانبها و ممارساتها المصاحبة و المؤثرة في عملية صنع السياسات العامة. و من خلال هذا الطرح يتم السعي إلى تعزيز دور السياسة العامة من خلال منظور الحكومة، بالشكل الذي يجعل من هذه الأخيرة و بحسب الموقف متغيرا تابعا أو متغيرا مستقلا و لها القدرة على التفاعل و على الاستيعاب للمتغيرات الوسيطة و المعدلة التي تمثلها الأحزاب و الجماعات المصلحية و الضاغطة، تجاوبا مع روحية النظام المفتوح، حيث تصبح أدوار الحكومة متعددة إزاء حركية المدخلات و المخرجات، و تترسخ أدوارها في السياسات العامة في إطار الديناميكية و الحركية و قوتها الفاعلة. فالنموذج الأتي المقترح في الرسم البياني الموالي المقدم من طرف فهمي خليفة الفهداوي، يوضح السياسة العامة من منظور استجابة الحكومة و أدوارها:



ومن هذا الرسم الذي يوضح السياسة العامة من منظور استجابة الحكومة و تحول أدوارها حاول فهمي خليفة الفهداوي توضيح أن السياسة العامة هي تلك المنظومة الفاعلة (المستقلة و المتغيرة و التكيفية و التابعة) التي تتفاعل مع محيطها و المتغيرات ذات العلاقة من خلال استجاباتها الحيوية (فكريا و فعلا) ، بالشكل الذي يعبر عن نشاط مؤسسات الحكومة الرسمية و سلطاتها المنعكسة في البيئة الاجتماعية المحيطة بها بمختلف مجالاتها ، عبر الأهداف و البرامج و السلوكيات المنتظمة ، في حل القضايا و مواجهة المشكلات القائمة و المستقبلية ، و التحسب لكل ما ينعكس عنها ، و تحديد الوسائل و الموارد البشرية و الفنية و المعنوية اللازمة و تهيئتها ، كمنطلقات نظامية هامة

لأغراض التنفيذ و الممارسة التطبيقية و متابعتها و رقابتها و تطويرها و تقويمها، لما يجسد تحقيقا ملموسا للمصلحة العامة المشتركة المطلوبة في المجتمع²¹.

من كل ذلك نخلص إلى القول بان السياسة العامة من منظور استجابة الحكومة و تحول أدوارها ليست تحديد للمشكلة والوقوف عند أسبابها وحلولها، بل هي أيضا مجموعة من المتغيرات المستقلة و الوسيطة (المجتمع، الموارد، طلبات سياسية و دعمها، جماعات الضغط و الأحزاب...) تساهم بصورة فعالة في تحديد موقف اتجاه قضية معينة كقضية عامة، يستدعي التعامل معها توافر مجموعة من المعايير و العناصر سواء تعلق الأمر بتلك الأدوات التقنية المرتبطة بممارسة السلطة العامة من طرف الحكومة كمتغير تابع أو مستقل لبلوغ الاستجابة، مثل طرق تدوين الأولويات في الأجندة السياسية، أو تلك الأدوات المتعلقة بالمعطيات المجتمعية و السياسية ذات التأثير المباشر في السلوك السياسي لصانعي السياسات العامة و في الجمهور المعني ببرامج السياسة العامة و مخرجاتها. فالسياسة العامة من هذا المنطلق هي عملية تتغير فيها أدوار الحكومة من أجل بلوغ الأهداف المسطرة، و عملية تقنية تتعلق بالوسائل و العناصر القائمة في سبيل تجسيد الخطط و البرامج الحكومية في ضوء البيئة المحيطة و الظروف المستدعية لذلك.

إن موضوع السياسات العامة حقل من الحقول المعرفية الهامة، لذلك وجب استيعابه و فهمه بشكل جيد، لأنه يفضي بنا إلى معرفة ادوار الفواعل الرسمية و الغير الرسمية في عملية صياغة السياسات العامة و بالتالي معرفة ادوار الحكومة المتعددة إزاء حركية النظام السياسي، حيث ترسخ أدوارها في السياسات العامة في إطار تلك الحركية و قوتها الفعالة. إن تعزيز دور السياسة من خلال دور الحكومة يتضح خاصة من خلال دور الحكومة الذي يعبر عن حركية المجتمع، و عن التفاعل الجوهرى بين المعطيات الاجتماعية و السلوكية للبيئة المحيطة، و بين التفاعلات النظامية و السياسية و الإدارية للحكومة و النظام السياسي، بالشكل الذي يجعل من الحكومة و بحسب الموقف متغيرا تابعا أو متغيرا مستقلا، حيث تصبح ادوار الحكومة متعددة إزاء حركية المدخلات و المخرجات.

السياسات العامة هي محصلة التفاعلات بين البرامج الحكومية و الرسمية و المطالب و البدائل التي تحملها الانشغالات المجتمعية، حيث تشكل مطالب المواطنين و المجتمع جملة المدخلات التي يقوم المجتمع القطاعي بتنظيمها و فرزها و تقديمها إلى صناع السياسات العامة (الحكومة) و معالجتها عن طريق المخرجات التي تتمثل في مختلف القرارات و النشاطات السلطوية، ثم تفعيل دور هذه الاستجابة و دور التغذية الراجعة الناتجة عن ردود أفعال المجتمع حيال تنفيذ هذه السياسات بهدف تحسين أثار و مردود السياسات العامة.

الهوامش:

¹ Pierre Muller, Les politiques publiques, que sais-je ? Presses universitaires de France, paris, septembre 2003, pp 8-15.

² Massardier G., « Politiques et action publiques », Editions Dalloz, Paris, 2003, pp1-45 ; Selon Massardier, la multiplicité d'acteurs dans la fabrication des politiques publiques est appelée « le modèle des ajustements mutuels ».

³ فهمي، خليفة الفهداوي، السياسة العامة منظور كلي في البنية والتحليل، دار المسيرة للنشر والتوزيع والطباعة 2001، ص 29.

⁴ نفس المرجع، ص 29

⁵ نفس المرجع، ص 30

⁶ . سلوى الشعراوي جمعة الاتجاهات الحديثة في تحليل السياسات العامة ، جامعة القاهرة ، كلية الاقتصاد و العلوم السياسية ، 2000 ، ص 3.

⁷ . B. Jobert et P. Muller, l'Etat en action. Corporatismes et politiques publiques, Paris, PUF, coll. « Recherches politiques », 1987.

⁸ . Pierre Muller, op.cit.p.3.

⁹ . Ch. O. Jones, an introduction to the study of public policy ; Belmont, Duxbury press, 1970.

¹⁰ . Meny. Y, Thoenig, politiques publiques, paris, PUF, coll. « Thémis », 1989, p. 130.

¹¹ . جيمس، أندرسون (ترجمة الدكتور عامر الكليسي)، صنع السياسات العامة ، دار المسيرة للنشر والتوزيع والطباعة 2002، ص 15.

¹² . نفس المرجع السابق.

¹³ Robert Eyestone, The Threads of public policy: A study in policy Ledearship (Indianapolis: Bobbs-Merril, 1971), p. 8.

¹⁴ Harold. D. Lasswell, Politics: how gets what, when, how, New York meridian books, INC, 1958, pp. 13-17.

¹⁵ Thomas R. Dye, Understanding public policy, 7Ed, New Jersy, prentice hall, England cliffs, 1992, p.2.

¹⁶ . جيمس، أندرسون (ترجمة الدكتور عامر الكليسي)، مصدر سابق، ص 17-18-19.

¹⁷ فهمي، خليفة الفهداوي، مصدر سابق، ص 45-51.

¹⁸ نفس المرجع السابق، ص 34 .

¹⁹ D.G. Kousoulas, On government and politics, 5Ed, New York, Cole publishing, 1984, p2.

²⁰ . خليل، حسين، السياسات العامة في الدول النامية، دار المنهل اللبناني، بيروت، 2006.

²¹ . فهمي، خليفة الفهداوي، مصدر سابق، ص 38.

واقع الحياة الثقافية في منطقة سيدي بلعباس من خلال أعلامها المصلحين.

أ.د. حنيفي هاديلي
جامعة سيدي بلعباس

بعد الاحتلال مباشرة حاولت السلطات العسكرية الفرنسية تنظيم تعليم خاص بالجزائريين لتكوين أفراد موالين لها. فكانت مراسيم تأسيس المدارس والمعاهد العربية الفرنسية والإشراف على التعليم العربي الإسلامي ووضعه تحت الإدارة الاستعمارية⁽¹⁾ كان هذا التعليم مخصص لأقلية معينة من المجتمع بينما كانت الأغلبية منه تعيش في الجهل والحرمان الثقافي، فحت سنة 1882 كانت نسبة تعليم الجزائريين بمعدل واحد لكل ألف تلميذ جزائري. وكانت لسياسة التعليمية الفرنسية التي بدأت تتشكل منذ العهد الإمبراطوري (1852-1870) تهدف إلى القضاء على الثقافة الوطنية ونشر التعليم الفرنسي بين أوساط معينة من السكان لجعلها ميدان تجربتها الاستعمارية.

لقد صرح الحاكم العام الدوق دومال (1847-1848) بأن: "بناء مدرسة في الجزائر أحسن وأفضل من فيلق عسكري". وبهذا استعملت الإدارة الاستعمارية المدرسة والدين كوسيلة لتنفيذ سياستها الاستعمارية في القضاء على الثقافة الوطنية والمقومات الحضارية للشعب الجزائري، بحيث جاء في تقرير أحد الفرنسيين حول هذه الفكرة "أن المدارس والدين سينموان تحت حماية فرنسا ولصالحها"⁽²⁾.

والواقع أنه منذ سنة 1865، بعد زيارة نابليون الثالث للجزائر، بدأت قضية تعليم الجزائريين تلقي نوعا من العناية والاهتمام فقد نادى نابليون الثالث بسياسة المملكة العربية "لأن الجزائر ليست بلاد مستعمرة بالمعنى العام، لأن المفهوم من هذه الكلمة هي أنها مملكة إمبراطور على الفرنسيين وأريد أن أستفيد من شجاعة العرب وشهامتهم على أن استغل فقرهم و يؤسهم"⁽³⁾.

1 - التطور السكاني في منطقة سيدي بلعباس:

تسمح لنا الدراسة الديمغرافية لمنطقة سيدي بلعباس بتحديد عدة معطيات، لأن بفضلها نستطيع معرفة التحول التاريخي الذي شهدته المنطقة في مجال التطور السكاني، فالأحداث التي شهدتها الجزائر خلال الفترة الاستعمارية، سياسية الهجرات والاستيطان الأوربي للجزائر منذ 1848، وحالة الأوبئة والأمراض الفتاكة والمجاعات التي عرفت البلاد بالإضافة إلى تجنيس يهود الجزائر بمرسوم كريميو في 24 أكتوبر 1870، ونتائج الحربين العالميتين، كان له انعكاسات خطيرة على بنية السكان الجزائريين وخاصة خلال الثورة التحريرية (1954-1962)، ويمكننا أن نستقي هذه المعلومات من المصادر المعاصرة للفترة الاستعمارية⁽⁴⁾.

والجدول التالي يوضح لنا تطور سكان منطقة سيدي بلعباس خلال فترات مختلفة⁽⁵⁾.

السنة	عدد الأوربيين	عدد الجزائريين	المجموع
1858	4629 نسمة	822 نسمة	5451 نسمة
1862	5101	2349	7450
1872	12417	/	18593
1936	/	/	51000
1948	34500	29900	64000
1954	36675	43957	80632
1959	34979	66297	101276
1960	34476	65537	100013

ومما يلاحظ من خلال هذا الجدول أن إحصاء السكان الأوربيين في منطقة سيدي بلعباس بدأ مبكراً أي منذ 1837، في حين الإحصاء عند الجزائريين لم يبدأ إلا في سنة 1858، والسؤال الذي يبقى مطروحا هو لماذا تجاهلت إدارة الاحتلال إحصاء السكان ما بين 1830 - 1858 ؟ والجواب على ذلك هو تبريرهم مصادرة أراضي قبائل بني عامر الذين هاجروا كرها وقسرا من ديارهم واستولوا المعمرون على أراضيهم الزراعية. والدليل على هذا التجاهل ما أكدته ليون باستيد **Bastide**: "إن السكان المحليين الذين هم تحت الإدارة العسكرية يبلغ عددهم 35563 فردا "منهم 5091 محارب و2063 فارس"⁽⁶⁾.

استقبلت منطقة سيدي بلعباس أعدادا لا بأس بها من المهاجرين الأوربيين حيث بلغ عددهم سنة 1849 حوالي 516 نسمة، ليرتفع إلى 1243 نسمة في سنة 1851، وفي سنة 1877 سجلنا توافد أعداد كبيرة من المهاجرين حيث بلغ عدد الفرنسيين 4343 نسمة، والإسبان 9686 نسمة، اليهود 427 الذين تجنسوا في إطار مرسوم كريميو 1870.

وتجدر الإشارة هنا أن أعداد الفرنسيين سجلت ارتفاعا متزايدا منذ قدوم موجات المهاجرين من الألزاس واللورين بعد الحرب الفرنسية البروسية 1870، حيث استقرت 8 عائلات في سفيزف و16 عائلة في بوخنيفيس (بوشبكة حاليا)، كما استقرت عائلات أخرى في سيدي لحسن وزروالة وسيدي علي بنوب، كما يلاحظ تكاثر العنصر البشري من الجنسية الإسبانية في سيدي بلعباس وكذا بقية مناطق الغرب الجزائري.

2. وضعية التعليم في منطقة سيدي بلعباس:

في 16 أفريل 1922، زار رئيس الجمهورية الفرنسية السيد ميلران Millerand، رفقة ستاغ Steeg، الحاكم العام للجزائر وليون بيرار L.Bérar، وزير التعليم، منطقة سيدي بلعباس. وخلال هذه الزيارة استقبلهم أحد أعيان المدينة قاستون ليزبون G.Lisbonne وصرح قائلاً: "نملك مدارس ابتدائية وثانوية ومدارس إضافية ومعهد، ونعاهدكم بتأسيس معهد للجزائريين ومدرسة لتدريس تقنيات الفلاحة وورشات للتعليم المهني"، وأضاف قائلاً في مناسبة أخرى: "إننا لا ننسى بأننا أبناء فرنسا الحضارية التي تسعى لنشر معالم الحضارة والرقى والازدهار البشري"⁽⁷⁾.

يجب التذكير أنه حتى سنة 1883 لم يؤسس نظام مدرسي أو تعليمي رسمي يهتم بتعليم الجزائريين والعناية بثقافتهم، فالمهمة التعليمية كانت متروكة للإدارات المحلية، فالكولون الأوروبيون أظهروا عداوتهم للمدارس الجزائرية بدعوى أنها تشكل خطراً عليهم. ولما كان شعار الاستعمار ما قاله لايبنتز Leibnitz: "من يمسك بالمدرسة يتحكم في المستقبل".

أ. التعليم الفرنسي:

بالرغم من أن المدارس الفرنسية فتحت أبوابها بالجزائر ووهران وعنابة منذ 1833، لم تعرف بلدية سيدي بلعباس هذا النظام إلى في سنة 1857 حيث كان يدرس بها 577 طفل أوروبي على يد 4 معلمين وممرن إسرائيلي⁽⁸⁾. وتضاعف عدد التلاميذ من 862 تلميذ سنة 1867 إلى 2529 تلميذ سنة 1877. وفي سنة 1878 تأسست مدرسة Paul Bert القرية من الثكنات العسكرية.

كما شهدت المدينة الأوروبية ميلاد ثانوية للذكور وأخرى للإناث. كما أقر المجلس البلدي تخصيص ميزانية قدرها 200000 فرنك فرنسي لبناء ثلاث مدارس، واحدة للذكور والثانية للإناث والثالثة مختلطة يدرس فيها اليهود المجنسين. وبالموازاة مع هذه المشاريع قامت جمعية بتشيد ثانوية Sonis ومدرسة Fénelon للبنات، وكلاهما ذو طابع ديني⁽⁹⁾. وفي هذا السياق خصص الحاكم المدني لبلدية سيدي بلعباس ميزانية قدرها 4.5 مليون فرنك لإتمام مشاريع تهيئة وبناء المدارس. وفي حدود سنة 1930 شهدت بناء المدرسة الفلاحية على مساحة تتربع على 91 هكتار. وهي الآن تابعة لإدارة رئاسة الجامعة⁽¹⁰⁾.

ومن المعروف أن عدد المدارس تضاعف بمنطقة سيدي بلعباس من خلال إنشاء عدة مراكز استيطانية منها: سيدي ابراهيم (1851)، سيدي علي بن يوب (1859)، سيدي خالد (1863)، ماجنتار الحصية (1870)، تسالة (1874)، سيدي لحسن (1874)، سيدي حمادوش (1874)، سفيزف (1874)، عين الحجر (1877)، لمطار (1875)، بوخنفيس (1875)، طابية (1877).

ب. تعليم الجزائريين:

تمثل سنة 1880 التاريخ الحقيقي لتنظيم تعليم خاص بالجزائريين. ويعتبر مرسوم 13 فبراير 1883 مرحلة جديدة في تاريخ الجزائر الثقافي والتعليمي. ومما جاء في المواد المتعلقة بتعليم الجزائريين ما يلي:

1. تلزم البلديات على تأسيس مدرسة أو مدارس مجانية للأطفال الأوروبيين والأهالي على حد سواء

(المادة: 1، 2، 3، 4).

2. يؤسس نفس التعليم ونفس المدارس لكل من الأطفال الأهالي والأوربيين في البلديات كاملة السلطة والبلديات المختلفة (المادة 38).
3. يعطى التعليم في البلديات الأهلية باللغتين العربية والفرنسية في مدارس خاصة (المادة: 42-43).
4. يثبت مبدأ إجبارية التعليم وإلزاميته.
5. علمانية التعليم وضمان حرية الفكر عند التلاميذ (المادة 35).
6. إحداث كتب خاصة بالتعليم الأهلي (المادة 37).
7. إحداث شهادة خاصة، هي شهادة الدراسات الأهلية (المادة 31).
8. تأسيس هيئة من المدرسين الأهالي (المادة 39).

يمثل تاريخ 1883 حدث هاماً في تاريخ المدرسة الاستعمارية بالجزائر بدون شك، ونلاحظ ولأول مرة منذ الاحتلال، إقامة نظام تعليمي مقنن موجه للجزائريين، ويرجع الفضل في ذلك إلى وزير التربية والتعليم جول فيري (Jules Ferry)⁽¹¹⁾. ماذا حقق مرسوم 1883 لمنطقة سيدي بلعباس، حسب الأحداث الملموسة، لم تطبق هذه المراسيم في المنطقة وكأنها مراسيم ميتة. ولم تطبق إلى بعد أربعين سنة من تاريخ صدور هذا المرسوم. وكان الهدف من هذه الإجراءات التعسفية هو تجهيل أبناء المنطقة. في اجتماع سنة 1908 الذي أقر بضرورة التعليم الزراعي، لوحظ أن أحد أعيان مدينة سيدي بلعباس ALFRED LIS BONNE⁽¹²⁾ كان نائباً لرئيس المجلس الأعلى للجزائر حيث أكد للحاكم العام جونا JONNART (1911-1900) توصيات الكولون والتي تضمنت ما يلي:

■ ضرورة إلغاء التعليم الابتدائي للجزائريين.

■ الميزانية المخصصة تصرف لتعليم وتلقينهم تقنيات الزراعة وتوجيههم نحو التعليم المهني.

كان الجزائريون متعطشين للعلوم وأصناف الثقافة، فهم يريدون التعليم في المدارس الفرنسية التي كانت تقدم له جرعات صغيرة. ولم يكن تبني جونا للمشاريع الثقافية بقصد الرفع من المستوى الجزائريين بقدر ما هو إلا محاولة لتثبيت السيطرة الاستعمارية على الجزائر، فهو القائل: "المدرسة الفرنسية الابتدائية التي تعتبر في فرنسا أساس الجمهورية هي أساس سيطرتنا في الجزائر" وتشير الإحصائيات الفرنسية إلى عدد المتمدرسين من كلا الجنسين والقوميتين الجزائريين والأوروبيين، في شهر أكتوبر 1961⁽¹³⁾.

الأطوار	عدد التلاميذ
الطور الأول	14 220
الطور الثاني	3090
التعليم التقني	628

لن نعرف منطقة سيدي بلعباس مثقفيتها إلا خلال الحرب العالمية الثانية، إنهم أساتذة المستقبل، عبد القادر عزة، والدكتور عبد القادر حساني، كما شهدت الساحة العلمية ميلاد رجال أطباء أمثال د. جليل حسين وبن بارك وأمير بن عيسى⁽¹⁴⁾. تكونت في مدينة سيدي بلعباس مجموعة من الإطارات وخاصة في ميدان الطب والصيدلة، انخرطت في صفوف الحركة الوطنية في إطار حركة الانتصار للحريات الديمقراطية MTLD. وكانت مساهمة المنطقة خلال الثورة قوية في مجال الصحة والاتصال والمعلومات وهذا بفضل الشبكة العلمية الممتلئة في هذه الشخصية.

والواقع أن التعليم لم يتوقف بل استمر وخاصة في عهد رئيس البلدية الشيوعي Rène justabo ما بين 1948-1953، حيث سجلت الإحصائيات حوالي المئات التحقوا بالثانويات والمدارس.

3. التعليم العربي الإسلامي:

قبل أن نتوصل الإدارة الفرنسية في الجزائر إلى إيجاد سياسة حقيقية في موضوع تعليم الجزائريين، كان عدد الزوايا في كل القطر الجزائري حوالي 200 زاوية تشرف على تعليم حوالي 28000 تلميذ من سكان الجزائر⁽¹⁵⁾، وكانت هذه المدارس (الزوايا والكتاتيب) تكون وتحضر الطلاب للالتحاق في المستقبل بالمعهدين المشهورين الزيتونة في تونس والقيرويين في فاس. واستطاعت هذه المؤسسات التربوية والثقافية أن تحافظ على اللغة العربية والثقافة الإسلامية.

لقد حدد مرسوم 16 أبريل 1852 طريقة اختيار مدرّسي الكتاتيب وكيفية دفع أجورهم، وكان جهاز مراقبة تابع لرئيس المكتب العربي يرابط هؤلاء المدرسين وخاصة غير الجزائريين كالمغاربة. وهناك دراسة مستفيضة حول الكتاتيب القرآنية في منطقة سيدي بلعباس خلال العهد الاستعماري قام بها الأستاذ الأزرق أحمد وهو أحد خريجي هذه المدارس حيث يقدم لنا شرحا واضحا لها، فبعد تعريفها ودورها في المجتمع البلباسي، يعطينا قائمة تفصيلية بأسماء لشيوخ الكتاتيب في الأحياء المعروفة بمدينة سيدي بلعباس ونذكر بالخصوص⁽¹⁶⁾.

حي القرابة (الأمير عبد القادر حاليا)

- الشيخ البشير بن سليمان توفي 1937.
- الشيخ أحمد بناعوم توفي 1926.

- الشيخ دحو بويجرة - شهيد.
- الشيخ بخالد بن كابو - صاحب مسجد.
- المفتي أحمد البدوي بويجرة.

حي قمبيطة (بن مهدي حاليا)

- الشيخ عبد القادر بلهاشمي الأزرق
- الشيخ محمد بن زيان

حي كاياصون: (بن بولعيد حاليا)

- الشيخ معزوز توفي 1917
- الشيخ السماحي بن الرميل توفي 1942

حي فيلاج عبور (حي عبد الكريم)

- الشيخ معزوز مولاي أحمد
- الشيخ ابن عبو الجليلي

حي ماميلون (سيدي ياسين)

- الشيخ محمد كعبي بن قندوز
- الشيخ عجال محمد

الكامبو (حي بومليك عبد القادر)

- الشيخ الأكحل ميلود

فيلاج الريح (حي بوان دي جور)

- الشيخ عدة بن ضية بوزيان.
- الشيخ عسال الزلماطي.
- الشيخ البيدري بلحاج.

مدينة سفيزف:

- الشيخ الحاج بن سحنون.

مدينة عين البرد:

- الشيخ غالم غراف.

بلدية تسالة:

- عائلة الأحمر.

لم تعرف منطقة سيدي بلعباس على غرار المدن التاريخية الجزائرية مركزا ثقافيا أو زاوية جامعة للعلوم والشيوخ. إن الذاكرة الجماعية للشيخ بوتليس من شعبة اللحم لم تسجل لنا خلال الحرب العالمية الأولى سوى الشيخ ما خلفه عبد الرحمن التواتي من وأولاد ابراهيم وسي عبد القادر بن ثابت فقيه وفيلسوف من منطقة تسالة⁽¹⁷⁾.

والواقع أن قبائل بني عامر كانت تنتمي إلى الطريقة القادرية، حيث توجد الزاوية الأم بمعسكر. والجدول التالي يوضح لنا الزوايا الموجودة بمنطقة سيدي بلعباس⁽¹⁸⁾.

المنطقة	القادرية	زاوية وزان	الدرقاوية (زاوية بوبريج)	التجانية
سيدي بلعباس	130	/	31	1
تنيرة	10	/	/	
تسالة	28	25	7	
سيدي حمادوش	30	40	/	
سيدي بن يوب	20	/	/	
سيدي خالد	12	/	15	
زبانة	120	350	86	
سفيزف	29	122	/	
تلاغ	93	/	14	
بوخنفس	51	40		
رأس الماء			1	

ويوجد إلى جانب هذه الزوايا بعض المريدين من الزاوية العيساوية والزاوية التيجانية، وبالرغم من ذلك يلاحظ كثرة المريدين للطريقة القادرية. في رسالة بتاريخ 10 سبتمبر 1935 أرسل الحاكم العام **Carde** إلى حاكم عمالة وهران يخبره فيها بافتتاح مدرسة بسيدي بلعباس تحمل اسم الشباب الإسلامي وأمره بغلقها وكانت برئاسة بن حلوش مصطفى، ومع هذا لم تكن هذه المدرسة سوى من الكتابيب القرآنية⁽¹⁹⁾.

وما يجب ملاحظته أنه خلال فترة الخمسينات كثرت المدارس القرآنية وكان من أبرز شيوخها آنذاك، سيد أحمد بناعوم، الشيخ بن كابو، سي لعلا، سي مولاي، سي البشير زواوي، الشيخ الزوير، سي دحو البشير، سي حساني، ومن الغرابة بمكان هذا الحشد الكبير الذي سعت الإدارة الاستعمارية على تشجيعه وهذا راجع بالدرجة الأولى إلى ضرب النشاط التعليمي لشيوخ جمعية العلماء المسلمين الجزائريين في منطقة سيدي بلعباس ومن بين الشخصيات الثقافية التي عرفتها مدينة سيدي بلعباس عبد القادر عزة المولود بالمدينة سنة 1905 وهو من الأوائل الذين تقلدوا منصب مدير ثانوية Laperrine ما بين (1929-1957). والتي أصبحت بعد الاستقلال تسمى بثانوية الجلاء ثم حملت اسمه سنة 1963 لتصبح ثانوية عزة عبد القادر. وهو من الأعلام البارزة في منطقة سيدي بلعباس الذين تحصلوا على شهادة الدكتوراه في الآداب خلال العهد الاستعماري في باريس حيث ناقش أطروحة حول الشاعر بني عامر مصطفى بن براهيم وتكفل بجمع تراثه الشعبي.

والظاهر أن التعليم في الكتابيب القرآنية بالرغم من عدم قضائه على الأمية تمكن من تخريج جيل من المثقفين المحدثين وخاصة في فترة الخمسينات، وفي هذا السياق ننوه بمدرسة الشيخ بن كابو وابنه سي أحمد الذي واصل تعليمه بجامعة الزيتونة بتونس، والشيخ الزبير الذي تكون في القرويين بفاس، وفي المدرسة الحرة (النصر) التابعة لحركة الانتصار للحريات الديمقراطية حيث سي حمة لطرش الذي واصل دراسته بالقرويين والذي كان مدير مدرسة التربية والتعليم (النصر) ما بين 1953-1956. يضاف إليه سي الحبيب بناسي وكلاهما انضما إلى جبهة التحرير الوطني خلال الثورة⁽²⁰⁾.

ومما تجدر الإشارة إليه أن السيد سقال رئيس جمعية التربية والتعليم (النصر) الكائن مقرها في نهج باستور، قد وهب قطعة أرض لبناء مدرسة، وقد كان السيد محمد لطرش ضمن طاقم التدريس لهذه المدرسة ما بين 1952 و 1956. ولم يتقاعس المناضل محمد لطرش عن تثقيف الجزائريين، حيث أكمل مهمته النبيلة لتوعية الجزائريين وهو في معتقل بوسوي **Bassuet** بالضاية ما بين 1956-1960⁽²¹⁾.

عند زيارة الشيخ عبد الحميد بن باديس (1889-1940) رئيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين لمدينة سيدي بلعباس في سنة 1937 لاحظ أن أتباعه يطلقون عليهم تسمية "البدايسية" بدل "الإصلاحيون" وهو الأمر الذي جعله يفكر في بناء المدرسة في حي القراية، فتكاثفت جهود المجتمع البلعاسي في جمع التبرعات من أموال وأدوات البناء إلى أن تم افتتاح المدرسة في سنة 1944، كل القوى الوطنية وعلى رأسها الكشافة شاركت في حفل الافتتاح، كما أطلق عليها اسم التربية والتعليم، وضمنت 200 مقعدا للدراسة. ومنذ بداية عمل المدرسة كانت لها لجنة تتكون من علال سيد أحمد، رئيسا، الحاج بلبنة، محمد طالب، عبد

الدايم و سقال بلعباس. أما إدارة الجمعية فكانت للشيخ الهادي سنوسي ثم جاء بعده سي مصطفى بن حلوش. وفي سنة 1954 أوكلت إدارة المدرسة للشيخ محمد القباطي، في حين أوكلت مهمة التعليم للسادة عبد القادر تيجاني، عمر بوناب، عز الدين محمد. ومن أشهر المساجد في مدينة سيدي بلعباس خلال المرحلة الإستعمارية "المسجد الأعظم" المتمركز في حي بوجو "القرابة" (حي الأمير عبد القادر حالياً) الذي تم تشييده من خلال الهبات و تبرعات ساكنة سيدي بلعباس و بموافقة الإدارة الاستعمارية. وقد أشرف على بناء المسجد الأعظم الشيخ عبد السلام بن أحمد البشير بويجزة قاضي بلعباس و كان ذلك في سنة 1892.

عينت الإدارة الفرنسية الشيخين "أحمد البدوي بويجزة" (1902-1983) الذي تقلد منصب مفتي سيدي بلعباس منذ مجيئه من وهران سنة 1939. و "عبد القادر البشير بويجزة" إمام المسجد. عملا الشيخين طوال فترة تواجدهما بالمسجد إلى عقد حلقات الدرس لطلاب العلم وتنظيم ندوات فقهية كان الهدف منها الوعظ و الإرشاد الديني لفائدة ساكنة سيدي بلعباس في المواسم الدينية.

ومن أشهر من تقلد منصب التدريس في المسجد الأعظم بسيدي بلعباس نذكر المدرس حمود حمدان بن الطيب (من مواليد مدينة الجزائر 1886)، حيث مكث بالمنطقة ما بين 1908-1910 براتب شهري قدر بـ75 فرنكاً فرنسياً. والمدرس بوعلي الغوثي بن محمد (خريج مدرسة الجزائر) و هو من مزدوجي اللغة عين سنة 1907. و من أشهر الشخصيات التي درست بالجامع الأعظم ابن آسنهو بن عدة ما بين 1918-1923 براتب شهري قدر بـ5000 فرنكاً، وكان الكاتب الخاص للطريقة التيجانية و يرافق شيوخها إلى المغرب.

لقد عمل سكان منطقة سيدي بلعباس على توسعة المسجد الأعظم مرتين خلال الفترة الاستعمارية، و هذا تحت إشراف الجمعية الدينية البلعباسية برئاسة المفتي أحمد البدوي. المرحلة الأولى سنة 1942، و المرحلة الثانية سنة 1961. و ساهمت بعض أعراس المنطقة بالمساهمة المادية و كذلك بعض أعيان مدينة سيدي بلعباس و بعض الزوايا كالتجانية و القادرية. وإلى جانب نشاط المسجد الأعظم لعب مسجد الشيخ الحاج بخالد بن كابو دور المنارة الإشعاعية للثقافة العربية الإسلامية في منطقة سيدي بلعباس خلال الفترة الإستعمارية، حيث قصد مركزه العلمي طلاب العلم من مختلف جهات الوطن للإستفادة من دروس اللغة و الفقه و العلوم العقلية و النقلية الذي كان الشيخ يشرف عليها شخصياً، و يتلقى الدعم من المحسنين و الأوفياء للمدرسة.

تأسس المسجد على يد الشيخ بن كابو بخالد رحمه الله عام 1911، و بدأت الدراسة الفعلية فيه سنة 1913. وكان نظام المدرسة يشترط على الطلاب بغرض الالتحاق بنظامها التدريس أن يكون حاملاً لكتاب الله، حتى يتسنى له من تعلم علوم اللغة العربية و فنونها البلاغية و النحوية و الصرفية، ثم ينتقل إلى تلقيه أسس و تعاليم المذهب المالكي من خلال تفقهه في

أمهات الفقه المالكي وأصوله المعترف بها. كدراسة متن ابن عشير و شرح الأجرومية للإمام ابن داوود الصنهاجي المتوفي سنة 723هـ. وبعد نهاية مدة التدريس يقدم الشيخ لطلابه الإجازة. تولى الشيخ بن كابو نفقة مدرسته بما تحتاجه من مصاريف للوافدين عليها و القادمين في كثير من الأحيان من المسجد الأعظم. في فترة الخمسينيات و بعد عودة ابن الحاج بن كابو الشيخ أحمد من جامعة الزيتونة بتونس ساعد أباه في التدريس رفقة الشيخ بشير بويشيرة.

وصفوة القول أن كلا المدرستين، الأولى لحركة الانتصار للحريات الديمقراطية، والثانية لجمعية العلماء ساهمت في تغطية تعليم وتدريب الأطفال الذين بلغ عددهم إلى غاية 1954 حوالي 2000 تلميذ، نهلوا من المدرستين حب الله وحب الوطن وكان منهم الرجال الذين قدموا النفس والنفيس من أجل تحرير الوطن.

الإحالات:

(1) Wahl (M), l'Algérie, Paris 1897, P.318.

(2) للمزيد من التفاصيل أنظر:

Turin (Y), Affrontements culturels dans l'Algérie coloniale, écoles, Médecines, religion 1830-1880, Maspero, Paris, 1971, P.218.

(3) Goldzeiguer (Rey), le royaume Arabe (1861-1870), Alger, 1977

(4) مارس هؤلاء مهنة عمادة البلدية: Cmte.A. Villetard de Prunières, Léon Bastide, léon Adoué.

Villetard (1857-1867).

L.Bastide (1874-1875/1882-1891).

(5) AINAD TABET,R, Histoire d'Algérie, Sidi Bel Abbès, de la colonisation, à la guerre de libération(1830-1962), ENAG, Alger, 1999, P.110.

(6) Léon, Bastide, Bel Abbès et son arrondissement, histoire administrative, Oran, imp., Perrier, 1880, P.60.

(7) Léon, Adoué, de Sidi Bel Abbès, Histoire, légendes, Anecdotes, Sidi Bel Abbès, imp. Rène Roidot, 1927, P.212.

(8) Ibid., P.143.

(9) A.Tabet, op.cit, P.130.

(10) بالرغم من فتح هذه المدرسة وإلى غاية 1962 لم يتكون فيها جزائري واحد ما عدا أبناء القياد و من كان في خدمة فرنسا الاستعمارية.

(11) أنظر الدراسة القيمة حول التعليم في الجزائر: حلوش، عبد القادر، سياسة فرنسا التعليمية في الجزائر، ط1، الجزائر: دار الأمة،

1999، ص 141.

(12) كان هذا الرجل عمدة البلدية وخبير مالي (1908-1928).

(13) Fanny colonna, les instituteurs Algériens, 1883-1939, Alger, OPU, 1975, P.107.

وأيضا: Yacono (X), « la France et les Algériens Musulmans », in Revue historique Janvier- Mars, Sidi Bel Abbes en 1961,Oran, 1961-1970, N° 493, P.132.

(14) ورسالة ماجستير: توفيق، برنو، أمير بن عيسى، ماجستير، جامعة وهران 2005.

وأيضا: للمزيد من التفاصيل حول هذه الشخصيات، أنظر: A.Tabet, op.cit, P.137

Bandieu (L), l'Algérie et la Tunisie, P.251.⁽¹⁵⁾

⁽¹⁶⁾ أحمد، الأزرق، "الكتاتيب القرآنية في منطقة سيدي بلعباس خلال العهد الاستعماري"، في أعمال الملتقى الوطني الأول حول تاريخ منطقة سيدي بلعباس خلال الفترة الاستعمارية 1830-1954، جامعة سيدي بلعباس، سبتمبر 2003، ص ص 103-108.

⁽¹⁷⁾ Depont et coppolani, les confréries religieuses musulmans, Alger, A. Jourdan, 1897, P.312
⁽¹⁸⁾ Ibid., PP.215-217.

⁽¹⁹⁾ بتاريخ 1951، دل إحصاء في القطر الجزائري، إلى وجود 6.064 مدرسة قرآنية تضم 103.804 تلميذ أنظر:

A.Tabet, op.cit, P.141

⁽²⁰⁾ يعود الفضل للمرحوم محمد لطرش وأصدقائه في بناء مدرسة النصر التابعة لحركة الانتصار للحريات الديمقراطية. و أقيمت أول صلاة للجمعة سنة 1952 تحت إمامة سي حمّة (لطرش). وقد بنيت المدرسة على غرار مدرسة جمعية العلماء المسلمين الجزائريين بين سنتي 1950-1952. شيدت المدرسة على أرض تابعة للسيد سقال، واحتوت هذه المدرسة على مصلى وقسمين للتدريس. وكانت أول صلاة جمعة أقيمت فيها كان إمامها محمد لطرش، ولتغطية أعمالها السياسة وتنظيم الشباب، كانت مجالا لتدريس الأطفال لإبعاد الشبهة عن عيون الإدارة الاستعمارية ومغالطتها. أغلقت المدرسة بقرار من الإدارة الاستعمارية الفرنسية سنة 1954.

⁽²¹⁾ للمزيد راجع: أبو القاسم، سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ط1، بيروت: دار الغرب الإسلامي 1998، ج6 و ج7.

رؤية إسلامية في القانون الدولي العام الوضعي

محمد بركة

جامعة سيدي بلعباس

لم يكن ليتفق الفقهاء و الباحثين على تسمية القانون الدولي العام، فمن قانون الأمم أو الشعوب إلى قانون الدول المسيحية و غير ذلك من التسميات، لكن المتفق عليه أن القانون الدولي العام هو (مجموعة القواعد القانونية التي تحكم و تنظم المجتمع الدولي، و ما يقوم في إطاره من علاقات بين أشخاصه القانونية)¹. إن القانون الدولي العام كما أُنْفَق على تسميته مؤخرًا ليس وليد الحضارة الأوربية كما ادعى بعض الكتاب الغربيين، و إنما كان للحضارات الشرقية و لاسيما الحضارة الإسلامية صبغتها في صياغة قواعد و أحكام القانون الدولي العام. فبعد فحص المادة 38 من النظام الأساسي لمحكمة العدل الدولية المتعلّقة بمصادر القانون الدولي العام، نرى أن هذه المصادر تعتمد أساسًا على المعاهدات و الأخلاقيات المعمول بها في الأمم المتحضرة لاسيما في الحضارة الإسلامية.

الآن، و المسلمون يشكلون الغالبية الساحقة من السكان في أكثر من ثلاثين دولة آسيوية و إفريقية و دولتين أوروبيتين، و هناك مسلمون تتراوح أعدادهم بين بضع الآلاف و مئات الآلاف، و أحيانًا تصل إلى أكثر من مليون في معظم أقطار الدنيا من أقصى الشرق لأقصى الغرب، و في أماكن عديدة تنهض مآذن المساجد و ترتفع أصوات الداعين إلى الله وحده رب السماوات و الأرض و لرسوله الأمين محمد بن عبد الله صلى الله عليه و سلم. لذلك و في خضم المستجدات السريعة في الأوضاع الدولية و أهمية وضع المسلمين الذين يزيد عددهم على المليار في الكثير من القضايا،

و جب تحديد موقف الشريعة الإسلامية في القانون الدولي العام.

لا يزال البعض يظن أن ليس للشريعة الإسلامية كلمة في مجال القانون الدولي العام، و ما يسمى بالقانون الدولي الإسلامي ليس إلا بعض الوصايا الواردة في الشريعة الإسلامية و التي لا تعتبر قانونًا دوليًا. كما زعم بذلك بعض المستشرقين الذين يكونون في نفوسهم حقدا و كراهية شديدة للإسلام. إن الشريعة الإسلامية استطاعت منذ أكثر من أربعة عشر قرنًا، و في زمن اتسم بالفوضى و القهر و الاستعباد، إرساء قواعد نظام سام و مبتكر يقوم على مبادئ الأخلاق و الفضيلة و الإنسانية.

فالدين الإسلامي الحنيف لا يقتصر على تأدية العبادات و العقائد الدينية فحسب، بل هو نظام أخلاق

و اجتماعي و قانوني. و الشريعة الإسلامية شريعة أصيلة قائمة بذاتها، غير مقتبسة، و لا منقولة عن أي نموذج أجنبي، لها أصولها الخاصة و تاريخها المجيد، و هي مستقلة تمام الاستقلال عن القانون الروماني، و هذا ما أقرته المؤتمرات الدولية للقانون الدولي المقارن، و لاسيما مؤتمر لاهاي لعام 1937، و أثبتته مندوبو الدول العربية في مذكراتهم المقدمة عام 1939 إلى عصبة الأمم، و إلى مؤتمر الأمم المتحدة المنعقد في سان فرانسيسكو في الولايات المتحدة عام 1945.

و في هذه المؤتمرات تأكد أن الشريعة الإسلامية شريعة قائمة بذاتها، و أنها تعد مع الحضارة الإسلامية من الأنماط الكبرى و النظم القانونية الرئيسية في العالم، بالمعنى المقصود في المادة التاسعة من نظام محكمة العدل الدولية⁶. كما يعتبر الإمام عبد الرحمن الأوزاعي و الإمام محمد بن الحسن الشيباني رائدين في وضع أسس القانون الدولي، ليس عند العرب و المسلمين فحسب، بل في العالم أجمع. في منتصف القرن التاسع عشر تبرأ الدين تماما من طبيعته الدينية و قطع صلته بالمعتقدات و المذاهب اللاهوتية، و أصبح القانون الدولي المسيحي من ذكريات التاريخ، و إن كان لا يزال لحد الساعة الكثير من الكتاب و جهات عديدة تبذل قصار جهدها في سبيل قيام قانون دولي مسيحي. لا يمكننا نفي أن الدين لم يفقد نفوذه بعد في مجال القانون الدولي العام في عصر غير متجانس في كل جوانبه، ففي وقت قريب نجد أن الدين كان مصدر الأمور الداخلية لاسيما في تركيا عهد الخلافة العثمانية أو كما كانت روسيا أين اعتمدت القيصرية على الدين تماما.

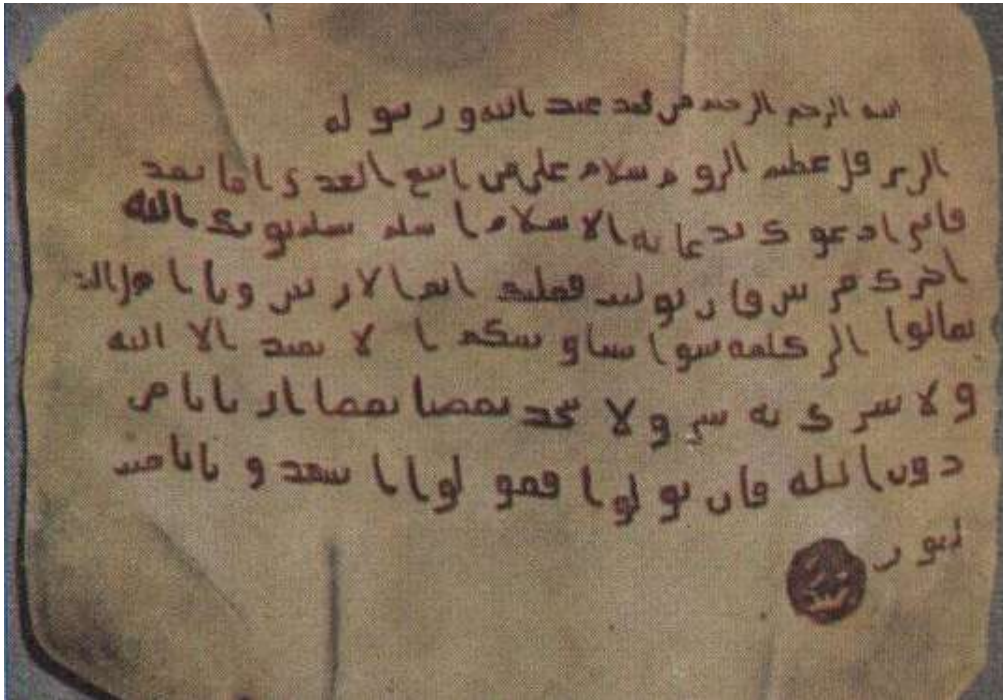
يبقى من الصعب تخصيص قواعد في القانون الدولي العام متعلقة بالأمور الدينية ترضى و تقبل بها جميع الدول، لكن الإسلام كان سباقا في فرض الكثير من الأحكام و المبادئ، و لاسيما المتصلة بمبدأ الشرف الدولي و العدالة الإنسانية و السلم العالمي - خصوصا إذا تذكرنا بأن الشريعة الإسلامية تقوم على عقيدة تلزم المسلم بتنفيذ أحكامها، بخلاف القانون الدولي الوضعي، إذ هناك خلاف كبير بين شراح هذا القانون حول مدى إلزاميته، فهو بنظرهم مجرد مبادئ يمكن للدول الخروج عليها - و فيما يلي أهم هذه المبادئ و الأحكام :

- عدم شرعية استخدام القوة لنشر الدعوة الإسلامية، فقد وردت نصوص صريحة تمنع الإكراه على اعتناق الدين، كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِنَّا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ العنكبوت، الآية 46.

وجود الجهاد كفريضة على المسلمين للدفاع عن حقوقهم إذا انتهكت لقوله تعالى: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين﴾ البقرة، الآية 190، وهو أمر قريب من الحالات التي يميز فيها وفي ضوء هذه الأصول والمنطلقات يتبين لنا محاور قواعد السلم والأمن في مظلة الإسلام وهدية وتشريعه وممارسة المسلمين، قال تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا دُخُلُوا فِي السَّلَامِ كَآفَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطَوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ [سورة البقرة آية 206]، وهكذا كانت دعوة النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه وأتباعه بالتقيد برسالة واحدة في توجيهها إلى الملوك والأمراء والقادة في العالم ونصها ﴿أسلم تسلم، وإلا فعليك إثم الأريسين﴾.

القانون الدولي استخدام القوة بحجة الدفاع الشرعي المنصوص عليه في المادة 51 من ميثاق الأمم المتحدة.

رسالة الرسول صلى الله عليه وسلم إلى هرقل قيصر عظيم الروم.



- كما أن القواعد الإنسانية التي حوتها أحكام الشريعة الإسلامية والتي سبقت معاهدات جنيف بخصوص حماية المدنيين والأسرى لقوله صلى الله عليه وسلم: ﴿استوصوا بالأسارى خيراً﴾¹⁰.
- أوجد الفقهاء تقسيماً نظرياً للعالم إلى مجتمعين متميزين، هما دار الإسلام أو دار العدل و دار الحرب أو دار الشرك، والعلاقات بين الدارين نظمها أحكام فقهية رائدة خالدة بين العصور. و الحق أن الفقه الإسلامي كما قرر الإمام الشافعي، وهو المقرر في القانون الدولي المعاصر يجعل الدنيا داراً واحدة، فإذا اختلف الأمن وحلت الحرب محل السلام، وجدت منطقتان إحداهما سلمية وأخرى حربية. ولا مجال هنا للمقارنة بين موقف جروسيوس ومن ساندته من فقهاء القانون الدولي العام بعد ذلك بعدة قرون، أين تصوروا العالم قسمين، قسم متمدن هو الدول المسيحية التي أنشئوا لها القانون الدولي العام، وقسم همجي هو باقي الدول.
- نرى أيضاً أن من أهم حقوق الإنسان العامة، المساواة والحرية، فقد ادعت الأمم الديمقراطية الحديثة أن العالم الإنساني مدين لها بتقرير هذين الحقين، فذهب الإنجليز إلى أنهم أعرق شعوب العالم في هذا السياق، وزعم الفرنسيون أن هذه المبادئ كانت وليدة ثورتهم، وأنكرت أمم أخرى على الإنجليز والفرنسيين هذا الفضل و ادعته لنفسها.
- و الحق أن الإسلام هو أول من قرر المبادئ الخاصة بحقوق الإنسان في أكمل صورة وأوسع نطاق، وأن الأمم الإسلامية في عهد الرسول عليه السلام والخلفاء الراشدين من بعده كانت أسبق الأمم في السير عليها.
- لقد تواترت الدولة الإسلامية منذ عهد الرسول عليه السلام والخلفاء الراشدين على ابتعاث الدعاة وإيفاد السفراء إلى الدول والممالك المجاورة والبعيدة لغرض نشر الدعوة وتعريف غير المسلمين بأحكامها. ولضرورة وأهمية تبادل الرسل والسفراء في نطاق العلاقات الخارجية للدولة الإسلامية، تواترت المصادر الأصولية للشريعة الإسلامية - قرآناً وسنة - على ترسيخ وتوكيد الأعراف الدولية المستقرة بشأن حصانة المبعوثين الأجانب وإحاطتهم بكل مظاهر التكريم والحماية بما يعينهم على الاضطلاع بالمهام المنوطة بهم على خير وجه. ومع أن تبادل البعثات الدائمة والمقيمة لم يكن أمراً معروفاً أو مألوفاً لدى أعضاء الجماعة الدولية طيلة العهود الأولى للدولة الإسلامية، إلا أن الأحكام العامة للشريعة تكفل للمسلمين تبادل مثل هذا النوع من التمثيل الخارجي¹¹.

لقد طفت إلى الواجهة النزاعات الدينية لتحتل مكان الحروب كمصدر يهدد السلام العالمي، هذه النزاعات التي انتشرت في عدة أماكن من آسيا وإفريقيا، في الوقت الذي خفت أو انعدمت في غالبية الدول الغربية. فنحن في عالم يعاني من تشنجات ومكائد ومؤامرات الشعوب والدول الأخرى، و تركز ذلك فيما يسمى بالنظام العالمي الجديد بعد انهيار الاتحاد السوفيتي والمعسكر الاشتراكي، وسقوط الشيوعية وهزيمتها على أرض الواقع، وانفراد الولايات المتحدة بقيادة العالم، وتوالى الإعلانات الرسمية والتصريحات من كبار المسؤولين في أوروبا وأمريكا، أنه لم يبق بعد سقوط الاشتراكية إلا الإسلام بصفته عنصر مواجهة، لإضعافه في الساحة الدولية بمختلف الوسائل. وما المحاولات السلمية في الشرق الأوسط إلا مقدمة لفرض التفوق الإسرائيلي في المنطقة وخدمة المصالح الاستعمارية، أو في منطقة الخليج (حرب 1990 و حرب 2003)، وكذلك الوضع في البوسنة والهرسك، وأفغانستان وغيرها من البقاع الإسلامية.

لذلك إن الحاجة اليوم إلى قواعد دولية إسلامية ضرورية وملحة في الوقت الراهن، لكي تعيش الإنسانية في ظلها بأمن وأمان، وتتوحد الدول الإسلامية بكنفها على الأقل في تحركها الخارجي وتعاملها الدولي، و انفتاحها على الشعوب الأخرى و حوارها الحضاري معهم، وإسهامها في ترشيد قواعد القانون الدولي العام الوضعي وتلافي عيوبه وإشكالياته، وسعيها لصنع السلام العالمي الشامل الذي لا بد أن تنعم البشرية في ظلله بأمن و حرية و سلام.

الإحالات :

¹ - د. أحمد أبو الوفا. الوسيط في القانون الدولي العام. الطبعة الأولى. 1995 / 1996. دار النهضة العربية. القاهرة.

² - نص المادة 38 من النظام الأساسي لمحكمة العدل الدولية : "1 - وظيفة المحكمة أن تفصل في المنازعات التي ترفع إليها وفقاً لأحكام القانون الدولي، وهي تطبق في هذا الشأن: (أ) الاتفاقات الدولية العامة والخاصة التي تضع قواعد معترفاً بها صراحة من جانب الدول المتنازعة. (ب) العادات الدولية المرعية المعتبرة بمثابة قانون دل عليه تواتر الاستعمال.

(ج) مبادئ القانون العامة التي أقرتها الأمم المتحدة. (د) أحكام المحاكم ومذاهب كبار المؤلفين في القانون العام في مختلف الأمم ويعتبر هذا أو ذاك مصدراً احتياطياً لقواعد القانون وذلك مع مراعاة أحكام المادة 59.

لا يترتب على النص المتقدم ذكره أي إخلال بما للمحكمة من سلطة الفصل في القضية وفقاً لمبادئ العدل والإنصاف متى وافق أطراف الدعوى على ذلك".

³ - الإستشراق هو تعلم علوم الشرق الإسلامي، وتطلق كلمة الإستشراق على الدراسات التي يقوم بها غير المسلمين - من اليهود

و النصرارى ونحوهم - للدين الإسلامى، و علوم المسلمين، و تاريخهم، و لغتهم، و أوضاعهم السياسية و الثقافية و الاجتماعية. و المستشرق هو العالم الذى يشتغل بتلك الدراسات، و أغلب المستشرقين يهدفون من دراساتهم تشكيك المسلمين في معتقداتهم و تراثهم التاريخي و الفقهي، و إضعاف روح المقاومة الروحية و المعنوية في نفوس المسلمين.

انظر : محمود حمدي زقزوق، الإستشراق و الخلفية الفكرية للصراع الحضاري، دار المعارف، القاهرة، 1997. ص 18.

⁴ - لقد قال المستشرق " شيلدون أموس " بصريح العبارة : " إن الشرع المحمدي ليس إلا القانون الروماني للإمبراطورية الشرقية معدلاً وفق الأحوال السياسية في الممالك الغربية ". عن : محمود حمدي زقزوق، الإستشراق و الخلفية الفكرية للصراع الحضاري، دار المعارف، القاهرة، 1997. ص 107.

⁵ - اسماعيل التلاوي. دور القوانين الدولية و الشرائع السأوية في حماية المدنيين في زمن الحرب.

⁶ - نص المادة التاسعة من النظام الأساسي لمحكمة العدل الدولية :

" على الناخبين عند كل انتخاب، أن يراعوا أنه لا يكفي أن يكون المنتخبون حاصلًا كل فرد منهم على المؤهلات المطلوبة إطلاقاً، بل ينبغي أن يكون تأليف الهيئة في جملتها كفيلاً بتمثيل المديئات الكبرى و النظم القانونية الرئيسية في العالم."

⁷ - خلف الفقيه محمد بن الحسن الشيباني كتباً كثيرة في الفقه و الأصول و مسلك الدولة الإسلامية في حالة الحرب و السلم و التجارة، و غيرها من المواضيع التي تعتبر من صلب القانون الدولي، و للتدليل على أهمية و فضل و تأثير الفقهاء المسلمين و الشريعة الإسلامية في مجال القانون الدولي، فقد أسس بعض الفقهاء و المهتمين جمعية الشيباني للقانون في ألمانيا عام 1955، كما احتفلت جامعة باريس عام 1970 بذكرى مرور ألف و مائتي سنة على وفاته. و قد تأثر كبار الفقهاء الدوليين في الغرب بما وصل إليهم من أفكار و نظريات و اتجاهات غربية و إسلامية في القانون الدولي. و كان العلامة الهولندي جروسيوس GROTIUS قد اطلع على ما كتبه الشيباني أثناء نفيه إلى الأستانة عندما وضع كتابه " قانون الحرب و السلم"، و تأثر بما كتب، لدرجة أن المفكر بورغشتال J. H. VON PURGSTALL وصف الشيباني بأنه جروسيوس المسلمين.

⁸ - الشعب من الزراع و الصناع و التجار و غيرهم.

⁹ - المادة 51 من ميثاق الأمم المتحدة : " ليس في هذا الميثاق ما يضعف أو ينتقص الحق الطبيعي للدول، فرادى أو جماعات، في الدفاع عن أنفسهم إذا اعتدت قوة مسلحة على أحد أعضاء "الأمم المتحدة" وذلك إلى أن يتخذ مجلس الأمن التدابير اللازمة لحفظ السلم و الأمن الدولي، و التدابير التي اتخذها الأعضاء استعجالاً لحق الدفاع عن النفس تبلغ إلى المجلس فوراً، ولا تؤثر تلك التدابير بأي حال فيها للمجلس - بمقتضى سلطته و مسؤولياته المستمرة من أحكام هذا الميثاق - من الحق في أن يتخذ في أي وقت ما يرى ضرورة لاتخاذ من الأعمال لحفظ السلم و الأمن الدولي أو إعادته إلى نصابه".

¹⁰ - أخرجه الطبراني عن أبي عزيز الجمحي، و هو حديث حسن.

¹¹ - د. أحمد عبد الويس شتا. الأصول العامة للعلاقات الدولية في الإسلام وقت السلم - دراسة في تحليل أهم أدوات العلاقات الخارجية للدولة الإسلامية - الطبعة الأولى. المعهد العالمي للفكر الإسلامي. القاهرة. 1996. ص 168.

الدولة والروابط الاجتماعية

من أجل مقارنة سوسيولوجية

د. محمد قدوسي

جامعة سيدي بلعباس

يقول مكيافيلي في مجال السياسة الواقعية: " لما كان من قصدي أن أكتب شيئا يستفيد منه من يفهمون، فاني أرى أنه من الأفضل أن أمضي إلى حقائق الموضوع بدلا من تناول خيالاته، لا سيما وأن الكثيرين قد تخيلوا جمهوريات وإمارات لم يكن لها وجود في عالم الحقيقة وأن الطريقة التي نحيا فيها، تختلف كثيرا عن الطريقة التي يجب أن نعيش فيها، وأن الذي يتنكر لما يقع سعيا منه وراء ما يجب، إنما يتعلم ما يؤدي إلى دماره بدلا مما يؤدي إلى الحفاظ عليه".¹ يقر أغلب الملاحظين على أن الدولة تعتبر أكبر ابتكار سياسي شهدته المجتمعات الإنسانية عبر الأزمنة.

فحسب رواد الفلسفة السياسية، مثل المفكرين كميكيافيلي وهوبز و لوك و روسو وابن خلدون وابن رشد وهيغل... أصبحت تمثل الدولة في نظرهم حقيقة اجتماعية، اقتصادية وثقافية، فأى مجتمع لا يستطيع أن ينشر التطور الحضاري والتنمية الشاملة بدونها، فحتى وإن اختلفت المنطلقات والتحليل و وجهات النظر، نجد شبه إجماع بين الباحثين حول قوة هذا الجهاز السياسي، وما يترتب عنه من قوة في آفاق التقدم وتحقيق الوحدة في كنف الحرية العقلانية.²

تعتبر الدولة مؤسسة سياسية حسب عبارة ماركس فيبر وهي تنظيم عصري و حديث، أنشأها المجتمع من أجل تجاوز أطره التقليدية، التي تركز و تبنى على أساس رابطة الدم (Le lien du sang) أو رابطة بيولوجية أو دينية أو قبلية... الخ مثل التنظيمات السابقة على الدولة كالقبيلة والعشيرة. ويمكن القول بأن القرابة تتحدد في أحد معانيها في ضوء العوامل البيولوجية، فالفرد يرتبط بأبيه وأمه بسبب مولده. كذلك يرتبط الأب والأم ببعضهما البعض بسبب معيشتهم المشتركة.

إلا أن هذه العلاقات البيولوجية لا تحدد حتما طبيعة القرابة. إذ يتضح لنا أن القرابة هي ظاهرة سوسيولوجية ترتبط بالظواهر البيولوجية ولكنها لا تتطابق معها بحال من الأحوال. ويمكن القول بأن العلاقات البيولوجية ليست سوى نقطة بدء لظهور المفاهيم السوسيولوجية. فالدولة هي شكل أرقى من التنظيمات السابقة، هدفها هو تشكيل المجتمع على أساس روابط اجتماعية حديثة، كيف ذلك؟

اجتماعيا: تتخلق الدولة و تدعم الرابطة الاجتماعية بين أفراد المجتمع، و تحول ذلك إلى إحساس وطني، فمن طبيعة البشر نجد دائما وجود اختلافات وصراعات و تناقضات داخل المجتمع الواحد. الدولة ككيان سياسي و قانوني، يجب أن تيسر تلك التناقضات (Gestion des Conflits) عن طريق قنوات رسمية للتعبير عنها و بالتالي خلق نوع من الوحدة الوطنية عن

طريق نسج شبكة العلاقات الاجتماعية، فالدولة حسب الفيلسوف الألماني هيغل، هي مجتمعا منظما وواعيا بوجود وحدته ومميزاته، إذ نجد أن الدولة تعبر عن الإحساس بالوحدة، (Le sentiment d'Unité) والشعور المشترك، وبالتالي تساعد على تقوية وتسيير هذا الإحساس وهذا الشعور للمصالح العام فالدولة كعلاقة قانونية وسياسية ترتكز أساسا على رابطة اجتماعية، وعلى تضامن فعلي فيها يتعلق بالعيش والمصالح والعواطف، بالإضافة إلى حقوق وواجبات متقابلة.⁴

ثقافيا: هذا الإحساس يقوى ويتجسد عن طريق تركيز وتجميع وتعبئة كل الموارد الرمزية (Mobilisation des ressources symboliques) الثقافية من أجل مصلحة الأغلبية.⁵

فالموارد الرمزية هي مجموعة المعايير والقيم التاريخية والثقافية والدينية، التي تقوي الانسجام بين الفرد والمجتمع من أجل الاندماج الاجتماعي الوطني (Pour l'intégration nationale)، يقول بارسونس في هذا الشأن: "الدولة تتشكل وتبنى من خلال مجموعة المعايير والقيم الثقافية المشبعة من طرف الفرد، الشيء الذي ينتج نوع من الانسجام بين الفرد والمجتمع".⁶

اقتصاديا: الدولة في المجال الاقتصادي تعمل على تعبئة كل الموارد المادية والطاقات البشرية من أجل تطوير اقتصادها، بهدف ضمان الحد الأدنى من الحاجيات لأفراد المجتمع فالدولة القوية هي اقتصاد قوي يسمح لها بتقوية سيادتها. وبالتالي تساعد على خلق الثروة المتجددة (la richesse renouvelable) وعلى بناء اقتصاد إنتاجي مبني على قوة العمل. وليس استهلاكي مبني على هبة الطبيعة. وذلك عن طريق سن قوانين وإرساء قواعد تعمل على إعطاء قيمة للعمل بواسطة معايير كالعقلانية (la rationalité)، التحفيز، الجزاء، قيمة الوقت، المنافسة.

سياسيا: الدولة هي الكيان الذي يحتمل التناقض ويتجاوزه، بل يجعل منه وسيلة للحفاظ على الوحدة. فالتناقض السلمي (conflit pacifique) موجود وضروري لكنه هو المحرك دون أن يكون الغاية. لابد أن يتجاوز ذاته باستمرار إلى تناقض أعلى. وبالتالي الدولة الحديثة تبنى على التناقضات الموضوعية الموجودة بالفعل في المجتمع. إضافة إلى أن الدولة هي عبارة عن جهاز يلعب دور الحكم يقوم بالتفريق بين ما هو ثقافي وسياسي وديني واجتماعي.

في الجزائر الدولة كظاهرة سياسية وقانونية، كانت دائما ولفترة طويلة مرتبطة بالغزو الخارجي وبلاستعمار. فالمجتمع المحلي لم يبلور دولة محلية ناتجة من واقعه المحلي ولها سيادة اجتماعية سواء مع الإمبراطورية الرومانية أو العثمانيين وأخيرا الفرنسيين.⁶ وبالتالي نظرة وعلاقة المجتمع المحلي بالدولة كانت دائما تحددها معاملة هذه الأخيرة معه، فإما كان يقوم بمساندتها تارة أو يرفضها تارة أخرى، بدون المشاركة في تكوينها.

بعد الاستقلال يقر أغلب الملاحظين والإختصاصيين، على أن البناء السياسي في الجزائر أرتكز على بناء سلطة سياسية قوية على مستوى قمة الهرم السياسي أكثر من الارتكاز على بناء دولة حديثة قوية.⁷ فهذا النظام السياسي (الدولة) لم يرتكز في بناء

مؤسساته على الأمة مصدر السيادة والإجماع (فالجزائر لم تشهد بناء الدولة الأمة l'Etat nation كما جاء في بعض الكتابات التاريخية أو في النصوص الرسمية، بل الدولة الوطنية التي تركز على الإيديولوجية الوطنية l'Etat nationaliste وليس على الأمة كبنية سياسية، برغم أن هذه الأخيرة موجودة ثقافيا وتاريخيا). بل إن وجوده واستمراره على الشرعية التاريخية هذه الأخيرة أفرزتها ظروف حرب التحرير. واعتماد هذه الأخيرة بدورها من جهة على عائدات الريع الطاقوي من مداخيل البترول والغاز. فوجودها واستمرارها لعقد من الزمن لم يكن مرتبط بمصدرها ولا بفعاليتها ونجاعتها في الميدان. خاصة مع مرور الزمن بل ارتكزت على توزيع الخيرات على شرائح المجتمع بدرجات متفاوتة، أجور سياسية، تدعيم، مجانية بعض القطاعات . ومن جهة ثانية هذه الشرعية في جانبها الإيديولوجي وفي تعاملها مع المجتمع بجميع قواه الاجتماعية، الثقافية، والسياسية على الإيديولوجية الشعبوية، هاته الأخيرة تصور المجتمع الجزائري كجسد واحد لا تخترقه أي تناقضات ولا اختلافات ولا صراعات مهما كان نوعها، ثقافية، سياسية، عرقية، وخاصة منع بلورت هاته التناقضات على المستوى السياسي. وبالتالي ترفض المعارضة داخل النسيج الاجتماعي وتلغي الصراعات الداخلية.⁸

هاتان الظاهرتان الإيديولوجية الشعبوية، والزبونية، نتج عنها منهجيا بما يسمى في علم الاجتماع السياسي بظاهرة الباتريمونيالية الجديدة le néo-patrimonialisme أو كما يسميها المفكر هشام شرابي بالأبوية المستحدثة⁹. فالدولة النيوباتريمونيالية في الجزائر هي تجسيد لظاهرة الزبونية من جهة، وللإيديولوجية الشعبوية من جهة ثانية. والتي تعني كذلك البنية القبلية والقروية التي تحكم مسيرة الدولة والسلطة حتى الآن.

هذه الظاهرة تنبع من تحليل معين للنظام السياسي ولطبيعة السلطة السياسية التي تقوم على نظام من القيم والعلاقات التي يعتمد عليها هذا النظام للحفاظ على نفسه، ومنع تغيير البنية الاجتماعية التي يتجسد فيها. والتجسيد الفعلي للسلطة الأبوية يكمن في الحيز الخاص داخل بنية العائلة. هذا النموذج كما يقول المفكر هشام شرابي: " يفرض نظام فكر ونظام قيم لا دور لأعضاء المجتمع في تقريره". فهو نظام يتمتع بديناميكية تمكنه من تعزيز قوي الانتماءات الداخلية " العائلية، العشائرية، الطائفية..."¹⁰ فالسلطة الأبوية التي تركز على التنظيم العشائري للمجتمع والسلطة معان والمنحدرة من شيخ القبيلة، هذا الأخير أصبحت تلعب في مكانه عائدات الريع الطاقوي دور خلق هذه العشائر les segments أو المعروف بالزبائن les clientèles.

يصف المفكر عبد الباقي الهرماسي المجتمع التقليدي كالشجرة جذعها يمثل المجتمع، الأعراف يمثلون أهم القبائل، وفروع الأعراف يمثلون المجموعات Les clans. فإذا أخذنا نفس المثال في البنية السياسية، نجد في الجزائر بعد الاستقلال ونتيجة لما سبق. أن الجذع يمثل السلطة السياسية، الأعراف يمثلون المجموعات Les clans والأغصان يمثلون مختلف الزبائن les clientèles. فإذا كانت السلطة في المثال الأول، عامل "النسب" يلعب دور كبير في خلق مساندة لها من طرف المجتمع "

فعائدات الريع " هي التي تلعب هذه الوظيفة في المثال الثاني. وبالتالي فظاهرة الباتريمونيالية الجديدة، سوسيولوجيا أفرزت عدة نتائج على المستوى السياسي والاجتماعي في الجزائر :

1- منعت تشكل الدولة كظاهرة سياسية متطورة مقارنة بالسلطة السياسية. باعتبار أن الدولة الحديثة تشكلت في الغرب تاريخيا عن طريق تأسيس السلطة السياسية *l'institution alésation du pouvoir* هذا من جهة، ومن جهة ثانية فرملت *freiné* . ونتيجة لذلك الانتقال من الفرد *l'individu objet* إلى المواطن *la personnalité sujet* باعتبار الدولة وهذا حسب المفكر إدوارد سعيد تساهم في الانتقال من سلوك القطيع إلى السلوك الحضاري أو من المتوحش إلى التحضر حسب ابن خلدون. فالعلاقة النوعية التي تميز الدولة عن ما قبلها من تشكيلات هي المواطنة *la citoyenneté*. وتعني التوافق والمشاركة والاعتماد المتبادل. لأن كل مواطن يقوم بوظيفة ضرورية للآخرين. المواطنة علاقة أو رابطة حديثة ذات محتوى اجتماعي، اقتصادي وسياسي تتعدى الروابط والعلاقات ما قبل الوطنية، كالعشائرية والمذهبية أو الجهوية . لأن ماهية مجتمع ما، هي ما ينتجه هذا المجتمع بالفعل على الصعيدين المادي والروحي. ومن ثمة فمفهوم المواطنة مرادف لمفهوم المشاركة في الإنتاج الاجتماعي وفي الشأن العام. وهو على صعيد الفرد الاندماج في المجتمع المدني والدولة.

2- اجتماعيا "الدولة" الجزائرية، لم تساعد أو تعمل على عصنة المجتمع الجزائري من خلال تعويض أطره التقليدية إلى مؤسسات عصرية. وتعوض القبيلة والعشيرة... على المستوى الرسمي بالجمعية والحزب والنقابة والجماعات الأهلية والمهنية ... بل وظفت هاته الأخيرة توظيفاً تقليدياً وجعلتها تابعة وغير مستقلة، وهذا ما نلاحظه في الميدان خاصة في المناسبات الاحتفالية والانتخابية. رغم أن الدولة هي استقلالية المجتمع عن الدولة مما دفع بالمفكر هشام شرابي إلى القول بأن المجتمع العربي لا هو مجتمع قديم حافظ على بنيته التقليدية، ولا هو مجتمع حديث استعمل أطره وميكانيزماته التقليدية بآليات وميكانيزمات المجتمع الحديث، وخاصة استحدث كل ما تقليدي وقديم دون تغييره جذريا.¹¹ إضافة إلى أن هذه الظاهرة خلقت في النسيج الاجتماعي تراتبية اجتماعية جديدة تركز على العلاقات الزبونية ¹² (relations clientélistes)* هذه التراتبية لا تحددها قوة العمل، الملكية الكد والجدارة والمثابرة، بقدر ما يحددها الريع وكيفية الاستفادة منه. باعتبار أن الدولة الجزائرية ليست منتوج اجتماعي.

وبالتالي جعلت هاته الظاهرة (النيوباتريمونيالية) الدولة الجزائرية دولة تقليدية، تمثل وتجسد كل العلاقات والروابط التقليدية التي وصفت بها المجتمعات ما قبل الدولة. فالدولة الحديثة الغربية هي مبدأ وحدة المجتمع ومعيار انتقاله من نظام الجامعات المغلقة والطوائف والإتحادات التقليدية التي تعزل الأفراد عن الكل الاجتماعي، إلى التحرر من سلاسل الامتيازات

والواجبات وأطر الجماعات والفئات المغلقة. أي إلى عملية اندماج في الكل الاجتماعي وفي النظام العام. حتى أصبحت هاته الدولة عبارة عن عائلة رمزية أو مجموعة من العائلات الرمزية *Familles symboliques*. تجسيد العلاقات العائلية عبر زبائن مختلفة، من خلال إدارتها ومؤسساتها المختلفة.

الإحالات:

- ⁽¹⁾ حسين، هبداوي. التاريخ والدولة. ما بين ابن خلدون وهيجل. دار الساقى، بيروت، ص 76.
- ⁽²⁾ المرجع نفسه ص 110
- ⁽³⁾ Blandine kriegel. l'Etat et les esclaves . éd payot 2003 p53 .
- ⁽⁴⁾ برتران بادى-بيار بيرانونم . سوسيولوجيا الدولة . ترجمة جوزف عبد الله . مركز الانهاء القومي . بيروت . ص 29
- ⁽⁵⁾ Addi.lahouari. Etat et pouvoir, éd OPU, 1990. Alger p 47.—
- ⁽⁶⁾ ibid ,p.95.
- ⁽⁷⁾ —عبد الحميد، براهيمى . في اصل الازمة الجزائرية . مركز دراسات الوحدة العربية. 2001 . ص. 33
- ⁽⁸⁾ Addi lahouari ,opcit ,p61
- ⁽⁹⁾ —النظام السياسي النيوباتريمونبالي مصطلح لإزنستاد E. Isenstadt. يمثل استمرارية النموذج الفيبري (le modèle wébérien) للسيطرة الباتريمونبالية. هذه الأخيرة هي النموذج التقليدي لبناء سلطة الأمير، الذي كان يسيطر على كل شيء من أجل تقوية سلطته.
- ⁽¹⁰⁾ خلدون حسن، النقيب . الدولة السلطوية في المشرق العربي . مركز دراسات الوحدة العربية . 1996 . ص 210 .
- ⁽¹¹⁾ —المرجع نفسه، ص 189 .
- ⁽¹²⁾ —الزبونية هي علاقة بين السلطة والمجتمع، أين أفراد المجتمع يظهرون كزبائن (clients) يقومون بمساندة السلطة التي تظهر كراعي (patron) مقابل الاستفادة المادية.

المجتمع المدني ودوره في ترشيد أنظمة الحكم: حالة الدول النامية (الجزائر)

ريموش سفيان
جامعة جيجل.

يشكل المجتمع المدني أحد المفاهيم الأكثر استخداما في الأدبيات السياسية المعاصرة، بما يتوافق ومسار إعادة الهندسة السياسية للدول، ولم يبق فقط مفهوما مرتبطا بالفلسفة المجتمعية الغربية، بل أصبح قيمة مفروضة لتطوير فلسفة الرشادة السياسية والإدارية في إطار القروض الممنوحة من قبل الدول الغربية عبر المؤسسات المالية الدولية. فالعالم الحديث والمعاصر يشهد تحولات عميقة تمس الأنظمة السياسية لدوله، إذ نجد تحول النظام السياسي في أغلب دول أوروبا الشرقية ودول العالم الثالث ابتداء من باكستان إلى الفيليبين وانتهاء بأمريكا اللاتينية مروراً بدول القارة السمراء، تحولات نحو ترشيد أنظمة الحكم والتسيير للوصول إلى تنمية شاملة ومستدامة. أساس هذه التحولات هي ثقافة مجتمعية مبنية على جملة القيم والممارسات الصادرة عن البنية التحتية لهذه الدول، ممثلة في مؤسسات المجتمع المدني، إذ تعتبر مسؤولة عن التنشئة والتوعية السياسية للمواطن عبر النقابة والجمعية والنادي والتعاونية ومراكز البحث... وغيرها.

ولقد طرحت هذه الفكرة في أوساط الباحثين الأكاديميين والمثقفين وتأكدت ك ممارسة في العقدين الأخيرين من القرن الماضي، باعتبار العلاقة الترابطية طردية بين متغيرين رئيسيين: إفساح المجال أمام نشوء منظمات المجتمع المدني وإعطائها الحريات لممارسة أنشطتها ولعب دورها المجتمعي، وإشاعة الديمقراطية وإصلاح الأوضاع والوصول إلى نمط حكم صالح و رشيد. وباعتبار أن الحكم الرشيد من المواضيع التي لازالت النقاشات بشأنها مفتوحة وفي بداياتها بالنسبة للمجتمعات النامية، حيث لا يزال المفهوم ملفوفا بكثير من الغموض والالتباس سواء لجهة ميلاده أو لهوية انتهائه أو لأبعاده الظاهرة والخفية، فإن هذا المفهوم برز بشكل جلي في تقارير وبرامج الأمم المتحدة الإنمائية وتقارير البنك الدولي وغيرها من المؤسسات باعتباره: " نمط للحكم تقوم به قيادات سياسية منتخبة وأطر إدارية كفأة لتحسين نوعية حياة المواطنين وتحقيق رفاهيتهم، وذلك برضاهم وعبر مشاركتهم ودعمهم"⁽¹⁾ ولفظ "Good governance" في المعجم الإنجليزي يفيد معنى الرقابة والتوصية والتدبير الجيد، ويلح منظور الليبرالية الجديدة أن المقصود بـ Gouvernance هو الجمع بين الرقابة من أعلى ممثلة في الدولة

باعتبارها الناظم الرئيسي لمبادئ الأفراد والجماعات والمرجعية السياسية والقانونية، والرقابة من الأسفل ممثلة في مؤسسات المجتمع المدني باعتباره نافذة على ممارسة التداول والمشاركة، تقييم الأداء وتقويمه.

إنه ومن بين القواعد الأساسية التي توفر الحركية للمجتمع المدني هو خلق آليات كفيلة بترسيده أنظمة الحكم، وهذا من خلال إعادة النظر في طبيعة العلاقة بين الدولة والمجتمع التي هي علاقة سيطرة وهيمنة، وتصحيح العلاقة من معادلة صفرية إلى معادلة: لا وجود مجتمع مدني إلا في إطار دولة قوية، فما مدى تأثير المجتمع المدني في ترسيده أنظمة الحكم؟ وهل هناك بادرة لبناء مجتمع مدني فعال (في دول العالم النامي) لترقية وإرساء قيم الحكم الراشد؟ إن تغطية موضوع هذه الدراسة ومحاولة الإجابة عن إشكالياتها. ستم عبر منتظم منهجي من خلال بحث مايلي:

1- مفهوم المجتمع المدني وخصائصه.

2- علاقة المجتمع المدني بالدولة وأنظمة الحكم.

3- العلاقة بين الحكم الراشد والمجتمع المدني.

4- بإسقاط هذا الإطار النظري على دول العالم النامي، يتطلب المقام التعرض لدراسة موجزة حول طبيعة، واقع وفعالية مؤسسات المجتمع المدني في الوطن العربي، نموذج مختصر: الجزائر.

1- في مفهوم المجتمع المدني وخصائصه:

أ/ مفهوم المجتمع المدني: من المفيد أن نشير في البداية، أنه ليس هناك مفهوم ثابت، جامد وقابل للاستخدام في كل زمان ومكان... حتى تلك المفاهيم التي تبدو لنا كذلك، فالمفهوم مرتبط بتاريخ نشأته وهو إذن بيئة تاريخية واجتماعية معينة. فاستقراء المنتظم الفكري والفلسفي في مساره التاريخي، يبرز تطور مفهوم المجتمع المدني مند فلسفة أرسطو الذي استخدمه كمرادف للدولة وسماه بالمجتمع السياسي، ثم سيشرحون كوصف للدولة المدينة المؤطرة بالدستور والقانون بقوله: "القانون هو رباط المجتمع المدني.." وصولا إلى فلسفة العقد الاجتماعي مع جون لوك، توماس هوبز و جون جاك روسو وطروحات هيغل فيما بعد⁽²⁾.

وظل هذا المصطلح متداولاً في أوساط المفكرين الاجتماعيين الغربيين لآخر القرن التاسع عشر، ليرز من جديد مع مؤلفات المفكر الإيطالي الماركسي "أنطونيو غرامشي"⁽³⁾ وتسربها إلى الفكر العربي المعاصر بدءاً من ثمانينات القرن العشرين خصوصاً في أقطار المغرب العربي حيث نوقش هذا المفهوم بغرض التفكير في ظروف التحول من الحزب الواحد إلى التعددية الحزبية لا سيما في الجزائر وتونس⁽⁴⁾ والحقيقة أن شيوع استخدام "المجتمع المدني" قد زاد

من تشوشه واضطرابه، وحجب ضرورات التفكير في تأصيله النظري، وغيب إلى حد بعيد إمكانية تناوله النقدي، خاصة في ظل تعدد مظاهر التوظيف الإيديولوجي له واستخدامه من قبل قوى ومؤسسات عديدة في سياقات مختلفة لتحقيق أهداف متباينة.

ورغم كل هذا، يمكن أن يعرف المجتمع المدني على نحو إجرائي بأنه: "جملة المؤسسات السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية التي تعمل في ميادينها المختلفة في استقلال عن سلطة الدولة لتحقيق أغراض متعددة، أو شبكة التنظيمات التطوعية الحرة التي تملأ المجال العام بين الأسرة والدولة، وتعمل على تحقيق المصالح المادية والمعنوية لأفرادها والدفاع عن هذه المصالح، وذلك في إطار الالتزام بقيم ومعايير الاحترام والتراضي والتسامح السياسي والفكري، والقبول بالتعددية والاختلاف والإدارة السلمية للخلافات والصراعات". يتجه بعض الباحثين إلى استخدام مفاهيم أخرى في الإشارة إلى دلالة مفهوم المجتمع المدني، أو بعض جوانبه ومؤسساته، ومن هذه المفاهيم: المجتمع الأهلي، المنظمات التطوعية، المنظمات غير الحكومية، الحياة التشاركية، القطاع الثالث (باعتبار الحكومة بأجهزتها تمثل القطاع الأول، ويمثل القطاع الخاص القطاع الثاني)، وكلها تشير إلى مجال عام لحركة الأفراد والجماعات بعيدا عن سيطرة وتدخل الدولة عبر تنظيمات معبرة عن المصالح المجتمعية.

ب- خصائص المجتمع المدني:

إن التعريف الإجرائي المقدم يتضمن مجموعة من الأركان أو العناصر هي:

1-الركن التنظيمي/ المؤسسي: باعتبار أن المجتمع المدني هو مجموعة من التنظيمات التي يشكلها الأفراد أو ينظمون إليها بمحض إرادتهم، ممثلة في الجمعيات الأهلية، الاتحادات والروابط، النوادي واللجان والمنشآت الاجتماعية والثقافية والفكرية والعلمية، النقابات المهنية والعمالية، الحركات الشبابية والطلابية، المراكز البحثية غير الحكومية، اللجان الحقوقية والمؤسسات الدينية غير الخاضعة لسلطة الدولة. وكل هذه التنظيمات تعبر عن قوى وتكوينات وفئات وشرائع اجتماعية، وهي تعمل من أجل تحقيق مصالحها وغاياته.(5)

2- عنصر الطوعية: وهو ما يميز تكوينات المجتمع المدني عن باقي التكوينات الاجتماعية المفروضة تحت أي إعتبار، فهي تؤسس بمحض الإرادة الحرة للأفراد والانضمام إليها يكون طوعية بشروط صريحة أو ضمنية تتعلق بالسن أو التعليم أو المهنة... وعلى هذا الأساس يمكن التمييز بين تنظيمات المجتمع المدني والجماعات الإرثية التي ينتمي إليها الفرد استنادا إلى أسس موروثية تقوم على معايير قرابية كالأسرة، العشيرة والقبيلة أو معايير عرقية

كالسلالة والعنصر، أو معايير دينية كالماذهب والطائفة والطريقة(6) . كما يمكن التمييز بينهما وبين التنظيمات والمؤسسات الحكومية التي تجسد سلطة الدولة.

3- عنصر الاستقلالية عن الدولة: بمعنى ألا تكون خاضعة لغيرها من المؤسسات أو الجماعات أو الأفراد أو تابعة لها، بحيث يسهل السيطرة عليها وتوظيفها وتوجيه نشاطها، ويمكن تحديد درجة استقلال مؤسسات المجتمع المدني عن الدولة من خلال العديد من المؤشرات منها:

- نشأتها: إذ تنشأ في الأصل بمبادرات من الأفراد والقوى والتكوينات الاجتماعية في حدود ما يسمح به القانون.

- الاستقلال المالي: وهذا من خلال تحديد مصادر تمويلها، لأن صاحب التمويل هو صاحب القرار، فهل تتلقى جزءا من تمويلها من الدولة أو بعض الجهات الخارجية، أم تعتمد بصورة كاملة في التمويل الذاتي من مساهمات الأعضاء في شكل رسوم العضوية أو التبرعات أو على بعض أنشطتها الخدمائية أو الإنتاجية ؟

- الاستقلال الإداري والتنظيمي: من خلال كون المرجعية الأساسية لإدارة الشؤون الداخلية والتنظيمية لهذه المؤسسات هي لوائحها وقوانينها الداخلية، بعيدا عن تدخل الدولة، فتأسس قواعد للممارسة الداخلية يستبعد بشكل أو بآخر الفساد أو الانحراف أو الاستبداد، لأن فساد التكوينات الداخلية سيؤدي إلى ضعفها وبالتالي إمكانية اختراقها.(7)

4- إطار قيمي أخلاقي: ويتمثل في مجموعة القيم والمعايير التي تلتزم بها تنظيمات المجتمع المدني من قيم التسامح والقبول بالاختلاف والحوار، التنافس والتعاون، روح المواطنة، ضرورة الرقابة والشفافية في إطار الإدارة الرشيدة.

II- في علاقة المجتمع المدني بالدولة وأنظمة الحكم :

تعكس طبيعة علاقة الدولة بمؤسسات المجتمع المدني أحد أهم محاور الحكم الرشيد بحيث نعتبر أن التأكيد على فعالية مؤسسات هذا المجتمع المدني في مواجهة الدولة أحد الشروط الأساسية للتنمية في المجال الاجتماعي المستقل عن الدولة، مما يبرر ضرورة وجود مجال عام للأنشطة التطوعية للجماعات بما يتيح قدرا من التوازن بين طرفي معادلة القوى في ظل خضوع مؤسسات المجتمع المدني للقانون، وبما يضمن استقلالها عن أي توجهات إيديولوجية من جانب والارتفاع بمستوى المساءلة من جانب آخر .

ينطلق أنطونيو غرامشي باعتبار أن المجتمع المدني يشكل مع الدولة ما يعرف بالمنظومة السياسية في المجتمع ، ويسمبها بالدولة الموسعة " أي المنظومة السياسية بشقيها المدني والسياسي ، وبهذا المعنى يقول غرامشي " إن الدولة هي المجتمع السياسي زائد المجتمع المدني وبينما يحتوي المجتمع المدني على التنظيم السياسي للمجتمع بأجزائه ونقاباته وتياراته السياسية ، فإن الدولة تحتكر السلطة السياسية عبر أجهزتها ومؤسساتها المختلفة" (8).

وبهذا المعنى تكون العلاقة بين المجتمع المدني والمجتمع السياسي علاقة جدلية ، فيمكن للمجتمع المدني أن يكون مساندا للدولة أو معارضا لها ، ففي الحالة الأولى يشكل المجتمع المدني مصدر الشرعية لسلطة الدولة عبر مشاركة منظمات المجتمع وفئاته المختلفة في صنع القرار أما في الحالة الثانية التي تتصدى فيها الدولة بجهازها ومؤسساتها القمعية على كل الأشكال التعبيرية عن الرفض ، تبدوا الدولة وكأن المجتمع هو الذي وجد من أجلها وليس العكس . إن ما تتطلبها المجتمعات المدنية الفعالة هو هامش من الحرية والاستقلالية إزاء الدولة ومؤسساتها ، والحديث عن هذه الفعالية والاستقلالية لا يعني مجال من الأحوال إضعاف دور الدولة ، فالمجتمع المدني الفعال لا يوجد إلا في إطار دولة قوية و " ليست تسلطية " أي ديموقراطية .

الديمقراطية التي

مصدرها المشاركة الدائمة والدورية والتمثيلية للمواطنين استنادا إلى مبادئ المواطنة وسيادة الحق والقانون ، وتستند على مؤسسات شرعية راسخة تؤكد القدرة والرشادة على الأداء، هي الوحيدة القادرة على التوزيع التوفيقي للموارد المحدودة على المطالب المتباينة بحكم الانتفاءات الفردية والخصائص البشرية ، وهذا في بيئة المراقبة والمساءلة حسب تصور عالم السياسة والاجتماع ديفيد إستون . إن الدولة في هذه الحالة كما يقول هارولد لاسكي بمثابة " شركة ذات مسؤولية محدودة ، فهي ليست دولة ذات سلطة مطلقة بل ذات سلطة مقيدة " ، وبهذا يرتبط نشوء وبناء المجتمع

المدني بوجود السلطة الديمقراطية، مما يسمح بتأكيد وجود علاقة بين المجتمع المدني وأنظمة الحكم الديمقراطية، على اعتبار أن هذه الأخيرة تمثل المستلزم أو المشروع السياسي للمجتمع المدني، وجودا واستمرارا وتفعيلا، مما يفرز معطى أساسي وهو أن الأنظمة الديمقراطية والمجتمع المدني قرينان (9). إن جوهر مشكلة المجتمع المدني في علاقته مع الدولة هو في انتشار سلطة هذه الأخيرة في كل مجالات الحياة المجتمعية، مما يجعل من هذه السلطة أداة مراقبة مستمرة و عائقا أمام إمكانية تحرر الأفراد و استقلال المؤسسات الاجتماعية، و قيام حركات تنجيد اجتماعية تحد من مجالات تدخلها، فالدولة هنا في إطار مشروع شمولي "لدولة" المجتمع، مما ينعكس سلبا على أدائها ومردوديتها.

إن سياسة دولة المجتمع قائمة على أنه كلما تنامت و قويت مؤسسات المجتمع المدني و ازدادت فعاليتها، ضعفت قدرة الدولة على التعسف إزاء حقوق المواطنين و حرياتهم، فهذه المؤسسات تقوم بدور الرقيب على سياسات الدولة و بدور الوسيط بين الدولة و المواطنين، وكلما ضعفت مؤسسات المجتمع المدني و خفت فاعليتها و توقف نشاطها ازداد تعسف سلطة الدولة إزاء المواطنين، ليصبح الفرد العادي فاقدًا لفاعليته و يتحول إلى ذات بلا مواطنة و مجرد من حقوقه الإنسانية أو المدنية (10) و من هذا المنطلق تعتمد الأنظمة السلطوية على قمع عملية تكوين مؤسسات المجتمع المدني، و الحيلولة دون قيامها أو وضعها تحت هيمنتها و سيطرتها من خلال:

* تدخل الدولة في رسم و تحديد الخريطة الحزبية من خلال إجازة تشكيل أحزاب معينة و رفض تشكيل أحزاب أخرى، ووضع قيود قانونية و سياسية على نشاطها و هامش حركتها، و حتى إمكانية التدخل في العملية الانتخابية و إلغاء المسار الانتخابي.

* العمل بقوانين الطوارئ و الأحكام العرفية، مما يحول دون السماح بأية أدوار لمؤسسات المجتمع المدني.

* تفكيك النقابات و الاتحادات و المنظمات و جعلها أجهزة ملحقّة بالسلطة و السيطرة عليها أو تكوين مؤسسات بديلة عنها.

* اعتماد آلية التعبئة الجماهيرية من خلال أبنية الدولة المكرسة لكسب التأييد الشعبي مما لا يتيح لمؤسسات المجتمع المدني المشاركة الحرة و الفعالة، و بالتالي يتم توجيهها لوظائف هامشية و ضيقة.

إن أخطر أسلوب لتحكم الدولة في مؤسسات المجتمع المدني هو الدعم المالي، فإذا كانت للدولة مساهمة في تمويل هذه المنظمات فإن لها نسبة كبيرة في إتحاد القرارات فيها، بحكم أن قطع تمويلها سبيل إلى زوالها.

إنه و نظرا لعجز هذه الدولة عن البناء السوسيو تنموي، و انتشار الفساد الإداري و السياسي فيها (11)، وفي محاولتها الخروج عن هذه الوضعية المتأزمة، لقيت الدعم المالي والهيكل من مؤسسات بروتين وودز المالية والبرامج الإنمائية التابعة لمنظمة الأمم المتحدة، مع اشتراط تفعيل منظمات المجتمع المدني المنوط بها المساءلة، الرقابة والشفافية كآليات رئيسية للحكم الراشد.

III - العلاقة بين الحكم الراشد والمجتمع المدني:

إن طبيعة الحكم والمجتمع ليس أمران مستقلان إحداهما عن الآخر، ولكنهما مترابطان فلكل دولة أو نظام سياسي، المجتمع المدني الذي يتعايش معه ⁽²⁾.

وعلى اعتبار شروط البنك العالمي والمؤسسات الإنمائية في تحديد الحكم الراشد، فلا بد على هذه الأنظمة السياسية من هيكلة ودعم للمجتمع المدني، من خلال تطوير الأشكال التقليدية للتنظيمات الاجتماعية، قصد الحصول على المواطنة، والممارسة الفعلية لها، وكذلك قصد تطوير عملية الانفتاح التعددي والديموقراطية.

إن أغلب المنظمات المدنية المعنية بالإصلاح والتفعيل في إطار الحكم الراشد تفتقر إلى سياسات إدارية ومالية واضحة، وضعفها يتمثل أساسا في:

- * عدم تداول المسؤوليات داخلها.
- * غياب الشفافية حول آليات صناعة القرار فيها.
- * انعدام نشر المعلومات وتوزيعها فيما يتعلق بأوجه الإنفاق المالي بها.
- * تقلص الاستقلالية اتجاه السلطات والجهات المانحة.
- * انخفاض التمثيلية والتجدر وسط المجتمع المدني.
- * غياب الرؤية الإستراتيجية والبعد السوسيو تنموي عند أغلب أشخاص وأجهزة صناعة القرار داخل المنظمات المدنية.

ويتمثل التحدي العويص في العلاقة بين المجتمع المدني والمؤسسات الرسمية للإدارة المحلية، فالكثير من تنظيمات المجتمع المدني لا تتق بالمؤسسات الحكومية، وعلى هذا الأساس يشترط نمط الحكم الراشد شرطان أساسيان هما الشمول والتمكين للمجتمع المدني حيث:

- الشمول: من خلال تشييد هياكل تمكن كل فرد، بغض النظر عن الثروة الجنس والسن والسلالة والدين، من المشاركة بصورة منتجة وإيجابية في الفرص التي تمنحها المجتمعات.

-التمكين : وينطوي على انتاج قدرات جديدة ، وإنشاء مؤسسات فعالية وتعزيز طرق عمل كفيلة داخل نطاق المنظمات المدنية، ويؤدي التمكين إلى تغيير القيم والمعايير المتعلقة بالاحترام بين المجموعات الاجتماعية بحيث لا يهشم أحدها أو يفقدها حق التعبير بسبب التمييز وعليه تصبح منظمات المجتمع المدني ضرورية للقيام بأدوار من قبل " كلب الحراسة " (13)، وذلك للتدقيق ومراقبة ما تقوم به أجهزة الحكم المحلي والمركزي من أعمال والممارسة الضغط ضدها ، وبلا ريب فإن هذا ينطبق على وسائل الإعلام.

وتشير أغلب تقارير الأمم المتحدة الإنمائية ، أن اللامركزية المحلية التي تنطوي على نقل السلطات والموارد المالية إلى سلطات محلية ، تؤدي إلى خلق بيئة مواتية تفضي إلى المشاركة من جانب منظمات المجتمع المدني ، لأن الجمعيات اليوم أصبحت تمارس ضغطها حقيقة لتجسد طموحات المواطن وخاصة لجان الأحياء والمدن . إن الضرورة أصبحت ملحة في إطار الحكم الراشد لملء فراغ الدولة الغائبة بإقامة دولة الحق والقانون التي تخدم الشفافية في مختلف مفاهيم الحياة العمومية والخاصة مع تسيير فعال للموارد العمومية عن طريق التسيير بمشاركة منظمات المجتمع المدني ، إذ تلعب هذه الأخيرة دور التقييم للأداء و تقويمه ، لتفادي الفساد عبر خلق لجان متخصصة للإشراف والمتابعة ، والمعلومات والأخبار والقدرة على الإطلاع على الميزانيات ومراقبة تنفيذ المشاريع والبرامج السوسيو تنموية .

إن أهم معيار لقياس الفعالية بالنسبة لمنظمات المجتمع المدني التي تقوم على قيم الحكم الرشيد هو ما تقدمه من إضافات نوعية ذات أبعاد سوسيو تنموية تمكن من إدراج برامجها داخل الحياة اليومية، كما تقاس من خلال قدراتها التنظيمية و مؤهلات مواردها البشرية وآلياتها التواصلية وأساليبها في تحقيق التفاعل مع باقي القطاعات الأخرى . إن التقارير الراصدة للتنمية البشرية والمتابعة لواقع ومستقبل التطورات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية تعكس الوضع الكارثي والمساوي لوقائع الحريات الخاصة والعامة ، ولوضعية حقوق الإنسان وانخفاض مستويات الدخل ، وارتفاع نسبة البطالة والتهميش ... ناهيك عن وضعية الأطفال والنساء والمسنين ... هذه العوامل وغيرها تلقى بضالها على أهداف واستراتيجيات منظمات المجتمع المدني ، مما يستهدف ضرورة مراجعة شاملة لأهدافها وأدوارها وأجهزتها لكي تستجيب بفعالية وميدانية لجميع المتطلبات السياسية والاقتصادية والاجتماعية والحضرية وهذا اعتمادا على أدوات وتقنيات الحكم الرشيد كوجود هيئات مرجعية لهذه المنظمات ، ووثائق برامجية واضحة يتم من خلالها الربط بين الأهداف

و الاستراتيجيات و الأنشطة ... و بعبارة أخرى فالأداء المميز للمجتمع المدني وفق متطلبات الحكم الراشد يكون من خلال الاستقلالية عن السلطة والنظام السياسي ، التمويل الذاتي ، عدم التوظيف السياسي ووجود إطار قانوني يحميها . (14) إن أي نظام سياسي حديث سواء كان ديمقراطي أو شمولي، يتميز بالضرورة بوجود العديد من المؤسسات والإجراءات لحل الصراعات التي تلازم المجتمعات الحديثة وتسويتها، ذلك لأن التنظيم يمثل القناة التي تتجمع فيها آراء الأفراد وتفضيلاتهم.

يعتبر مثال بولونيا أحسن تعبير عن دور المجتمع المدني في ترسيخ قيم الديمقراطية، حيث أنه أثناء إضراب العمال في 1976م، تأسست لجنة الدفاع عن العمال "KOR" وذلك لمساعدة العمال المضطهدين، بالعمل بعيدا عن الهيكل الرسمي للحزب الحاكم... وقد حفزت هذه اللجنة من خلال نشاطاتها على تشكيل منظمات معارضة للحزب، ومع نهاية السبعينات كان هناك انتشار للحركات والتنظيمات المختلفة، وإشراك المجتمع والطبقات العمالية في تحرير الجو العام لبولونيا، واعتبر ذلك بمثابة القاعدة الحيوية لإعادة تشكيل المجتمع المدني. وفي 1981م حاول الحزب الحاكم سحب الاعتراف الرسمي من هذه التنظيمات، إلا أن ذلك باء بالفشل، وتكررت المحاولات في 1988م، إلى أن اعترف الحزب الحاكم رسميا بعد الدخول في مفاوضات مع حركة "تضامن" العمالية، بهذه الحركة والنقابات الأخرى المستقلة، ومن ثم إجراء انتخابات فازت فيها نقابة تضامن، التي تمثل فرعاً من فروع المجتمع المدني (15).

لكن إذا كان المجتمع المدني في بولونيا قادراً وله دور إيجابي في خلق التحول نحو آليات الرشادة السياسية والإدارية، فإنه في دول أخرى عديدة، فشل نسيباً في ذلك، مثل الدول العربية. لذلك ففعالية المجتمع المدني تختلف من بلد لآخر، حسب العوامل المساعدة له، من طبيعة النظام الحاكم، والفهم الصحيح للمسار المشاركة (16) وطبيعة البيئة الموجه إليها.

دور منظمات المجتمع المدني في ترسيخ أنظمة الحكم العربية: (مثال: الجزائر)

إن استقرار الوضع العربي، يبرز جليا أن الرهان الكبير هو كيفية الخروج من الدولة الريعية في مختلف تجلياتها البوليسية، العقائدية... إلى دولة الإستحقاق (دولة الحق والقانون)، وبالتالي بناء مجتمعات متحررة سياسيا إنطلاقا من استقلالية مؤسسات المجتمع المدني؟. إن البنك العالمي وصندوق النقد الدولي قد أعطيا المجتمع المدني مفهوما مطاطيا غامضا بحكم أن تطوره التاريخي في الفلسفة الإنسانية مرتبط أكثر بالتمدن، مما خلق اشكالية التمييز في الوطن العربي بين المجتمع المدني والمجتمع الأهلي. فالحديث اليوم في الدول النامية عموما والوطن العربي بالخصوص يركز أساسا حول المجتمع الأهلي أو الجمعيات الأهلية، أي ذلك الفضاء من التنظيمات التي تنبع وتعمل لأجل المجتمع. والمجتمع الأهلي قائم على تركيبات جموعية عشائرية وظيفية، إذ يشمل مختلف المجموعات الاجتماعية التي تقوم بوظائف خيرية تطوعية، نظرا لغياب الشروط التأسيسية له (غياب الحرية أدى لغياب مجتمع مدني حقيقي)، ولدرجة الفساد السياسي والإداري المتفشي، وغياب الآليات القانونية للرقابة (المساءلة والمتابعة المالية)، والتي تحتاج إلى الشفافية، فلا بد من بناء مجتمع يتضمن آليات إجتماعية وغير مؤسساتية لمحاسبة من يحكم (كحرية الصحافة). ويمكن إيجاز مظاهر الأزمة البنائية للأنظمة العربية كمعوقات لبناء مجتمع مدني عربي غير جمعي وبالتالي إرساء قيم الحكم الرشيد، فيما يلي:

- عدم استكمال عملية البناء المؤسس للدولة.
- ضعف وهشاشة الدولة على الرغم من تضخم أجهزتها و مؤسساتها.
- غلبة طابع التوتّر والتأزم وفقدان الثقة بين الدولة والمجتمع.
- التبعية الهيكلية للخارج.
- اهتزاز شرعية الدولة ككيان سياسي.
- لبة الطابع شبه الريعي على عدد من الدول العربية.
- تراكم الفساد السياسي والإداري وخبرات التعثر والفسل.

حالة المجتمع المدني الجزائري

إن قياس قوة الدولة الجزائرية اليوم مرتبط في شقه الاجتماعي بفعالية المنظمات الـ، معوية والمدنية فيها، والمستقرىء للواقع الجزائري يجد اهوة الشاسعة بين الخطاب السياسي المروج لفكرة الحكم الراشد ودور المجتمع المدني(17) والممارسات الرقابية والعقابية على الجمعيات والمنظمات المدنية من خلال مجموعة من القوانين والإجراءات نذكر منها:

- يسمح قانون 1987 المعدل في 1990 للجمعيات، يسمح للسلطة بمراقبة و تتبع كل أعمال الجمعيات و بالتالي معرفة بدقة كل النشاطات و القائمين عليها و إمكانية توجيهها و احتوائها.

- في ما يخص المقرات تمنح إلى الجمعيات المقربة من السلطة أو التي لا تضر بمصالحها مما يظهر بان السلطة تنتهج نهجا ديمقراطيا بالسماح للمجتمع المدني الانتظام من جهة، و من جهة أخرى تكبل نشاطه بافتقاره للمقر. - تعتبر الدولة هي المصدر الأول و الأساسي في تمويل الجمعيات سواء بطريقة شبه مطلقة او نسبية مما يؤدي بالتدخل المباشر في شؤونها وحتى رفض برامجها، باعتبار أن مساهمات الأفراد لا تزيد عن الأعمال الخيرية المناسبة، بينما يهدف رجال الأعمال وكبار المقاولين والتجار إلى الشهرة من وراء دعمهم المالي لمنظمات المجتمع المدني(18).

-تتولى وزارة الإعلام والثقافة تنظيم حرية الصحافة، وينص قانون صدر سنة 1990 علىأن حرية التعبير يجب أن تكون في إطار احترام "الكرامة الفردية، وضرورات السياسة الخارجية والدفاع الوطني". وأصدرت الحكومة سنة 1994 مرسوما يسمح للصحف المستقلة بنشر المعلومات الأمنية المنقولة فقط عن البيانات الحكومية الرسمية التي تبثها" وكالة الصحافة الجزائرية" التابعة للحكومة، وتتباين درجة التزام الصحف المستقلة بهذا الأمر الرسمي. وعلى الرغم من التعديلات التي أدخلت على القانون الجزائري سنة 2001 والتي تهدد الصحفيين بغرامات كبيرة وبالسجن حتى 24 شهرا إذا "أهانوا" الشخصيات الحكومية أو شوهوا سمعتها، فإن الصحافة الجزائرية حرة نسبيا .

- تشرف "وزارة الداخلية والجماعات المحلية" على نشاط الجمعيات الأهلية الجزائري، وتفرض على العمال تقديم طلب للحصول على ترخيص بتأسيس نقاباتهم، ويفرضقانون النقابات العمالية لسنة 1999 على وزارة العمل إعطاء موافقتها على طلب أية نقابة خلال 30 يوما .

- يجب حصول جميع المنظمات غير الحكومية على ترخيص من وزارة الداخلية، وللوزارة سلطة حل أي حزب سياسي، ويحظر القانون على الاتحادات والنقابات الارتباط بالأحزاب السياسية ، وللمحاكم سلطة حلالاتحادات والنقابات، ويعطي هذا التدخل مثلا على عدم وجود فصل حقيقيين السلطات في الجزائر .

— يفرض قانون الطوارئ لسنة 1992 والأوامر والنواميس الحكومية المصاحبة له، بعض القيود على حق الاجتماع الذي يكفله الدستور، وتم في 2001 سن قانون يمنع المظاهرات في الجزائر العاصمة، وفي هذا تضيق لمجال وحرية التعبير.

— إذا كنا نعني بـ"المجتمع المدني" الجزائري التنظيمات المستقلة عن الدولة، والتي تقوم بنوع من الخدمة للمجتمع ككل، فأين سنضع الجمعيات الإسلامية الخيرية المستقلة عن الدولة التي تقوم بخدمة المجتمع أثناء الكوارث الطبيعية، خدمة قد تفوق في فعاليتها واتساعها عمل الدولة وأجهزتها؟ وأين سنضع "الجمعيات الأهلية"، ك نقابات الأطباء والمهندسين والمحامين وجمعيات الطلاب، حين تسيطر عليها، وبواسطة الانتخابات، العناصر الإسلامية وهي معارضة للدولة، مقاومة لهيمنتها على المجتمع؟ هل نعتبر مثل هذه التشكيلات الاجتماعية - في مثل هذه الأحوال - من مكونات "المجتمع المدني" أم نضعها خارجه؟

في الحقيقة، لا يمكن الحكم على المجتمع المدني الجزائري انه فعال ام لا، بحكم الفترة الزمنية القصيرة التي تأسس فيها والظروف التي عرفتها الجزائر في العشرية الأخيرة من القرن الماضي.

إن التنمية والحكم الصالح في الجزائر يمكنهما السير معاً إذا توفرت إرادة سياسية وتشريعات ضامنة ومؤسسات وقضاء مستقل ومساءلة وشفافية وتداول سلمي للسلطة ومجتمع مدني ناشط ورقابة شعبية وإعلام حر، إذ لا يمكن تحقيق أحدهما دون الآخر إلا استثناءً. أما القاعدة فهي التداخل والتواصل ما بينهما وإلا وصل كلاهما إلى طريق مسدود. ولهذا فإن مواجهة الإشكاليات والتحديات إنما يستهدف اختيار السبل الصحيحة والمناسبة لإحداث التنمية الإنسانية المنشودة والشاملة وفي ظل حكم صالح (راشد) ورقابة فعالة للمجتمع المدني.

يلعب المجتمع المدني التعددي والنشط دوراً مهماً في موازنة قوة الدولة، كما أنه يمكن أن يكون حائلاً أمام عودة التسلطية وعاملاً حيوياً في تعزيز الديمقراطية الليبرالية والحكم الرشيد. ولقد كان انبعاث المجتمع المدني عاملاً حاسماً في تفسير عمليات الانتقال من التسلطية إلى الديمقراطية الليبرالية في جنوب أوروبا وأمريكا اللاتينية، كما أدى نمو وتطور العديد من الجماعات والحركات الاجتماعية المستقلة - الطلاب، النساء، نقابات العمال، الجماعات الدينية، أنصار البيئة، الجماعات القبلية، الفلاحون، المهنيون - في أوروبا الشرقية والاتحاد السوفيتي السابق وبعض أجزاء آسيا وأفريقيا إلى تنامي عمليات الديمقراطية وإصلاح أنظمة الحكم فيها.

لقد أصبحت مراجعة مفهوم المجتمع المدني وفعالياته ضرورة حتمية على ضوء تداعيات أحداث 11 سبتمبر 2001، خاصة فيما يتعلق بتوجهات وممارسات الولايات المتحدة الأمريكية تجاه الدول العربية والإسلامية . فمن جملة الممارسات التأديبية والعقابية ضد مؤسسات المجتمع المدني العربي، فرض القيود على الجمعيات الخيرية وما يرتبط بها من نشاط أهلي و تطوعي بدعوي أنها تقوم بتمويل جماعات العنف و الإرهاب ،فضلا عن الضغوط الأمريكية على بعض الدول العربية لاتخاذ إجراءات ضد أحزاب سياسية مشروعة، أو لتشديد القيود على حرية الصحافة، باعتبار انتقاداتها لسياسة الولايات المتحدة الأمريكية وإسرائيل بمثابة تحريض على العنف، الكراهية والإرهاب،واللجوء حتى إلى مطالبة هذه الدول بتعديل وتغيير برامجها التعليمية ذات الأبعاد الحضارية، في إطار مشاريع الإصلاح وعلى رأسها مشروع الشرق الأوسط الكبير(الجديد). والمفارقة التي تبدو جلية هنا في أن آليات الحكم الراشد ومن بينها تفعيل المجتمع المدني، هي آليات غربية من المنظار الأمريكي، والممارسات الرقابية والعقابية ضد هذه المؤسسات صادرة عن نفس الطرف . وكل هذا يؤدي إلى تلغيم العلاقة بين الدولة والمجتمع، أو على الأقل قطاعات منه، وهذا في غير صالح التطور الديمقراطي، باعتبار أن إقامة علاقة صحية وصحيحة بين الدولة ومجتمعها هو من المرتكزات الأساسية لأي تحول نحو فلسفة الحكم الرشيد . إنه وبعد أحداث 11 سبتمبر 2001 نلاحظ توجها الى تنميط المجتمع المدني (على النمط الغربي) ليصبح المشكل المطروح هو الخصوصيات المحلية للمجتمعات العربية ؟.

الهوامش :

¹ من هذا التعريف يبرز أن الحكم الرشيد ينطوي على أبعاد ثلاثة: بعد سياسي تمثيلي يقوم على حكم القانون والمساواة في المشاركة والفرص، وعلى المساءلة والرقابة ، وبعد تقني يتعلق بالكفاءة والفعالية، وبعد اقتصادي اجتماعي يتعلق بتحويل النمو الإقتصادي إلى تنمية بشرية مستدامة لصالح الأجيال الراهنة واللاحقة.

2. حاول كل من روسو ولوك وهيجل أن يربطوا نشوء المجتمع المدني بعملية "انتقال" و "خروج" التجمع البشري من حالة إلى أخرى، فقدموا الصياغات الأولى لمفهوم المجتمع المدني بوصفه كل مجتمع بشري خرج وانتقل من حال الطبيعة الفطرية إلى الحالة المدنية التي تتمثل بوجود هيئة سياسية قائمة على اتفاق تعاقد، لمزيد من التفاصيل أنظر: فالح عبد الجبار، الدولة والمجتمع المدني والتحول الديمقراطي في العراق. مركز ابن خلدون ودار الأمين للنشر والتوزيع، القاهرة، 1995، ص 43.

³ -ارتبط مفهوم المجتمع المدني عند أنطونيو غرامشي بنضالات الطبقة العاملة والدور الذي يجب أن يقوم به الحزب الثوري في ظل هذا المجال، من أجل تخلص المجتمع المدني الممثل أساساً في الطبقة العاملة، عن سلطة الدولة عبر المؤسسات الاقتصادية والأنشطة الاجتماعية، لمزيد من التفاصيل أنظر: كريستان كون "حول مصطلح المجتمع المدني"، ترجمة عدنان جرجس، مجلة الثقافة العالمية، العدد 07، يوليو، أغسطس، 2001، ص 38.

⁴ -أنظر: كريم أبو حلاوة: إشكالية مفهوم المجتمع المدني. دار الأهالي، دمشق، ط 1، 1998، ص 73.

⁵ -لمزيد من التفاصيل أنظر: حسنين توفيق إبراهيم، النظم السياسية العربية: الاتجاهات الجديدة في دراستها. ط 1، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 2005، ص 38.

⁶ -هذا التمييز لايعني بالضرورة أن المجتمع المدني لا يضم تنظيمات تعبر عن تكوينات إرثية/ تقليدية، ولكن مع تطور المجتمع المدني بمعناه الحديث، يضعف دور هذه التنظيمات ويصبح ثانوياً، حيث يزداد انخراط الأفراد في مؤسسة وتنظيمات تقوم على معايير إنجازيه حديثة، أين تصبح المواطنة بديلاً عن الولاء العشائري. لمزيد من التفاصيل أنظر نفس المرجع السابق، ص 160.

⁷ -أحمد شكر الصبيحي، مستقبل المجتمع المدني في الوطن العربي، ط 1، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 2000، ص 34-35 (بتصرف)

⁸ - كريم أبو حلاوة، مرجع سابق ص 83

⁹ -ما يؤكد طردية العلاقة بين المجتمع المدني والديمقراطية الاعتبارية التالية:

-إن تنظيمات المجتمع المدني تتوسط العلاقة بين المواطن والدولة، فهي تحمي المواطن من تعسف الدولة، و تحمي الدولة من أعمال العنف السياسي التي قد تلجأ إليها بعض القوى والجماعات المجتمعية.

-تقوم تنظيمات المجتمع المدني على تدريب أعضائها على المشاركة، إعداد و تربية الكوادر و التنشئة المجتمعية السليمة.

-إرساء قيم المواطنة من خلال فتح المجال لبدائل طوعية عن الولاءات و الانتماآت الوراثية التي لا تنتج إلا انقسامات و صراعات داخلية .

-استناد كل من الديمقراطية و المجتمع المدني إلى قيم التسامح السياسي و الفكري و القبول بالتعدد و الاختلاف، سيادة القانون و دولة المؤسسات.

لمزيد من التفاصيل راجع: حسنين توفيق إبراهيم، مرجع سابق، ص 194 - 195

¹⁰ - انظر في هذا الصدد أحمد شكر الصبيحي ، مرجع سابق ص 132-137

¹¹ - يعرف البنك الدولي الفساد على أنه إساءة استعمال الوظيفة العامة للكسب الخاص ، ويقسم الفساد إلى صغير وكبير، حيث الأول يعني الحصول على الرشوة أو العمولة المباشرة واستغلال للوظيفة والثاني يحدث على المستويين البيروقراطي والسياسي ، أي حين تختلط التجارة والإمارة بتعبير ابن خلدون .

¹² - برهان غليون " بناء المجتمع المدني : دور العوامل الداخلية والخارجية " مجلة نقد، العدد 7 ، 1994 . ص 12

¹³ - للمزيد من التفاصيل أنظر : برنامج الأمم المتحدة للمستوطنات البشرية " إشراك المجتمع المدني في تحسين

أسلوب الإدارة المحلية " الدورة العشرون : نيروبي (4-8 أبريل 2005)

¹⁴ - لمزيد من التفاصيل راجع :

Saika coulibaly , participation citoyenne , bonne gouvernance et développement durable , les conditions de la durabilité social des actions de développement . colloque international , -8- Ouagadougou . 2003 .

¹⁵ - Mhchel Bernard, A civil Society and Democracy,transitio in east-Europe, political Quarterly,vol 108 N° 2- 1993 PP(31-37-.

¹⁶ . نجد أليكس دي ثوكفيل في ملاحظاته الأولى حول الديمقراطية في أمريكا، كان أول من أشار إليه، تلك العلاقة التكافلية والتقوية المتبادلة بين المشاركة في المجتمع المدني والمشاركة في الحياة السياسية. ومثاله في ذلك "المنظمة النسائية الأرجنتينية Conciencia " التي لم تكن تسعى فقط إلى تعليم المواطنين، بل كانت تهدف أيضا إلى تطوير مقومات المشاركة الديمقراطية والإتحاد بناء على قيم الحاجة للتسامح ولإحترام آراء الآخرين، للتوصل إلى حلول توفيقية وسطى، فوضعت منظمة "conciencia" برنامجا للدخول إلى المدارس وبرنامجا للإتحادات الشبانية...وقامت بتنشئة وتدريب قادة الاتحادات في كافة أنحاء الأرجنتين،وفي هذا حسب المنظمة بناء للعمود الفقري لمجتمع ديمقراطي...وكذا الحال بالنسبة لمنظمة "KABATID" و "PARTICIPA" في الفيليبين والشيلي على التوالي. لمزيد من التفاصيل راجع: لاري دايمون، الثورة الديمقراطية:النضال من أجل الحرية والتعددية في العالم النامي. ترجمة: سمية عبود، دار الساقي، لبنان، 1995، ص ص 18-21.

- ¹⁷- في إحدى المناسبات الوطنية، صرح الرئيس الجزائري عبد العزيز بوتفليقة قائلاً: "لا يمكن إقامة الحكم الراشد بدون دولة القانون، وبدون ديمقراطية حقيقية، بدون تعددية سياسية، كما لا يمكن ان يكون الحكم راشداً إطلاقاً بدون رقابة شعبية...".
- ¹⁸- لمزيد من التفاصيل، انظر جلالى عبد الرزاق، بلعادي ابراهيم، "الحركة الجمعوية في الجزائر بين هيمنة الدولة والاستقطاب الحزبي". المستقبل العربي. العدد 314. ابريل 2005. ص ص 135-146.
-

الترتيب الهجائي و كفيات استخدامه في الأندلس

ما بين القرنين الثاني والرابع الهجريين

متاجر صورية
جامعة سدي بلعباس

مجد الأندلسيون العلماء والفقهاء ورجال الأدب ، وكان هؤلاء القيادة والريادة في المجتمع الأندلسي .

أما العلماء فقل من تجده متبحراً في علم واحد أو علمين ؛ بل فيهم من يعد من الفقهاء والمحدثين والفلاسفة والأدباء والمؤرخين واللغويين. ولم يقتصر الأندلسيون على العلوم العملية بل كانت لهم دراسات في علوم أخرى كالفيزياء، وعلم العقاقير، والزراعة (علم الفلاحة) والذي أبدعوا فيه وصنفوا التصاميم المشهورة، مسجلين ما توصلت إليه تجاربهم. واهتم المؤرخون و الكتاب والمسلمون بكتب التراجم و تاريخ الرجال، حيث ظهر هذا النمط من الكتابة التاريخية منذ وقت مبكر في تاريخ الإسلام بل إنه كان وليد لحركة التدوين التاريخي عندهم، و ينقسم هذا النوع من الكتابة إلى أنماط مختلفة فمنه ما يهتم برجال فترة معينة أو بلد معين، و منه ما يكون خاصا بتراجم أرباب الصنعة الواحدة أو الفن الواحد، وهكذا ظهرت كتب تاريخ القضاة والفقهاء، والأدباء، والأطباء، والنحاة.

وفي كتب الحديث ما يسمى بالمعاجم، وهو نوع من التأليف ابتكره المحدثون، رتبوا فيه مروياتهم عن الشيوخ، بل إن رجال الحديث هم أول من استعمل كلمة معجم، و ذلك في القرن الثالث الهجري عندما عقد البخاري (ت256هـ) في صحيحه باباً، ترجمه بقوله: "باب تسمية من سمى من أهل بدر في الجامع الصحيح الذي وضعه على حروف المعجم، ذكر فيه أربعة وأربعين بدرياً ممن جاءت الرواية في صحيحه، أنهم شهدوا بدرًا". و قد كان علماء الحديث هم أول من اهتم برجال الحديث و علماء السنة. و قد تميز هذا النوع من كتب الرجال بالدقة والاقتضاب حيث عني أصحابها بالحديث عن السيرة الذاتية هؤلاء الرجال مع ذكر عدالتهم وتبريحهم ونزعتهم العلمية، و مصنفاتهم، وشيوخهم¹.

لقد بذل علماء اللغة العربية قصارى جهدهم في خدمة اللغة، فجمعوا ألفاظها و نقحو مفرداتها و هذبوها رتبوها في قوائم وفق طرائق متنوعة و متكاملة، و أدركوا أن تدوينها ضرورة لغوية و حضارية، فاعتمدوا في حصر اللغة بترتيب الحروف في نظام ثابت. و ترتب فهارس العلماء من حيث مناهج التصنيف إلى أربعة أنواع :

- حسب حروف المعجم، و هو أشهر ترتيب في هذه الطريقة، حيث يعتمد صاحب الفهرسة إلى ترتيب شيوخه وفق حروف الهجاء..

- حسب العلوم : يرتب الشيوخ حسب العلم الذي تلقاه صاحب الفهرسة.

- حسب الوفيات.

- حسب أماكن الأخذ واللقيا².

و يقصد بترتيب مداخل المعجم المنهج الذي يتبعه المعجمي في ترتيب ألفاظ المعجم وعرضها في المعجم قصد تقديمها للقارئ أو المستعمل حتى يعثر على بغيته المنشودة بسهولة و سرعة. في البداية يجب أن نشير إلى أن المعجمين يستعملون مصطلحات: حروف الأبجدية، حروف الألفباء، حروف المعجم، حروف الهجاء. و كأنها اصطلاحات مترادفة مع العلم أن هناك فروقا بينها: إن حروف الهجاء هي الحروف التي يتألف منها النظام الكتابي للغة من اللغات، و حروف الهجاء في اللغة العربية مرتبة حسب أنظمة ثلاث هي:

:

هو نسبة إلى الحروف الأربعة الأولى من الحروف الاثني عشر (22) التي تتألف منها الكتاب الفينيقية³، و هي مقسمة على ست كلمات: أبجد-هوز-حطي-كلمن-سعفص-قرشت. و قد أضاف إليها العرب ستة حروف هي: ثخذ-ضطغ. هذا الترتيب يستعمل اليوم في تقسيم البحث إلى فقرات أو أجزاء، و لم تستعمله المعاجم قط سواء منها القديمة أو الحديثة، قال الخوارزمي في (مفاتيح العلوم): " حروف حساب الجمل (عند العرب) وهي : أبجد-هوز-حطي-كلمن-سعفص-قرشت-ثخذ-ضطغ، هذا على ما يستعمله المنجمون و الحساب. فأما على ما يعرفه العرب، فأبو جاد هواز حطي كلمون سعفص، قرشات. و يزعمون أنها أسماء ملوك (كانو) للعرب العاربة"⁴.

أما الأبجدية عند أهل المغرب، فترتيبها على الصورة التالية: (أبجد-هوز-حطي-كلمن-سعفص-قرشت-ثخذ-ظغش)، فالاختلاف بين الفريقين في ثلاث كلمات فقط، بقي الخلاف قائما بين أهل المشرق و أهل المغرب في الترتيب الأبجدي قائما. ويرجع تاريخ الاختلاف إلى القرن الثالث الهجري، حيث حدث الانفصال بين الترتيب الأبجدي المشرقي والمغربي، و كذلك بين حروف المعجم (الهجاء) المشرقية والمغربية. فترتيب المشاركة هو: (أب ت ث ج ح خ د ذ ر ز س ش ص ض ط ع غ ف ق ك ل م ن ه و ي). و أما ترتيب المغاربة هو: (أب ت ث ج ح خ د ذ ر ز ط ظ ك ل ص ض ع غ ف ق س ش ه و ي).

و قد فضل الصفدي (ت 764هـ/1363م) الترتيب المشرقي لأنه أكثر اتساقا فقال: " و أحسن ترتيب في الحروف ما رتب على حروف أهل المشرق هي ألف باء تاء جيم حاء خاء ثم تسرد متماثلين متماثلين إلى كاف لام ميم نون هاء واو لام ألف ياء، و بعضهم قدّم الواو على الهاء و منهم الجوهري في صحاحه، فأما حروف المغاربة فإنهم وافقوا المشاركة من أولها إلى الزاي ثم قالوا طاء ظاء كاف لام ميم نون صاد ضاد عين غين فاء قاف سين شين واو ياء.

و ترتيب المشاركة أحسن و أنسب لأنهم أثبتوا الألف أولاً و أتوا بالباء و التاء و الثاء ثلاثة و بعدها جيم حاء خاء ثلاثة متشابهة في الصور... و بعضهم رتب ذلك على حروف أبجد و ليس بحسن. و بعضهم رتب ذلك على مخارج الحروف و هم بعض أهل اللغة"⁵.

بين أبو عمرو الداني سبب تسميتها بحروف المعجم فقال: " و حروف المعجم المقطعة في الهجاء، و في تسميتها بذلك قولان: أحدهما مبنية لكلام، مأخوذ ذلك من قولهم: أعجمت الشيء، إذا بينته، و الثاني أن الكلام يختبر بها، مأخوذ ذلك من قولهم، عَجَمْتُ العود و غيرها، إذا اخترته"⁶ و قد عد أبو عمر الشيباني (ت 206هـ) أول من رتب المعجم حسب أوائل الحروف⁷. و من أوائل الذين اختاروا النمط المغربي في الترتيب المعجمي، الفقيه محمد بن حارث الخشني، القيرواني، الأندلسي (ت 361هـ) في كتابه (أخبار الفقهاء والمحدثين)⁸.

:

حتى عهد الخليفة معاوية بن أبي سفيان (41-60هـ/ 661-680م) لم تكن الحروف العربية لا مشكولة و لا منقوطة. فقام أبو الأسود الدؤلي (ت 69هـ) بإضافة الشكل. و في زمن الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان (65-86هـ/ 685-705م)، نهض نصر بن عاصم الليثي (ت 90هـ) حينما كلفه الوالي الحجاج بن يوسف الثقفي تمييز الحروف ليزول الالتباس و الاشتباه فيها عند الكتابة⁹.

:

في عهد الخليل بن أحمد الفراهدي (ت 170هـ) كان الترتيب الأبجدي و الألفبائي معروفين و متداولين، ولكنه أهملها و ابتدع ترتيبا جديدا مبنيا على أساس صوتي أخذ بعين الاعتبار تقارب الأصوات من حيث تدرج مخارجها من أقصى الحلق إلى ظاهر الشفتين. لقد كان ترتيب الخليل هذا مبنيا على أساس المخارج. و تقسيمه كان على النحو التالي: (ع ح هـ غ خ - ق ك - ج ش ض - ص س ز - ط ت د - ظ ث ذ - ر ل ن - ف ب م - و أي). و إن الخليل قد أحصى اللغة العربية لإحصاء تاماً و جمع حروف المعجم ضمن بيت واحد:

صَفْ خَلَقَ حَوْدَ كَوْثُلِ الشَّمْسِ فَرَاغَ إِذْ بَرَعَتْ يَحْطِى الصَّجِيعُ بِهَا نَجْلَاءُ مِعْطَارُ¹⁰

تتناول هذه الدراسة طريقة الترتيب الهجائي لأربعة نماذج من كتب التراجم حتى أوائل القرن السادس الهجري، و بداية الثاني عشر الميلادي¹¹. و من خلال تتبعنا لترتيب التراجم بكل عمل من الأعمال السابقة نستطيع أن نحدد منه الاتجاهات التي سار عليها مؤلفو كتب التراجم في استخدامهم للترتيب الهجائي في أعمالهم، و هذا التابع سيكون من خلال النماذج التالية:

:

إن مؤلفي كتب التراجم الأندلسية خلال الفترة المدروسة حين استخدموا الترتيب الهجائي في أعمالهم قد ساروا في ذلك في اتجاهين متضادين هما:

الاتجاه الأول: و فيه استخدم الترتيب الهجائي استخداما غير دقيق و الأعمال في هذا الاتجاه قد تباينت من حيث مقدار عدم الدقة في استخدام الترتيب، و هي في ذلك انقسمت إلى:

- أ- أعمال التزم مؤلفوها بالحرف الأول فقط من أسماء الأشخاص المترجم لهم دون الاعتبار لباقي الحروف المكونة لأسمائهم وكذلك دون النظر إلى أسماء آبائهم وأجدادهم.
- ب- أعمال التزم مؤلفوها بالحرف الأول من أسماء الأشخاص المترجم لهم كذلك بالحرف الأول من أسماء آبائهم دون النظر إلى باقي الحروف المكونة لأسمائهم وأسماء آبائهم، وكذلك دون الاعتبار لأسماء أجدادهم.
- و هذا يعني أن الأعمال في الحالتين السابقتين لم يتعد الالتزام فيها الحرف الأول فقط من حروف أسماء الأشخاص المترجم لهم أو أسماء آبائهم أو أسماء أجدادهم، والجدول التالي يبيّن لنا الأعمال في كل حالة من الحالتين السابقتين التي سارت في هذا الاتجاه.

جدول يمثل توزيع الأعمال وفقاً للعنصر الملّزم به في الترتيب

أعمال التزم بالحرف الأول فقط من أسماء المترجم لهم وأسماء آبائهم	أعمال التزم بالحرف الأول فقط من أسماء المترجم
1- جذوة المقتبس	1- تاريخ علماء الأندلس
2- بغية الملتبس	2- كتاب الصلة

رتب ابن الفرضي أسماء الأعلام في كل فصل من فصول الأسماء في الباب الواحد وفق لحرف الإسم الأول من دون احتساب اسم الوالد في الترتيب وهذا ما يكلف القارئ بعض وقته وجهده، لأنه مضطر في مثل هذه الحالات إلى البحث عن اسمه "إبراهيم"¹². أو عن اسمه "محمد"¹³ وسط فيض من الأسماء الواردة في فصل اسمه إبراهيم أو أحمد.

أما ابن بشكوال فقسم أسماء الأعلام في كل فصل من فصول الأسماء في الباب الواحد وفقاً لحرف الإسم الأول دون احتساب اسم الوالد في الترتيب، وهذا ما يكلف أيضاً القارئ بعض وقته وجهده، لأنه مضطر إلى البحث عن اسمه "أحمد"¹⁴ وعن اسمه "عبد الله"¹⁵، وسط كم هائل من هذه الأسماء المتشابهة. وتختلف طرق الترتيب عند الحميدي عن سابقه، إذ رتب أسماء الأعلام في كل فصل من فصول الأسماء في الباب الواحد وفقاً لحرف الإسم الأول واحتساب اسم الأب أو الجد، مثلاً عن اسمه "أحمد"¹⁶ وعن اسمه "جعفر"¹⁷.

و اتبع الضبي طريقه سلفه الحميدي في ترتيب أسماء الأعلام في كل فصل من فصول الأسماء في الباب الواحد وفقاً لحروف الإسم الأول واحتساب اسم الأب والجد، مثلاً عن اسمه "محمد"¹⁸ وعن اسمه "أحمد"¹⁹.

و من الواضح أن فن استخدام الترتيب الهجائي غير الدقيق في هذه الأعمال، بالنسبة للقرون الثلاثة، وهي القرن الرابع والخامس وبداية السادس الهجري، كان أمراً طبيعياً ليس في الأندلس فحسب بل العالم الإسلامي ككل. ومن التراتيب

الممكنة في صناعة المعجم و فهرسة المادة، الترتيب الأبجدي و هو ترتيب قديم يعزى إلى نظام الكتابة الفينيقية، و عدد حروفه إثنان و عشرون حرفاً (أبجد، هوز، حطي، كلمن، سففص، قرشت)، وقد أضاف العرب لهذه الحروف (ثخذ، ضطغ)، فصارت ثمانية و عشرين حرفاً.²⁰

:

تنقسم التراجم التي استخدمت الترتيب الهجائي هنا من حيث مستوى الترتيب بها إلى مجموعتين ، أحدهما بسيطة الترتيب و هي كتابي: (جذوة المقتبس، و بغية الملتمس). و هي تراجم اتفقت في ترتيب مداخلها ترتيباً فقط دون استخدام أي طريقة أخرى من طرق الترتيب.

أما المجموعة الثانية و التي تمثل كتابي (تاريخ علماء الأندلس، و كتاب الصلة)، فإنها لم تكتفي في ترتيب مداخلها بالترتيب الهجائي فقط. إذ نجد خطوط الترتيب هما: ثلاثة خطوط هي: الترتيب الهجائي في الخط الأول، ثم النوعي في الخط الثاني، أما الخط الثالث فهو الترتيب الزمني.

كتاب تاريخ علماء الأندلس: هجائي-نوعي-زمني

كتاب الصلة: هجائي-نوعي-زمني.

جدول يمثل توزيع الأعمال المرتبة ترتيباً هجائياً وفقاً لمستوى الترتيب

أعمال بسيطة الترتيب	أعمال مركبة الترتيب
1- جذوة المقتبس	1- تاريخ علماء الأندلس
2- بغية الملتمس	2- كتاب الصلة

بالنسبة للخط الثاني النوعي، فقد قام ابن الفرضي و ابن بشكوال بترتيب الأشخاص المترجم لهم في عمليهما ترتيباً هجائياً، و قد فعلا في داخل بعض الأسماء بين نوعين من الأشخاص الذين يحملونه حيث بدأ في داخل الاسم الواحد بمن يحملونه من أهل الأندلس ثم بعد الإنتهاء من الترجمة لهم يبدأ بمن يحملونه من الغرباء عن الأندلس و هم القادمون من المشرق الإسلامي، و إليك الجدولين التاليين لتوضيح ذلك:

جدول يمثل الغرباء عند ابن الفرضي

الباب	حرف الألف	الجزء	الصفحة	رقم الترجمة	المنطقة
باب إبراهيم	إبراهيم بن علي بن محمد بن	1	33	50	خراسان

				أحمد الديلهي	
باب إسماعيل	إسماعيل بن القاسم بن عبدون بن هارون	1	76	223	ديار بكر
باب زيد	حرف الزاي زيد بن الحباب العكلي	1	150	464	الكوفة

جدول يمثل : الغرباء عند ابن بشكوال

الباب	حرف الألف	الجزء	الصفحة	رقم الترجمة	المنطقة
أحمد	الألف	2	84	182	تاهرت
أحمد بن قلسم بن عبد الرحمن	//				
أحمد بن زكرياء	//	2	84	183	مصر
إسماعيل بن عبد الرحمن	//	2	100	246	مصر

و كما هو واضح من الأمثلة فإن أبواب الغرباء غير ثابت في جميع الأسماء التي تبدأ في حرف الألف في كلا العملين: بل هي أيضا غير ثابتة في كل الأسماء التي تبدأ بالأحرف الأخرى، وهذا أمر طبيعي لأنه ليس من الضروري أن يجد كل مؤلف منهما في كل اسم من الأسماء التي شملها كتابه أشخاص غرباء عن الأندلس ويحملون هذا الاسم، لذلك فالخط الثاني في كلا العملين غير ثابت²¹. أما بالنسبة للخط الثالث بهما، وهو الترتيب الزمني، فإننا نجد في كل من تاريخ علماء الأندلس، وكتاب الصلة، و قد رتب الأشخاص الذين يحملون اسما واحدا ترتيبا زمنيا دون الاعتبار لأسماء آبائهم أو الأسماء أجدادهم²². أما من حيث مقدار الدقة في استخدام مؤلفي هذين العملين للترتيب الزمني، فإن ابن الفرضي و ابن بشكوال قد استخدموا الترتيب الزمني الدقيق وفقا لتواريخ وفاة أصحاب التراجم في أعمالهم²³.

:

اتجه مؤلفي هذه التراجم الذين رتبوا كتبهم ترتيباً هجائياً إلى البداية بالترجمة لأسماء محددة، كالبداية بالأحمدين أو المحمدين²⁴. و الجدول التالي يعكس لنا هذه الأعمال، و البداية التي اختارها مؤلف كل عمل منها لكتابه:

جدول يمثل: توزيع الأعمال وفقاً للبدايات بها

أعمال بدأت بالأحمدين	أعمال بدأت بالمحمدين ثم الأحمدين
كتاب الصلة	جذوة المقتبس
/	بغية الملتبس

في الخانة الأولى، بدأ ابن بشكوال بمن اسمه أحمد، و هذا عمل رتب محتوياته ترتيباً هجائياً غير دقيق و المتمثل في الالتزام بالحرف الأول فقط من أسماء أصحاب التراجم، ونجده يفضل البدء بالأحمدين و هذا طبيعي، لأن الله تعالى تبارك برسول الله صلى الله عليه وسلم. هناك عدداً من الاحتمالات أو الأسباب دعت مؤلفي كتب التراجم إلى تفضيل أسماء دون غيرها داخل الحرف الهجائي الواحد للبداية بها. و نجد كل من الحميدي و الضبي قد اتفقا في حرف الميم بالترجمة للمحمدين حيث أن أمامهم عدداً من الأسماء تبدأ بهذا الحرف.

و لا مناص أن مؤلف (بغية الملتبس) قد بين في مقدمته اعجابه بـ (جذوة المقتبس) و أنه احتوى هذا العمل في كتابه ثم أكمل عليه البعد الزمني حتى عصره. فهذا يعني أن يبدأ تراجمه بالمحمدين ثم الأحمدين كما فعل الحميدي. لم يبدأ ابن الفرضي بأسماء محددة يريد الترجمة لها، و لم يبدأ بعادة ذكر أسماء المحمدين و الأحمدين. و السبب في ذلك أن ابن الفرضي لم يبرر سير تراجمه في المقدمة.

:

إن الأعمال الأربعة حين رتبت تراجمها اتفقت في ترتيبها بالأسماء الحقيقية للأشخاص المترجم لهم، أي أنها رتبت بأحد العناصر الثلاثة المكونة للأسماء العربية و هو ما يسمى بالاسم أو العلم، لذلك فإن مؤلفيها قد واجهتهم مشكلة الترجمة للأشخاص الذين عرفوا و اشتهروا بغير أسمائهم الحقيقية بل بأحد العنصرين الآخرين للأسماء العربية، و هما الكنى و الألقاب. و حلا لهذه المشكلة اتجه مؤلفوا هذه الأعمال إلى الترجمة هؤلاء الأشخاص في أبواب جعلوها في نهاية أعمالهم للكنى أو الألقاب، و نتناول فيما يلي هذه الأبواب بشيء من التفصيل.

أ- أبواب الكنى:

تعرف الكنية بأنها "جزء من الاسم العربي الذي يتكون من كلمة أبو أو أم متبوعة باسم الابن أو اسم البنت"²⁵. و باب الكنى من أكثر الأبواب التي حرص مؤلفو كتب التراجم على أن تشتمل مؤلفاتهم عليه. و قد استعملته الأعمال الثلاثة عدا عملا واحدا هو (تاريخ علماء الأندلس). ونجد اتفاقا بين كتابي (جذوة المقتبس و بغية الملتبس)²⁶ في جعل الباب بعد الانتهاء من التراجم للأشخاص المعروفين بأسمائهم الحقيقية، إلا أن هناك عملا واحدا خالف مؤلفه ما سبق، حيث جعل هذا الباب ليس في نهاية العمل، بل في نهاية بعض الحروف، وهو كتاب (الصلة).

و من أمثلة أبواب الكنى عند ابن بشكوال، نجد في نهاية الترجمة للأشخاص المبذوة أسماءهم بحرف السين. يقول ابن بشكوال: "و من الكنى في هذا الباب أبو سلمة الزهدي، كان قديم الزهد و التقشف، و كان ممن فتن بمحمد المهدي، ذبحه البربر في شوال سنة 403هـ"²⁷. أبو سهل بن سليم بن نجدة الفهري المقرئ، توفي بطليطلة سنة 475هـ²⁸.

جدول يمثل طرق الترتيب في التراجم الأربعة:

المصدر	الإسم	الجزء	الصفحة	نوع الترتيب	الرقم
تاريخ علماء الأندلس	1- فخر المعلمة	1	309	هجائي / زمني	1044
جذوة المقتبس	1- صفية بنت عبد الله الربيعي	10	399	هجائي	986
	2- مريم بنت أبي الفصولي	10	399	هجائي	987
كتاب الصلة	1- فاطمة بنت يحيى بن يوسف المغامي	10	531	زمني (ت319هـ)	1530
	2- راضية	10	531	زمني (ت423هـ)	1537
	3- صفية بنت عبد الله الربيعي	10	532	زمني (ت417هـ)	1536
	4- ولادة لنت المستكفي بالله	10	534	زمني (ت484هـ)	1543
بغية الملتبس	1- أليسة	-	510	لم ترتب	1592
	2- ریحانة	-	511	لم ترتب	1598

يلاحظ في الخانة الأولى من الجدول، أنها أشارت إلى الأعمال التي إتفقت في طريقة الترتيب الهجائي. وقد اتبعت في ترتيب تراجم الرجال والنساء على حد سواء. أما الخانة الثانية فرتب مؤلفها تراجم النساء بطريقة تخالف ترتيب تراجم الرجال حيث رتبت زمانيا، بينما الخانة الثالثة شملت عملا لم يخضع مؤلفها تراجم النساء بها لأي طريقة من طرق الترتيب. إن المعطيات المتضمنة في كتب التراجم أصبحت تستدعي توظيفا جديدا و تأويلا آخر، إنها بحاجة إلى تحليل منهجي، إذا ما أردنا تجنب مرحلة الجمع البسيط للمعلومات وتراكمها.

إن القيام بجرد استكشافي شامل للمؤلف البيوغرافي بهدف الوصول إلى إعطاء نوع من الصورة "البانورامية" للتاريخ الثقافي والديني للأندلس كما عكسه كتب التراجم. و عليه فإن التعامل مع الأدب البيوغرافي يترجم في الواقع مفهوميين مختلفين للحدث التاريخي:

أولاً: لم يعد الحدث التاريخي يوجد مباشرة في الترجمة، وإنما أصبح الحدث نظريا مستخلصا بعد عمل طويل في تحليل معطيات التراجم.

ثانياً: لم تعد الترجمة إخبارية بما تحتوي عليه من معلومات جزئية، ولكن كذلك بما تمثله من حيث هي إنتاج فكري. و خلال دراستنا للتراجم سجلنا ظاهرتين أساسيتين هما:

الأولى: الاتجاه إلى الاهتمام بالروايات وتحصيلها عند الأندلسيين و هي العملية الثقافية التي قامت عليها كتب التراجم. الثانية: توجيه الأندلسيين الاهتمام بالرجال و التعريف بهم، سواء في كتب التراجم أو كتب الصلات، و هي عملية لاشك قد تأثر فيها الأندلس بالمشرق الذي شهد بشكل مبكر ظهور مؤلفات هذا الصنف، إلا أن هذا اللون العلمي استحكم عند الأندلسيين ليأخذ خطأ وافيا من اهتمامهم، و كأن نأيمهم عن المشرق جغرافيا قد نمت فيهم الإحساس بالشخصية الأندلسية، فوجهوا طاقاتهم إلى التعريف بالرجال و تسجيل مختلف طبقات العلماء. و نجدهم يركزون على الفرد الأندلسي لخصر مجال نشاطه العلمي و التأليفي، و تحديد الروافد العلمية التي استقى منها، بذكر شيوخه و الحديث عن رحلته²⁹. تعتبر كتب التراجم و كتب الصلات وثائق تاريخية يؤخذ بها، و يعتمد عليها في ذكر الحقائق و تقويمها، و تكتسب كتب التراجم ثقتها من العناصر التالية:

- عدالة المؤلف و صدقه.
- معاصرته للأحداث، فالمؤلف شاهد إثبات على ما ينقل.
- و تتمثل عناصر الوثائق التاريخية في كتب التراجم و كتب الصلات فيما يلي:

- تنوعت المادة التاريخية، فتشمل مختلف الجوانب التي يهتم بها الباحث، فهي تعرف بالرجال أفراداً، و تنقل نشاطهم وأعمالهم ومواقفهم، وتعرف بالمجتمع في حركته لترصد معاملة الاجتماعية والتعليمية والسياسية.
- التعريف بالرجال، فتأخذ في تجلية معالم الشيخ، وتذكر اسمه ونسبه، وتعدد أسماء شيوخه، ومصنفاته، وتستعرض نشاطه في التعليم والتأليف وممارسته خطة من الخطط، أو الرحلة، وتختتم الترجمة بتحديد الوفاة، سنة وشهراً ويوماً.
- و لكتب التراجم والصلوات واجهتين أساسيتين هما:
- أ- رصد مراكز التعليم: توضح معالم البيئة الثقافية من خلال الحديث عن مراكز التعليم و تعيين مدارسها واتجاهاتها العلمية، و تسمية الرجال القائمين بها، وتعيين المصنفات.
- ب- مواد الدراسة: ترسم لنا الأجواء العلمية، و المواد التي كانت تدرس والمصنفات التي كان يعتمد عليها خلال تلك المرحلة. لقد نضجت مدرسة التراجم الأندلسية على يد ابن الفرضي في القرن الرابع الهجري العاشر الميلادي، و حققت نهضة كبرى، سواء على مستوى التدقيق و التوثيق و المنهج.

الإحالات :

- ¹ -حول رجال الحديث و الاهتمام بفن الطبقات و التراجم، يرجى العودة إلى :
أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان، الذهبي، ميزان الاعتدال في نقد الرجال، ط 1 (تحقيق: علي محمد البجاوي)، القاهرة: دار إحياء الكتب العربية، 1382هـ/ 1963م.
- ² - حسين، نصار، المعجم العربي: نشأته و تطوره، ط 4، القاهرة: دار مصر للطباعة، 1988، ص 218. و أيضاً: عبد العزيز، فارح، المرجع السابق، ص ص 77-80.
- ³ - ظهرت الحضارة الفينيقية على الساحل الشامي، و من الكتابة الفينيقية تفرعت الأبجديات السامية، في القرن الثامن قبل الميلاد.
- ⁴ - الأبجدية في العربية و المعنى الذي يعنيه جمع حروف الهجاء العربية (28) هي :
- أبجد بمعنى أخذ. - كلمن بمعنى أصبح متعلماً.
- هوز بمعنى ركب. - سعنص بمعنى أسرع في التعلم.
- حطي بمعنى وقف - قرشت بمعنى أخذه بالقلب.
- ثخذ بمعنى حفظ - فظغ بمعنى أتم
للمزيد راجع كتاب الخوارزمي، باب الحروف.

أبو عبد الله محمد بن أحمد بن يوسف، الخوارزمي، مفاتيح العلوم، (تحقيق و دراسة: نبى النجار)، بيروت دار الفكر اللبناني 1990، ص

⁵ - للمزيد حول هذا الموضوع، راجع :

صلاح الدين خليل بين أيلك، الصفدي، الوافي بالوفيات، (تحقيق و اعتناء أحمد الأرناؤوط و تركي مصطفى)، بيروت: دار إحياء التراث العربي، 1420 هـ/ 2000، ج 1، ص 44.

⁶ - للمزيد حول هذا الموضوع راجع:

أبو عمرو، الشيباني، الجيم (تحقيق: عبد الكريم العزاوي - مراجعة: عبد الحميد حسين)، القاهرة: الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية، 1975،

و هو موجود على شبكة الأنترنت ، موقع مكتبة المشكاة الإسلامية.

⁷ أنظر ترجمته في:

ابن الفريسي، المصدر السابق، ج 2، ص ص 103-104، (رقم 1400)

الضبي، المصدر السابق، ص ص 69-70، (رقم: 96).

الحميدي، المصدر السابق، ص 59 (رقم 41).

⁸ - أيضا حول منهجه، عبد الفتاح فتحي، عبد الفتاح، عبد الفتاح فتحي، التاريخ و المؤرخون في مصر و الأندلس في القرن الرابع الهجري، العاشر الميلادي، ط 1، بيروت: دار الكتب العلمية، 1424 هـ/ 2004 م، ج 2، ص ص 653-668.

⁹ - فارح، عبد العزيز، صناعة الفهرسة و التكتيف، ط 1، وجدة: منشورات كلية الآداب و العلوم الإنسانية، 2002 م. 211 ص.

، ص ص 116-117.

¹⁰ - الخليل بن أحمد، الفراهيدي، كتاب العين (ترتيب و تحقيق: عبد الحميد هنداوي)، بيروت: دار الكتب العلمية، 1424 هـ/ 2003، ج 1، ص 30.

¹¹ - هذه الكتب هي : ابن الفريسي، أبو الوليد عبد الله بن محمد الأزدي، تاريخ علماء الأندلس (تحقيق: صلاح الدين الهواري)، ط 1، بيروت: المكتبة العصرية، 1427 هـ/ 2006 م. ج 2 - ابن بشكوال، أبو القاسم خلف، الصلة في تاريخ علماء الأندلس (اعتناء و شرح: صلاح الدين الهواري)، ط 1، بيروت: المكتبة العصرية، 1423 هـ/ 2003 م. 599 ص - الحميدي، أبو عبد الله بن أبي نصر فتوح، جذوة المقتبس في ذكر وفاة الأندلس، (ضبط و شرح: صلاح الدين الهواري) ط 1، بيروت: المكتبة العصرية، 1425 هـ/ 2004 م. 463 ص - الضبي، أحمد بن يحيى بن أحمد بن عميرة، بغية الملتبس في رجال الأندلس، (ضبط و شرح: صلاح الدين الهواري)، ط 1، بيروت: المكتبة العصرية، 1426 هـ/ 2005 م. 592 ص

¹² - نماذج التراجم عند ابن الفريسي:

ابراهيم بن حسين بن خالد : ج 1، ص 20 (رقم: 1).

ابراهيم بن اسماعيل: ج 1، ص 25 (رقم: 17).

ابراهيم بن هارون: ج 1، ص 30 (رقم 39)

¹³ - محمد بن يحيى السبيئي: ج 2، ص 6 (رقم: 1096).

محمد بن وضاح: ج 2، ص 19 (رقم: 1136).

محمد بن مسلمة: ج 2، ص 57 (رقم: 1255).

¹⁴ - نماذج التراجم عند ابن بشكوال:

أحمد بن أدهم: ج 1، ص 49 (رقم: 81).

أحمد بن رشيق: ج 1، ص 59 (رقم: 114).

أحمد بن سعيد: ج 1، ص 29 (رقم: 21).

¹⁵ - عبد الله بن محمد بن مغيث: ج 4، ص 206 (رقم: 548).

عبد الله بن محمد بن لب: ج 4، ص 210 (رقم: 563).

عبد الله بن محمد بن يوسف: ج 4، ص 212 (رقم: 573).

¹⁶ - نماذج التراجم عند الحميدي:

محمد بن إسحاق المهبلي: أبو بكر الإسحافي، ج 2، ص 51 (رقم: 23).

محمد بن عبد الله بن حكم، أبو عبد الله، ج 2، ص 71 (رقم: 88).

محمد بن يحيى النحوي، أبو عبد الله، ج 3، ص 102 (رقم: 165).

¹⁷ - جعفر بن محمد بن الربيع، أبو القاسم، ج 5، ص 183 (رقم: 350).

جعفر بن عثمان أبو الحسن، ج 5، ص 184 (رقم: 354).

¹⁸ - نماذج التراجم عند الضبي:

محمد بن حبيب النفزي، أبو بكر، ص 70 (رقم: 99).

محمد بن شاهد، أبو بكر الله الحمصي، ص 80 (رقم: 149).

محمد بن عباد، أبو القاسم القاضي، ص 111 (رقم: 248).

¹⁹ - أحمد بن محمد بن فرج الجياني، أبو عمر، ص 142 (رقم: 332).

أحمد بن أحمد بن أحمد الأزدي، أبو جعفر، ص 160 (رقم: 382).

أحمد بن مسلمة بن وضاح، أبو جعفر، ص 191 (رقم: 470).

20 - سميرة، خليل، خليل، سميرة: "الترتيب الهجائي و كيفيات استخدامه في كتب التراجم في القرن السادس الهجري"، مجلة المكتبات

و المعلومات العربية، العدد 3، لندن، دار المريخ، يوليو، 1987، ص 61. و أيضا: حنفي، ناصف، تاريخ الأدب العربي أوحياة اللغة

العربية، ط 3، القاهرة: مطبعة جامعة القاهرة، 1973، ص 26

²¹ - في كتاب ابن بشكوال مثلاً نجد من الغرباء في باب إبراهيم:

إبراهيم بن أحمد بن جعفر (طرابلس)، ج 2، ص 96 (رقم: 228).

إبراهيم بن جعفر بن أحمد (سبتة)، ج 2، ص 97 (رقم: 232).

و في كتاب ابن الفريسي: مثلاً نجد من الغرباء في طرف الجيم:

جساس الزاهد (سجلهاسة)، ص 106 (رقم: 325).

22 - ذكره ابن الفريسي ما قوله: " و من المولد و الوفاة ما أمكنني، على حسب ما قيده"، المصدر السابق، ص 14.

في حين ذكر ابن بشكوال ما نصه: " و قصدت إلى ترتيب الرجال- في كل باب- على تقادم وفياتهم كالذي صنع هو (ابن الفريسي)"، المصدر السابق، ص 17.

23 -رتب كل من ابن الفريسي و ابن بشكوال الأعلام في كل باب وفقاً لتقادم وفياتهم و من أمثلة ذلك:

المصدر	الأسماء	المدينة	تاريخ الوفاة	الجزء	الصفحة	الرقم
ابن الفريسي	إبراهيم بن حسين بن خالد	قرطبة	رمضان 249هـ	1	20	1
	إبراهيم بن حسين بن عاصم	قرطبة	رجب 256	1	20	3
ابن بشكوال	تمام بن غالب بن عمر اللغوي	قرطبة	436 هـ	2	112	284
	تمام بن عفيف بن تمام الصديقي	طليطلة	ذي القعدة 451 هـ	2	113	285

24 -عند ابن بشكوال الباب الألف من اسمه أحمد: ج 1، ص ص 21-86.

عند الحميدي، من اسمه محمد، ص ص 45-104.

// ، من اسمه أحمد، ص ص 104-148.

عند الضبي، من اسمه محمد، ص ص 46-138.

// ، باب الألف، من اسمه أحمد، ص ص 139-193.

25 - سميرة خليل، المرجع السابق، ص 60.

26 - جاء في كتاب الحميدي، باب من ذكر بالكنية

- أبو إسحاق بن همام الوزير، ص 480 (رقم: 1515)

- أبو عثمان بن عبد ربه، ص 489 (رقم: 1549)

و جاء في كتاب الضبي، باب الكنية

- أبو محمد الحجازي، ج 10، ص 377 (رقم: 918)

- أبو بكر المغيلي، ج 10، ص 379 (رقم: 925).

27 - ابن بشكوال، المصدر السابق، ج 4، ص 196 (رقم: 532)

²⁸ - نفسه، ج 4، ص 197 (رقم: 533)

²⁹ - عبد الله المرباط، الترغى، فهارس علماء المغرب: منذ النشأة إلى نهاية القرن الثاني عشرة للهجرة، ط 1، تطوان: منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، 1420هـ / 1999م، ص 106-107.